كتب النسر
قصص وروايات عالمية

/http://arabicivilization2.blogspot.com
Amly

سومرست موم

النقاب الملوّن

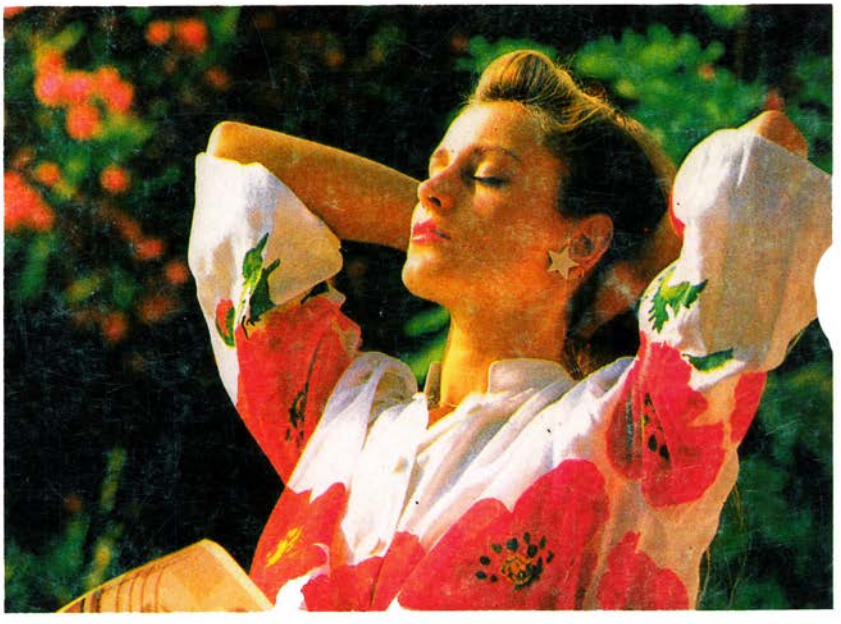

ترجمة : سمير عزت نصار

دار النسر للنشر والتوزيع

النقاب الملوّن

Amly

نهضة العرب

وليم سومرست موم (١٨٧٤ - ١٩٦٥)

ولد سومرست موم في ١٨٧٤ وعاش في باريس الى أن بلغ العاشرة من عمره ، وقد تلقى تعليمه في مدرسة الملك King's School في كانتيربري Canterbury ثم في جامعة هايديلبيرج Heidelberg وتجوّل بين أجنحة مستشفى القديس توماس ليتدرّب على ممارسة الطب ، لكن نجاح أول روايتين له : " ليزا من حي لامبيث" Liza of Lambeth (١٨٩٧) والسيدة كرادوك Mrs Craddock (١٩٠٢) حوّله الي الأدب . وقد انعكست تجاربه في المستشفى في أولى روائعه " عن الرباط البشري Of Human Bondage (١٩١٥). وبنشره روايته القمر وستة بنسات The Moon and Sixpence (١٩١٩) ، تعززت شهرته كروائي عالمي .

كما تعزز ككاتب مسرحي ناجح جداً على خشبات مسارح لندن في الوقت نفسه تقريباً فمثّلت له أولى مسرحياته " رجل شرف " A Man of Hounur (١٩٠٣) تبعتها سلسلة من المسرحيات الناجحة نجاحاً باهراً . ولم تعرض على خشبات مسارح لندن في ذلك الوقت مسرحيات يفوق عددها عدد مسرحيات موم سوى مسرحيات الكاتب الإيرلندي الشهير جورج برنارد شو . وكانت آخر مسرحية له " شيبي " Sheppey ١٩٣٣ .

ونشر أول مجموعة قصص قصيرة في ١٩٢١ تحت عنوان " ورقة مهتزة " واستمر يكتب القصة القصيرة بزخم ، فنشر عشر مجموعات، وقد جمعت تلك المجموعات في أربعة مجلّدات بيعت منها ملايين النسخ .

وتضم مؤلفاته كتب رحلات ومقالات عامة ونقدية وكتابات تدور حوله شخصياً وحول أسلوبه في الكتابة ككتابيّ : " تلخيص " Sum-ming up ١٩٣٨ ، " ومذكرة كاتب " A Writer's Note ١٩٤٩

وفي ١٩٢٨ ، استقر في جنوب فرنسا وعاش هناك الى أن مات في ١٩٦٥.

Amly نهضة العرب

النقاب الملوّن

تأليف : سومرست موم

ترجمة : سمير عزت نصّار

دار النسر للنشر والتوزيع / عمّان - الأردن
ص . ب / ٩١٠٥٨٦ هـ / ٦٥٩٤٦٠

Amly نهضة العرب

* إسم المولف : سومرست موم
* إسم الكتاب : النقاب الملوّن
* الطبعة العربية الأولى ١٩٩١ م
* الناشر : دار النسر للنشر والتوزيع - الأردن
عمان ص . ب / ٩١٠٥٨٦ هـ / ٦٥٩٤٦٠
* التوزيع : دار النسر للنشر والتوزيع
هذه هي الترجمة الكاملة لرواية : Painted Veil
تأليف : W . Somerset Maugham
طبعة : Penguin Books 1955

٨٢٣
موم موم ، وليم سومرست
النقاب الملون / وليم سومرست موم ، ترجمة سمير عزت نصّار . - عمان : دار النسر ، ١٩٩١ .
٢٥٧ ص
ر . أ (١٩٩١/٦/٢٨٣)
أ . سمير عزت نصّار ، مترجم ب . العنوان

تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل ١٩٩١/٦/٢٥٨ .

Amly نهضة العرب

... النقاب الملوّن هو ما يدعوه

أولئك الذين يَحَيْون : الحياة "

http://arabicivilization2.blogspot.com
Amly

I

أطلقَتْ صرخة فَزِعَة .

سأل :

– ما الأمر ؟

بالرغم من ظلام الغرفة مغلقة المصاريع الخشبية ، إلاّ أنه رأى وجهها وقد أصابه الرعبُ بذهول فجائي .

– حاول أحدهم فتح الباب الآن .

– حسناً ، ربما كانت الأمَة * أو أحد الخدم .

– لا يحضرون في هذا الوقت أبداً . فهم يعرفون أنني أنام دائماً بعد الغداء .

– مَنْ غيرهم يمكن أن يكون ؟

همست ، وشفتاها ترتجفان :

– وولتر Walter .

وأشارت الى حذائه . حاول انتعاله ، لكن عصبيته ، جعلته أخرق الحركات ، فقد كان فزعها يؤثر عليه ، إضافة الى أن الحذاء كان ضيّقاً . فأعطته لبّاسة أحذية ، وهي تشهق شهقة نفاذ صبر خافتة . ثم انزلقت داخل مبذل كيمونو واتجهت نحو طاولة الزينة وقدماها حافيتان . كان شعرها مشعثاً ، فلمّتْ شعثه بمشط قبل أن يفرغ هو من عَقْد رباط فردة حذائه الثانية . ثم ناولته معطفه .

– كيف سأخرج ؟

– يحسن أن تنتظر قليلاً . سأطلّ على الخارج لأتأكد من أن كل شيء على ما يرام .

---

* amah : خادمة (المترجم)

Amly نهضة العرب

- لا يمكن أن يكون وولتَر . فهو لا يغادر المختبر حتى الخامسة .
- مَنْ هو إذن ؟

تكلما همساً الآن . وكانت ترتعش . خطر في باله بأنها ستفقد أعصابها في حالة طوارىء ، فتولاه غضب نحوها فجأة . إنْ لم يكن الوضع آمناً ، فلماذا بحق الشيطان قالت له أنه آمن ؟ حبستْ أنفاسها ووضعت يدها على ذراعه . وتابع إتجاه نظراتها . ووقفا مواجهَيْن البابَيْن المؤديَيْن الى الشرفة . كانا بمصاريع خشبية ، وكانت تلك المصاريع محكمة الرتاج . رأيا مقبض الباب الكروي الصينيّ الأبيض يدور ببطء . لم يسمعا أحداً يمشي في الشرفة . كان من المرعب أن يريا تلك الحركة الصامتة . مرت دقيقة ولم يصدر أي صوت . ثم رأيا المقبض الكروي الصينيّ الأبيض على الباب الآخر يدور أيضاً بنفس الطريقة المسترقة الصامتة والمفزعة ، وقد دبّ في أوصالهما روعٌ خارق للطبيعة . كان الوضع مخيفاً الى درجة أن كيتي Kitty فتحتْ فمها لتصرخ وقد فقدت أعصابها ، لكنه وضع يده على فمها بسرعة وخفة بعد أن رأى ما كانت ستفعله ، فاختنقت صرختها بين أصابعه .

صمتتْ . مالت عليه وركبتاها ترتجفان ، فخشي أن يغمى عليها . فحملها الى سريرها ، وهو عابس وقد أطبق فكّه ، ثم أجلسها على السرير . كانت بيضاء كصفحة ورق وكانت وجنتاه شاحبتين أيضاً بالرغم من سمرته . وقف الى جانبها ناظراً الى المقبض الأبيض في تحديقة مسلوبة الإرادة . لم ينبسا . ثم رأى بأنها كانت تبكي .

همس مضطرباً :

- بالله عليك لا تبكي . إنْ تورطنا ، فنحن متورطان . ولا بد أن نواجه الورطة برباطة جأش .

بحثت عن منديلها ، فأعطاها حقيبتها بعد أن عرف ما كانت تريده.

- أين توبيّتك * ؟

---

* توبيه : topi , topee قبعة هندية من الفلين (المورد)

Amly نهضة العرب

– تركتها في الطابق السفلي .
– أوه ، يا إلهي !
– قلتُ ، تمالكي نفسك . مائة مقابل واحد أنه لم يكن وولتر . لماذا يعود في هذه الساعة بحق الأرض ؟ إنه لا يعود الى البيت في منتصف النهار أبداً ، أليس كذلك ؟
– أبداً !
– أراهنك بأي شيء يحلو لك بأنها كانت الأمَة .
ورشقته بظل إبتسامة . فقد طمأنها صوته العميق الملاطف ، فأخذت يده وضغطتها بحنان . وأتاح لها لحظة من الزمن لتستجمع شجاعتها .
ثم قال بعدئذ :
– إسمعي ، لا يمكننا أن نبقى هنا الى الأبد . هل تتحلين بالشجاعة الكافية لتخرجي الى الشرفة وتلقي نظرة ؟
– لا أرى أنني أستطيع الوقوف .
– ألديك بعض البراندي هنا ؟
هزّتْ رأسها . وأظلمتْ جبهتَه تقطيبةٌ ارتسمتْ عليها للحظة ، وأخذ صبره ينفذ ، ولم يعرف تماماً ما يفعله . فجأة ، قبضتْ على يده بقوة أشد .
– لنفرض أنه ينتظر هناك ؟
أجبر شفتيه على الإبتسام ، وحافظ صوته على نبرته الرقيقة التي كان موقناً تماماً من تأثيرها .
– ذلك ليس محتملاً كثيراً . تحلّي بقليل من الشجاعة يا كيتي . كيف يمكن أن يكون زوجك ؟ فلو كان قد دخل البيت ورأى توبيّة غريبة في الردهة وارتقى الدرج ووجد غرفتك مقفولة ، فمن المؤكد أنه كان سيثير نوعاً من الشجار . لا بد أنه كان أحد الخدم . ليس سوى إنسان صينيّ يدير مقبضاً بتلك الطريقة .
وازدادت طمأنينتها الآن :

Amly نهضة العرب

– ليس أمراً سارا جداً حتى وإنْ كانت هي الأمَة فقط .
– يمكن رشوتها ، وسأثير الخوف من الله في نفسها إنْ كان هذا ضرورياً. ليست ثمة ميزات عديدة في العمل في منصب حكومي ، لكنك يمكنك الإستفادة منه قدر ما تستطيعين .

لا بد أنه على حق . فنهضت واقفة ومدَّتْ ذراعيها اليه بعد أن التفتتْ نحوه ؛ فأخذها بين ذراعيه وقبّلها على شفتيها . لقد كانت قبلة نشوة عميقة الى درجة الإيلام . إنها تعبده . أفلتها ، فاتجهت نحو باب الشرفة . وَزَلَقَتْ الرتاج وأطلّت على الخارج بعد أن فتحت المصراع الخشبي قليلاً . لم يكن هناك أي مخلوق. فانسابت الى الشرفة ، وألقتْ نظرة على غرفة ملابس زوجها وعلى غرفة جلوسها هي . كانت كلا الغرفتين خاليتَيْن . عادت الى غرفة النوم وأشارت اليه :

– لا أحد .
– أظن أن الأمر كله كان خداع بصر .
– لا تضحك . لقد ارتعبت . أدخل غرفة جلوسي واجلس هناك . سأرتدي جورباً وانتعل حذاء .

II

فعل ما أمرته به ثم انضمت اليه بعد خمس دقائق . كان يدخن سيجارة .
– على فكرة ، أتسمحين لي في براندي وصودا ؟
– نعم ، سأرن الجرس .
– لا أظن أن الشراب سيضرك حسبما تبدو عليه الأمور .

انتظرا صامتَيْن حتى أجاب الخادم . وأصدرت الأمر . قالت له :

– هاتف المختبر واسأل إنْ كان وولتر هناك . لن يعرفوا صوتك .

Amly نهضة العرب

رفع السماعة وطلب الرقم . سأل إنْ كان دكتور فاين Dr. Fane في المختبر . ووضع السماعة . قال لها :

- لم يكن في المختبر منذ الغداء . إسألي الخادم إنْ كان هنا .

- لا أجرؤ . سيبدو الأمر سخيفاً إنْ كان هنا ولم أره .

أحضر الخادم الشراب ، فصبّه تاونسيند Townsend . وحين قدّم اليها بعض الشراب ، هزّت رأسها .

سألتْ :

- ما الذي سنفعله إنْ كان وولتر ؟

- ربما لن يهتم .

- وولتر ؟

كانت لهجتها غير مصدّقة .

- لقد خطر في بالي دائماً بأنه خجول الى حد ما . فبعض الرجال لا يحتملون الفضائح ، كما تعرفين . وهو يتمتع بما يكفي من حسّ ليعرف بأنه لن يجني شيئاً من إثارة فضيحة . وأنا لا أصدّق لدقيقة واحدة بأنه كان وولتر ، لكن ، حتى وإنْ كان هو ، فباعتقادي أنه لن يفعل شيئاً . أظن أنه سيتجاهل الأمر .

فكّرت للحظة .

- إنه يحبني حباً جماً .

- حسناً ، ذلك خير وأبقى . فيمكنك الإلتفاف حوله .

ورشقها بإبتسامته الساحرة تلك والتي وجدَتْها دائماً لا تقاوَم . كانت إبتسامة بطيئة تبدأ من عينيه الزرقاوين الصافيتين وتنتشر بدرجات محسوسة الى فمه جميل التكوين . كانت له أسنان بيضاء مستوية . وكانت إبتسامته حسّية وجعلت قلبها يذوب في جسدها .

قالت بومضة من مرح :

- لا أبالي كثيراً جداً . فما جرى يستحق التضحية .

- كانت غلطتي .

Amly نهضة العرب

– لا تقلقي رأسك الجميل الصغير بزائرنا الغامض . فأنا متأكد تماماً من أنها كانت الأمَة . وإنْ وقعت أية متاعب ، فأنا كفيل بإخراجك منها .
– ألديك كثير من الخبرة ؟
كانت إبتسامته ضاحكة ولطيفة .
– لا ، لكنني أطري نفسي قائلاً بأن لديّ رأساً راجحَ العقل على كتفيّ .

III

خرجت الى الشرفة وراقبته وهو يغادر البيت . لوّح بيده لها . لقد أحسّت بإثارة طفيفة وهي تنظر اليه ، لقد كان في الحادية والأربعين ، لكن له قواماً رشيقاً وخطى فتى متوثّبة .

كانت الشرفة في الظل ، فسارت متباطئة بكسل وقلبها يحس بالراحة من الحب المرضي . إن بيتهما قائم في الوادي السعيد ، على سفح التل ، إذ لم يكن ضمن إمكانياتهما المادية أن يعيشا في القمة الأرقى والغالية في نفس الوقت . لكن تحديقتها الشاردة لم تكد تلاحظ البحر الأزرق والسفن التي يعج بها المرفأ . فلم تستطع أن تفكّر إلاّ بمشيقها .

كان من الغباء طبعاً التصرّف حسبما تصرّفا بعد ظهر ذلك اليوم ، لكن كيف يمكنها أن تكون حذرة إنْ هو رغب فيها ؟ لقد حضر مرتين أو ثلاث مرات بعد الغداء ، حين لا يفكّر أحد في أن يخرج من البيت في حرارة النهار ، ولم يره حتى الخدم يأتي ويذهب . كان الوضع صعباً جداً في هونج كونج . ولقد كرهت المدينة الصينية وأثار غضبها ذهابها الى البيت الصغير القذر المتفرّع من طريق ڤكتوريا Victoria Road والذي اعتادا أن يلتقيا فيه . لقد كان مُلكاً لتاجر تحف ، وكان الصينيون الذي يجلسون قربه يحدّقون فيها على نحو مزعج ، وكانت تكره إبتسامة الرجل العجوز المداهنة الذي كان يأخذها الى خلف الدكان ثم يصعد معها

Amly نهضة العرب

مجموعة الدرجات المعتمة . وكانت الغرفة التي يقودها اليها زرية كريهة الرائحة ، والسرير الخشبي الكبير الملتصق بالحائط يثير فيها الرعدة .

قالت لتشارلي Charlie في أول مرة قابلته فيها هناك :

- هذا مكان قذر جداً ، أليس كذلك ؟

وأجابها :

- كان قذراً الى أن دخلته .

وفي اللحظة التي أخذها بين ذراعيه ، نسيت كل شيء طبعاً .

أوه ، كم هو بغيض أنها لم تكن حرة ، أنهما كلاهما لم يكونا حرَّين! لم تحب زوجته . واستقرت أفكار كيتي الشاردة على دوروثي تاونسيند Dorothy Townsend للحظة الآن . ما أتعس أن تدعى دوروثي ! إنه إسم يتعدّى زمنك . لقد كانت في الثامنة والثلاثين على الأقل . لكن تشارلي لم يتحدّث عنها قط . إنه لا يحفل بها طبعاً ، فهي تثير فيه الملل حتى الموت . لكنه كان رجلاً مهذّباً . وابتسمت كيتي بسخرية حنون : هذه هي طبيعته تماماً، الشيء العتيق السخيف ، فهو قد يخونها ، لكنه لا يسمح بكلمة إنتقاص لها أن تنطلق من بين شفتيه . لقد كانت أمرأة طويلة الى حد ما ، أطول من كيتي ، وهي ليست سمينه ولا نحيلة ، لها شعر بنيّ فاتح غزير ، لم تكن تتمتع بأي جمال سوى جمال الشباب ، وكانت ملامحها جميلة الى حد كاف دون أن تكون مدهشة وكانت عيناها الزرقاوان باردتين . وكانت لها بشرة لن تنظر اليها مرتين كما لم يكن لوجنتيها أي لون . وهي تلبس مثل - حسناً ، حسبما كانت ، زوجة مساعد أمين المستعمرات في هونج كونج . إبتسمت كيتي وهزّت كتفيها هزة خفيفة .

لا أحد يستطيع أن ينكر طبعاً بأن دورثي تاونسيند تتمتّع بصوت بهيج.. وكانت أماً رائعة ، وقد قال تشارلي ذلك عنها دائماً ، وكانت ما تدعوه أم كيتي بـ " المرأة المهذبة " . لكن كيتي لم تحبها . لم تحب سلوكها اللامبالي ، والأدب الذي تعاملك به ، حين تذهب الى هناك

Amly نهضة العرب

للشاي أو للعشاء ، مثيرٌ للسخط لإنك لا يمكنك إلاّ أن تشعر بقلة الإهتمام الذي توليك إياه . والحقيقة أنها لم تكن ، كما افترضتْ كيتي ، تهتم بشيء سوى بأطفالها ؛ ولها ولدان إثنان في المدرسة في إنجلترا ، وولد آخر في السادسة كانت ستأخذه الى الوطن في السنة القادمة . كان وجهها قناعاً . وتبتسم وتردد ، بطريقتها المبهجة وحسنةِ السلوك، كل ما تتوقّع أن تقوله ، لكنها وبالرغم من كل حفاوتها القلبية ، تبقيك بمنأى عنها . كانت لديها صديقات حميمات قليلات في المستعمرة ، أعجبن بها إعجاباً شديداً . وتساءلت كيتي إنْ كانت السيدة تاونسيند تراها عامية قليلاً . واحمر وجه كيتي . وبعد كل هذا ، ليس ثمة من سبب يدعوها الى أن تزهو . صحيح أن والدها كان حاكم مستعمرات ، وكان عظيماً جداً طبعاً حينما ظلّ في منصبه – فالكل ينهضون واقفين حين تدخل غرفةً ويرفع الرجال قبعاتهم لكَ وأنتَ تمر في سيارتك – لكن، أي منصب يكون أقل أهمية من منصب حاكم مستعمرات حين يتقاعد هذا الحاكم ؟ ووالد دوروثي تاونسيند يعيش على معاش التقاعد في بيت صغير في ايرلز كورت Earl's Court . وسترى أم كيتي أن الحال ستكون مضجرة جداً لو دعتها لزيارتها . وكان برنارد جارستين Ber-nard Garstin مستشار ملك ، ولم يكن هناك سبب يحول دون أن يصبح قاضياً في أحد هذه الأيام . وعلى أية حال ، إنهم يعيشون في جنوب كينسينجتون .

IV

وجدت كيتي ، وبعد حضورها الى هونج كونج عند زواجها ، أن من الصعب عليها أن تروّض نفسها على قبول حقيقة أن مركزها الإجتماعي تحدّده مهنةُ زوجها . لقد كان الكل رفيقاً جداً بها طبعاً ، ولقد خرجا مدة شهرين أو ثلاثة أشهر وكل ليلة تقريباً الى حفلات ، كما أن الحاكم

Amly نهضة العرب

استقبلها كعروس حين تعشيا في دار الحكومة ، لكنها سرعان ما عرفتْ بأنها لا تتمتع بمركز خاص كزوجة لعالم بكتيريا حكوميّ . لقد أثار هذا غضبها .

قالت لزوجها :

– إنه منتهى السخف . ياه ، لا يكاد يوجد أي شخص هنا يثير اهتمام أي إنسان في الوطن مدة خمس دقائق تقريباً . ما كانت أمي تحلم في أن تطلب من أي منهم أن يتناول العشاء في بيتنا .

أجابها :

– لا تدعي هذا يقلقك . إنه لا يهم حقاً ، كما تعرفين .

– إنه لا يهم طبعاً ، إنه يبيّن فقط مدى غبائهم ، لكن من السخرية الى حد ما حين تفكّر في كل الناس الذين اعتادوا على زيارة بيتنا في الوطن، بينما نُعامَل هنا كقذارة .

إبتسم :

– من وجهة نظر إجتماعية ، ليس لرجل العلم وجود .

لقد عرفتْ ذلك الآن ، لكنها لم تعرف هذا حين تزوجته .

قالت ، ضاحكة حتى لا يبدو ما قالته غروراً :

– لا أعرف إنْ كان سيسرني تماماً أن يدعوني وكيل أحد الموظّفين الصغار الى العشاء .

لعله رأى التأنيب وراء خفّة سلوكها ، فقد أخذ يدها وضغط عليها بخجل .

– أنا آسف جداً يا كيتي العزيزة ، لكن ، لا تدعي هذا يزعجك .

– أوه ، لن أدعه يزعجني .

Amly نهضة العرب

V

لا يمكن أن يكون وولتر ، بعدَ ظهر ذلك اليوم . لا بد أنه كان أحد الخدم ، وبعد كل هذا ، فلن يكونوا مهمين. فالخدم الصينيون يعرفون كل شيء على أية حال . لكنهم يمسكون ألسنتهم .

خفق قلبها بسرعة أكبر قليلاً حين تذكّرتْ الطريقة التي دار بها مقبض الباب الصينيّ الأبيض ببطء . يجب ألاّ يخاطرا على ذلك النحو ثانية . كان يحسن أن تذهب الى دكان التحف . لن يشك أحد يراها تدخل هناك بأي شيء ، وهما آمنان هناك تماماً . فصاحب الدكان يعرف من هو تشارلي ، ولم يكن من الغباء حتى يعادي مساعد أمين المستعمرات . وما الذي يهمها حقاً سوى أن تشارلي يحبها ؟

تحوّلت عن الشرفة ودخلت غرفة جلوسها . ألقت بنفسها على الصوفا ، ومدّت يدها لتأخذ سيجارة . ولمحت عيناها ملاحظة موضوعة فوق كتاب . فتحتها . كانت مكتوبة بقلم رصاص .

عزيزتي كيتي :

ها هو الكتاب الذي أردتِه . كنتُ سأرسله حين قابلتُ دكتور فاين وقال بأنه سيحمله بنفسه ، فقد كان ماراً بالبيت.

ف . هـ

رنّتْ الجرس وحين حضر الخادم سألته عَمّن أحضر الكتاب ومتى .

أجابها :

– سيدي أحضره يا سيدتي ، بعد الغداء .

إذن ، فقد كان وولتر . اتصلت هاتفياً بمكتب أمين المستعمرات على الفور ، وسألتْ عن تشارلي . وأخبرته بما علمتْ به منذ لحظة . ورانتْ فترة صمت قبل أن يجيب .

سألتْ :

– ما الذي سأفعله ؟

Amly نهضة العرب

VI

تبيّنت خلال ثلاثة أشهر من زواجها بأنها ارتكبت غلطة ، لكنها كانت غلطة أمها أكثر مما هي غلطتها .

كانت توجد في الغرفة صورة لأمها ، فوقعت عينا كيتي القلقتَيْن عليها . إنها لا تعرف لماذا أبقتها هناك ، فهي لم تكن شغوفة جداً بأمها ، وهناك صورة لأبيها أيضاً ، لكنها في الطابق السفلي على البيانو الكبير . وكانت قد أخذت حين عُيّن مستشاراً للملك ، فصوّرته وهو يضع لمّة وعباءة . إنهما حتى لم تضفيا عليه مهابة ، فقد كان رجلاً ضامراً قليلاً ، بعينَيْن وشفة عليا طويلة ، وفم رفيع ، وقد طلب منه مصوّر ظريف أن يبدو بشوشاً ، لكنه نجح فقط في أي يبدو صارماً . ولقد اختارت السيدة جارستين Mrs Garstin هذه الصورة من بين تجارب صور أخرى لهذا السبب ، فقد كانت زاويتا فمه الملتويتان الى الأسفل واكتئاب عينيه يضفي عليه جواً من كآبة طفيفة كقاعدة عامة ، فظنّت أنها تبديه في هيئة قاضي . أما صورتها هي فتظهرها في الفستان الذي ذهبت فيه الى البلاط حين عُيّن زوجها مستشاراً للملك . كانت فخمة جداً في الرداء المخملي ، وقد فُرد ذيله الطويل على نحو زاده بهاءً ، مع ريش في شعرها وزهور في يدها . كانت تشد قامتها منتصبة . وقد كانت إمرأة في الخمسين ، نحيلة ومنبسطة الصدر ، بارزة عظام الوجنتين ولها أنف كبير حسن الشكل . وكان لها شعر غزير ناعم جداً وأسود ، وطالما شكت كيتي بأنه إنْ لم يكن قد صُبغ فإنه قد رتّب تماماً على الأقل . ولم تكن عيناها السواداوان الجميلتان تستقران ساكنتين قط وكان هذا أبرز ما فيها ، إذ كان من المربك أن ترى تلكما العينين القلقتين في ذلك الوجه الجامد غير المغضّن والشاحب حين تتكلّم اليك . فهما تتنقلان من جزء الى جزء آخر ، وتتنقلان الى أشخاص آخرين في الغرفة ثم تعودان اليك ، فتشعر بأنهما تتفحصانك ، وتسبران غورك بينما تراقبان كل ما يجري

Amly نهضة العرب

حولها أثناء ذلك ، كما لا يكون للكلمات التي ترددها أية علاقة بأفكارها .

VII

كانت السيدة جارستين إمرأة صعبة وقاسية ومتسلّطة وطموحة وشحيحة وغبية . لقد كانت إحدى خمس بنات محام في ليڤربول ، وقد التقى بها برنارد جارستين حين كان في الدائرة القضائية الشمالية . وقد بدا حينذاك شاباً ذا مستقبل زاهر ، وقال أبوها بأنه سيرتفع . ولم يرتفع . لقد كان مجدّاً ومجتهداً وقديراً ، لكنه لم يكن يتمتع بإرادة ترقية نفسه . فازدرته السيدة جارستين ، لكنها أدركت في مرارة في نفس الوقت بأنها لن تحرز على أي نجاح إلاّ عن طريقه ، فانطلقت تدفعه على الطريق الذي ترغب في أن تسلكه . وأخذت تنقّ عليه بلا رحمة . واكتشفت بأنها إنْ أرادتْ منه أن يفعل شيئاً تتمرّد حساسيته المفرطة على فعله ، فلن يكون عليها سوى أن تقلق راحته ، فيستسلم أخيراً وقد أنهكه التعب . وانطلقت من جانبها ساعيةً لكسب صداقة الناس الذين يمكن أن يكونوا نافعين . فتملّقت الوكلاء القانونيين الذين سيرسلون الى زوجها مذكرات قانونية ، ورفعت الكلفة مع زوجاتهم . وكانت متذللة أمام القضاة وزوجاتهم. وقدّمت الكثير للسياسيين الواعدين بمستقبل باهر .

ولم تَدْعُ السيدة جارستين أبداً وخلال خمس وعشرين سنة أي شخص للعشاء في بيتها لإنها كانت تميل اليه . فقد أقامت حفلات عشاء كبيرة في فترات منتظمة . لكن الشحّ فيها كان قوياً قوة الطموح فيها . فهي تكره أن تنفق المال . وتزهو بأنها كان بوسعها أن تظهر أبهةً بالقدر الذي تظهرها أية إمرأة أخرى بنصف النفقات . فكانت حفلات عشائها حافلة ومتقنة الإعداد ، لكنها كانت تتميّز بالإقتصاد ،

Amly نهضة العرب

وما كان يمكنها أن تقنع نفسها بأن الناس يعرفون ما يشربونه وهم يأكلون ويتبادلون الحديث . فتلفّ شراب الموسيل Moselle الفوّار بفوطة ، معتقدةً أن الضيوف سيعتبرونها شامبانيا .

كان برنارد جارستين يتمتع بخبرة متوسطة لا خبرة واسعة . فسبقه، بشوط كبير ، الرجالُ الذين استدعوا للخدمة بعده . وقد حملته السيدة جارستين على أن يرشّح نفسه للبرلمان . وتحمّل الحزب نفقات الإنتخابات ، لكن شُحَّها هنا أعاق طموحها مرة أخرى ، فلم تستطع حمل نفسها على إنفاق ما يكفي من مال لرعاية دائرته الإنتخابية . وكانت التبرعات التي تقدّم بها الى عدد غير محدّد من هيئات ، يُتوقّع أن يقدّمها أي مرشّح للإنتخابات اليها ، أقل دائماً وبقليل مما هو مناسب . فهُزم . وبالرغم من أن السيدة جارستين كانت ستُسَرّ لو أنها أصبحت زوجة عضو برلمان ، إلاّ أنها احتملت خيبة أملها بجَلَد . وقد حملها ترشيح زوجها للبرلمان على أن تتصل بعدد من أشخاص بارزين ، فأرضاها إضافتهم الى مركزها الإجتماعي . وهي تعرف أن برنارد ما كان سيبرِّز في مجلس العموم . لكنها أرادت منه أن يكون عضواً فقط ليكون له حق عرفان حزبه بفضله ، ومن المؤكد أن مواجهته لمقعدين أو ثلاثة مقاعد ضائعة سيعطيه ذلك الحق .

لكنه ظلّ في رتبة دنيا بينما أصبح كثير من الشباب الأصغر منه سناً مستشارين للملك قبله. وكان من الضروري أن يصبح هو مستشاراً أيضاً ، لا لإنه كان يخشى ، إنْ هو لم يصبح مستشاراً ، أن يقل أمله في أن يصبح قاضياً فقط ، بل بسببها أيضاً ، فقد كان مما يقتلها أن تذهب الى العشاء وراء نساء يصغرنها بعشر سنوات . بيد أنها لقيت من زوجها عناداً لم تعتد عليه منذ سنين . فقد كان يخشى أن يفقد عمله حين يصبح مستشار الملك . فكلما قال لها ، عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة ، ظلّت ترد عليه أن الأمثال هي الملجأ الأخير للمفلسين فكرياً . وأوحى اليها بإمكانية أن ينقص دخله الى النصف ،

Amly نهضة العرب

وكان يعرف بأنه لم يكن ثمة حجة أقوى من هذه الحجة يمكن أن يكون لها أعظم وزناً عليها . لكنها لم تصغ اليه . ودعته جباناً . ولم تدعه في سلام ، فأذعن أخيراً ، كما يحدث دائماً . وتقدّم بطلب ليصبح مستشاراً للملك ، ومُنح المنصب على الفور .

وتحققت توجساته . فلم يندفع متقدماً كقائد كما قلّت قضاياه . لكنه أخفى أية خيبة أمل كان قد أحسّ بها ، وإنْ أنّب زوجته ، فقد أنّبها في قلبه . ولعله جنح الى الصمت قليلاً ، لكنه كان صامتاً دائماً في البيت ، فلم يلاحظ أحد في عائلته أي تغيير طرأ عليه . ولم تكن بنتاه تنظران اليه إلاّ كمصدر دَخْل ، وقد بدا دائماً أن من الطبيعي تماماً بأنه يجب أن يعيش عيشة الكلاب لكي يوفّر لهما المأوى والكساء والعطلات والمال اللازم لنفقاتهما النثرية ، وبعد أن فهمتا الآن بأن المال أصبح غير متوفّر على نحو كافٍ نتيجة لغلطته، شاب عدم الإكتراث الذي كانتا تكنّانه له احتقاراً ساخط . ولم يخطر في بالهما أن تسألا نفسيهما عن مشاعر الرجل الضئيل المغلوب على أمره ، الذي يغادر البيت في الصباح الباكر ويعود اليه في الليل فقط في وقت ارتدائه ملابسه للعشاء . لقد كان غريباً بالنسبة اليهما ، لكنهما كانتا تأخذان واجب حبه واعزازه لهما كأمر مسلم به لإنه كان والدهما .

VIII

لكن السيدة جارستين كانت تتمتّع بنوع من شجاعة تدعو الى الإعجاب بحد ذاتها . فهي لم تدع أحداً من دائرتها الأقربين ، التي كانت العالم بالنسبة اليها ، يرى مدى شعورها بالخزي من ضياع آمالها . فلم تغيّر شيئاً من أسلوب حياتها . فقد استطاعتْ أن تقيم ولائم عشاء فخمة كما كانت تفعل من قبل وذلك بتدبير دقيق منها ، وأن تقابل أصدقاءها بنفس البشاشة الباهرة التي راضت نفسها عليها منذ وقت

Amly نهضة العرب

طويل جداً . وكانت لديها ثروة ثرثرة حازمة وبارعة كانت تحوّلها في المجتمع الذي تتنقّل فيه الى حديث جذّاب . وقد كانت ضيفاً نافعاً بين الأشخاص الذين لا يأتيهم الحديث الخفيف بسهولة ، فهي لم تكن تعدم وسيلة أبداً لتقديم موضوع جديد ، وكان يمكن أن يوثق بها في أن تبدد صمتاً مربكاً على الفور بإطلاق ملاحظة مناسبة .

وأصبح من غير المحتمل الآن أن يُعيّن برنارد جارستين قاضياً في المحكمة العليا ، لكنه ظلّ يأمل في أن يُعيّن قاضياً لمحكمة أحد المناطق أو في المستعمرات على أسوأ الإحتمالات . وفي أثناء ذلك ، أحسّت بالرضى لرؤيتها له يُعيّن مسجلاً لمدينة في ويلز . لكن آمالها انصبّتْ على إبنتيها . فقد توقعت أن تعوّض عن كل خيبات أملها في الحياة العملية التي كانت تصبو الى الوصول اليها بتدبير زيجتين جيدتين لهما . كانتا إثنتين ، كيتي ودوريس . ولم تكن دوريس توحي بأية علامة من الملاحة ، فقد كان أنفها أطول من اللازم وقوامها ثقيلاً ، فلم تكن السيدة جارستين ترجو لها أكثر من زواجها من شاب حسن الحال يعمل في مهنة مناسبة .

لكن كيتي كانت جميلة . وقد بشّرت بأنها ستكون جميلة حين كانت لا تزال طفلة ، فقد كانت لها عينان واسعتان داكنتان وشعر مجعّد منساب وسيّال بنيّ اللون ومشوب بحمرة خفيفة ، وأسنان جميلة وبشرة بديعة . ولن تكون ملامحها جميلة جداً ، فذقنها عريضة جداً وأنفها كبير جداً مع أنه لم يكن طويلاً كأنف دوريس . ويعتمد جمالها كثيراً جداً على شبابها ، وقد أدركت السيدة جارستين بأنها لا بد أن تتزوّج في أول تدفق أنوثتها . وحين خرجت الى الحياة الإجتماعية ، كانت مذهلة : فقد كانت بشرتها لا تزال أعظم ما فيها من جمال ، لكن عينيها بأهدابها الطويلة كانتا نجمتَيْن دافئتَيْن حتى أنهما تأسران قلبك حين تنظر اليهما . كانت تتمتّع ببشاشة ساحرة ورغبة في أن تدخل السرور في القلوب . فمنحتها السيدة جارستين كل الحنان ، حناناً

Amly نهضة العرب

خشناً وجديراً بها ومدروساً ، حناناً كانت قادرة على منحه لها ، وراحت تحلم أحلاماً طموحة ، ولم يكن ما كانت تهدف اليه من أجل إبنتها زواجاً جيداً ، بل زواجاً باهراً .

لقد نشأت كيتي وهي تعرف بأنها ستغدو إمرأة جميلة ، ولم تشك قط في طموح أمها . فقد تطابق هذا مع رغباتها هي . وأطلقت الى العالم ، فاجترحت السيدة جارستين المعجزات لكي تُدعى الى حفلات رقص يحتمل أن تقابل إبنتُها فيها رجالاً جديرين بها . ونجحت كيتي . فقد كانت لطيفة إضافة الى أنها كانت جميلة ، وسرعان ما هام بها كثير من الرجال . لكن أحداً منهم لم يكن مناسباً لها ، فحرصت كيتي ، الساحرة والمترددة نحو الكل ، ألاّ تلزم نفسها نحو أي منهم . وكانت غرفة الإستقبال في جنوب كينسينجتون تعج بعد ظهر أيام الأحد بالشباب المتيّمين ، لكن السيدة جارستين لاحظت ، بإبتسامة رضى مقطّبة ، بأنها لن تحتاج الى بذل أي جهد من جانبها لتبقيهم بمنأى عن كيتي . وكانت كيتي مستعدة لمغازلتهم ، وكان يسليها أن تلعب بأحدهم ضد الآخر ، لكنها رفضتهم بلباقة وحزم حين عرضوا عليها الزواج، فما كان أي منهم يحجم عن التقدّم اليها بذلك .

ومرّ موسمها الأول دون أن يتقدّم اليها الخطيب المثالي ، والموسم الثاني أيضاً ، لكنها كان صغيرة السن وبإمكانها أن تنتظر . وقد أخبرت السيدة جارستين صديقاتها بأنها ترى أن من دواعي الرثاء بالنسبة الى فتاة أن تتزوج قبل الحادية والعشرين . لكن سنة ثالثة مرّت ثم رابعة ، وطلب إثنان أو ثلاثة من المعجبين القدامى يدها مرة ثانية ، لكنهم كانوا لا يزالون معدمين ، وعرض عليها فتى أو فتيان أصغر منها الزواج ، وفعل نفسَ الشيء موظّفٌ مدنيّ متقاعد في حكومة الهند أيضاً ويحمل رتبة ؛ وكان في الثالثة والخمسين . وظلّت كيتي ترقص كثيراً ، وتذهب الى ميادين سباق ويمبلدون ولورد والى أسكوت Ascot وهينلي Henley ، لقد كانت تمتع نفسها على نحو كبير ، لكن

Amly نهضة العرب

أحداً ممن له منصب ودخل مرض لم يطلب منها أن تتزوجه. وبدأتْ السيدة جارستين تحس بالقلق . ولاحظتْ أن كيتي أخذت تجتذب رجالاً في الأربعين وما فوق . وقد ذكّرتها بأنها لن تعود جميلة بعد سنة أو سنتين ، وأن فتيات شابات يظهرن في المجتمع طيلة الوقت . ولم تعد تَمطّ كلماتها في الدوائر المحلية ، وحذّرت إبنتها بحدّة بأنها ستضيّع سوقها .

هزّت كيتي كتفيها . فهي ترى نفسها جميلة كما كانت في السابق ، وربما أجمل ، فقد تعلّمت كيف تتأنق في ملبسها خلال السنوات الأربع الأخيرة ، كما أن لديها متسع من الوقت . فلو أرادت أن تتزوج لمجرّد أن تتزوّج ، فإن ثمة الكثير من الفتيان الذين سينقضّون على هذه الفرصة . ومن المؤكد أن الرجل المناسب سيتقدّم اليها عاجلاً أو آجلاً . لكن السيدة جارستين حكمت على الوضع على نحو أكثر دهاء ، فأنزلت مستواها قليلاً والغضب يعتمل في قلبها على إبنتها الجميلة التي فقدتْ فرصها . فولّت وجهها شطر طبقة المهنيين التي كانت تسخر منها في كبرياء ، وبحثت من بينها عن محام شاب أو رجل أعمال يوحي اليها مستقبله بالثقة .

وبلغت كيتي الخامسة والعشرين وظلّت غير متزوّجة . فاغتاظت السيدة جارستين ولم تتردد في أن تجاهر كيتي بأفكارها المستاءة جداً في أوقات عديدة . فقد سألتها الى متى تتوقع أن يعولها أبوها . فقد كان قد أنفق عليها مبالغ تفوق إمكانياته لكي يتيح لها فرصة ولم تنتهزها . ولم يخطر في بال السيدة جارستين أن دمائتها القاسية هي نفسها قد تكون أخافت الرجال ، أبناء آباء موسرين أو ورثة ألقاب شجّعتْ زياراتهم تشجيعاً قلبياً . لكنها عزت فشل كيتي الى غبائها . ثم خرجت دوريس الى المجتمع . وكانت لا تزال تتمتع بأنف طويل أيضاً وقوام سيء ، كما كانت ترقص رقصاً سيئاً . وخُطبتْ الى جيفري دينيسون Geoffrey Dennison في موسمها الأول . لقد كان الإبن

Amly نهضة العرب

الوحيد لطبيب جرّاح ناجح منح لقب بارون خلال الحرب . وكان جيوفري سيرث لقباً - ولم يكن شيئاً عظيماً أن تكون باروناً طبيّاً ، لكن أي لقب يبقى لقباً والحمد لله - وثروة مريحة جداً .

وتزوّجت كيتي وولتر فاين وهي فزعة .

IX

لقد عرفته لمدة قصيرة ، كما لم تحفل به كثيراً . لم تكن لديها أية فكرة متى تقابلا لأول مرة ولا أين ، الى أن أخبرها بعد خطبتهما بأنهما تقابلا في حفلة راقصة أحضره اليها بعض الأصدقاء . من المؤكّد أنها لم تلق اليه أي إهتمام حينذاك ، كما أنها ، إنْ رقصتْ معه حينذاك ، فإن ذلك لإنها كانت طيبة الخلق وكان يسرّها أن ترقص مع أي شخص يطلب منها هذا . ولم تكن تفرّق بينه وبين آدم حينما تقدّم اليها بعد يوم أو إثنين في حفلة راقصة أخرى وتكلّم اليها . ثم لاحظت بأنه كان يحضر الى كل حفلة رقص كانت تذهب اليها .

قالت له أخيراً بطريقتها الضاحكة :

- اتعرف ، لقد رقصتُ معك عشر مرات على الأقل حتى الآن ، ولا بد أن تذكر لي إسمك .

كان من الواضح أنه أخذ على حين غرة .

- أتعنين بأنك لا تعرفينه ؟ فقد قُدّمتُ اليك من قبل .

- أوه ، لكن الناس يغمغمون دائماً . لن أفاجأ قط إنْ لم يكن لديك شبح فكرة عن إسمي .

إبتسم لها . كان وجهه جاداً وعابساً قليلاً ، لكن إبتسامته كانت حلوة جداً .

- أعرفه طبعاً .

صمت للحظة أو إثنتين . ثم سألها بعدئذ :

Amly نهضة العرب

- ألستِ فضولية ؟
- قدر أغلب النساء .
- لم يخطر في بالك أن تسألي شخصاً أو آخر عن إسمي ؟

وسلاّها هذا قليلاً ، وتساءلت عما يدعوه الى الظن بأن اسمه يمكن أن يثير أدنى إهتمام في نفسها ، لكنها كانت تميل دائماً أن تدخل السرور الى قلب الآخرين ، فنظرت اليه وابتسامتها الخلاّبة تلك ترتسم على وجهها وعينيها الجميلتين ، بركتين نديتين تحت أشجار غابة ، حاملتين رقة فاتنة .

- حسناً ، ما هو ؟
- وولتر فاين .

لم تعرف لماذا كان يحضر الى حفلات الرقص ، فهو لا يرقص رقصاً حسناً جداً ، وبدا أنه يعرف القليل من الناس . وتكوّنت لديها فكرة عابرة بأنه كان يحبها ، لكنها طردت الفكرة بهزّة من كتفيها ؛ فقد عرفت فتياتٍ يعتبرن كل رجل يقابلنه واقعاً في غرامهن ، وكانت تراهنّ سخيفات دائماً . لكنها أولت وولتر فاين مزيداً من انتباهها . فيقيناً أنه لا يسلك سلوك الشباب الآخرين الذين وقعوا في غرامها . فقد فاتحها أهلهم بهذ الغرام بصراحة وأرادوا أن يقبّلوها ؛ وقد قبّلها الكثيرون . لكن وولتر فاين لم يتحدّث عنها ، كما تحدّث قليلاً جداً عن نفسه. فقد كان صامتاً الى حد ما ، ولم تهتم بذلك ، فلديها الكثير مما تقوله وكان يسرها أن تراه يضحك حينما كانت تطلق ملاحظة فكهة ، لكن كلامه لم يكن غبيّاً حين كان يتكلّم . كان من الواضح أنه خجول . بدا أنه كان يعيش في الشرق وعاد الى الوطن في إجازة .

بعد ظهر يوم أحد ، ظهر في بيتهم في جنوب كينسينجتون . كان هناك حوالي العشرة أشخاص، وجلس لبعض الوقت ، وهو قلق ، ثم انصرف . وسألتها أمها فيما بعد عنه .

- ليست لديّ أية فكرة . هل دعوته للحضور الى هنا ؟

Amly نهضة العرب

- نعم ، فقد التقيتُ به في بيت آل باديلي Baddeleys ، وقال لي بأنه رآك في عدة حفلات رقص . فقلتُ له بأنني أكون في البيت دائماً في أيام الأحد .
- إسمه فاين وهو يتولى منصباً في الشرق .
- نعم ، إنه طبيب . هل هو يحبك ؟
- يالله ! إنني لا أعرف .
- أظن أنك أصبحت تعرفين الآن متى يكون شخص واقعاً في حبك .
قالت كيتي في استخفاف :
- ما كنت لأتزوجه حتى وإنْ كان يحبني .
لم تجب السيدة جارستين . وكان صمتها مثقلاً بالإستياء . وتضرّج وجه كيتي : فقد كانت تعرف أن أمها لا يهمها مَنْ الذي ستتزوجه طالما ستلقي بعبء مسؤوليتها عن كاهلها بطريقة ما .

X

خلال الإسبوع التالي ، قابلته في ثلاث حفلات رقص ، وربما كان خجله قد خَفّ قليلاً ، فقد أصبح أكثر تواصلاً الى حد ما . كان طبيباً بالتأكيد ، لكنه لم يمارس الطب ، إذْ كان عالم بكتيريا (ولم تكن لدى كيتي سوى فكرة غامضة جداً عما يعنيه هذا التخصص) وكان يتولى منصباً في هونج كونج . كان سيعود اليها في الخريف . وتحدّث عن الصين كثيراً . وكانت قد تمرّست على أن تبدو مهتمة بما يتكلّم الناس اليها عنه، لكن الحياة في هونج كونج بدت مرحة تماماً ، فقد كانت هناك نوادٍ وتنس وسباق وپولو polo وجولف .
- هل يرقص الناس كثيراً هناك ؟
- أوه ، نعم ، أظن هذا .
وتساءلتْ إنْ كان قد أخبرها بهذه الأمور لدافع ما . بدا أنه يحب

Amly نهضة العرب

مجتمعها ، لكنه لم يوح أدنى إيحاء بالضغط على يدها أو بإلقاء نظرة أو بكلمة ، بإنه يعتبرها أي شيء آخر سوى أنها فتاة تقابلها وترقص معها فقط . وفي يوم الأحد التالي ، عاد وزار بيتهم . وصادف أن حضر أبوها الى البيت ، فقد كانت السماء تمطر ولم يكن قادراً على أن يلعب الجولف ، فتبادل هو وولتر فاين حديثاً طويلاً . وسألتْ أباها بعد ذلك عما كانا يتكلمان .

- يبدو أنه مستقر في هونج كونج . إن قاضي القضاة هناك من أصدقائي القدماء في المحاماة . وهو يبدو شاباً ذكياً غير عادي .

وكانت تعرف أن أباها كان يملّ ، كقاعدة عامة وحتى الموت ، من الشباب الذين كان مضطراً الى استقبالهم في بيته من أجلها ومن أجل أختها الآن .

قالت :

- قليلاً ما تميل الى أي من أصدقائي الشباب يا أبي .

واستقرت عليها نظراته العطوفة التعبة :

- هل ستتزوجينه على أية حال ؟

- بالتأكيد لا .

- هل هو يحبك ؟

- لا تبدر منه أية علامة على هذا .

- هل تميلين اليه ؟

- لا أظن أنني أميل اليه كثيراً جداً . إنه يغيظني قليلاً .

لم يكن من طرازها المفضّل إطلاقاً . فقد كان قصيراً ، لكنه لم يكن هليظ البنيان ، نحيلاً أكثر منه هزيلاً ، أسمر وحليق اللحية ، بملامح منتظمة حسنة التقاطيع . كانت عيناه سوداوين تقريباً ، لكنهما لم تكونا واسعتين ، ولم تكونا كثيرتيّ الحركة ، بل تستقران على لاشيء بإلحاح غريب ، كانتا عينين عجيبتين لكنهما ليستا بهيجتين جداً . ولا بد أن يكون جميل الشكل بأنفه المستقيم الدقيق وجبهته الرائعة وفمه

Amly نهضة العرب

حسن الشكل . لكن من المدهش أنه لم يكن جميل الشكل . وحين راحت كيتي تفكّر فيه الى حد ما ، دهشت من أن يكون لديه مثل هذه الملامح الحسنة حين تنظر اليها كلاً على حده . وكانت سيماؤه ساخرة قليلاً ، وبعد أن عرفته كيتي معرفة أوثق الآن ، أدركت أنها لا تكون مرتاحة معه تماماً . فهو لا يتمتّع بأي مرح .

وحالما أشرف الموسم على نهايته ، كانا قد تقابلا كثيراً ، لكنه ظلّ بعيداً ومستعصياً على سبر غوره بالقدر الذي كان عليه في السابق . لم يكن خجلاً معها بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، بل مرتبكاً ، وظل حديثه معها غير شخصي تماماً . وتوصلّت كيتي الى استنتاج بأنه لم يكن يكنّ لها أدنى حب . لقد مال اليها ووجد أن من السهل الحديث اليها ، لكنه حالما يعود الى الصين في تشرين ٢/نوڤمبر ، فإنه لن يعود يفكّر فيها . فكّرت بأن من غير المستحيل أن يكون مرتبطاً طيلة الوقت بممرضة في مستشفى في هونج كونج ، إبنة أحد رجال الدين ، فتاة بليدة، بسيطة مسطوحة القدمين ونشيطة ، تلك هي الزوجة التي ستناسبه تماماً.

ثم جاء إعلان خطبة دوريس على جيفري دينيسون ، وحققت دوريس ، وهي في الثامنة عشرة من عمرها زواجاً مناسباً تماماً ، بينما هي في الخامسة والعشرين وظلّت عزباء . وعلى فرض أنها لن تتزوج إطلاقاً ؟ وكان الرجل الوحيد الذي تقدّم طالباً يدها في ذلك الموسم فتى في العشرين من عمره ولا يزال في جامعة أكسفورد : لا يمكنها أن تتزوج فتى يصغرها بخمس سنوات . لقد لخبطت كل الأمور . فقد رفضت في السنة الماضية أرملاً يحمل لقب فارس من باث Bath وله ثلاثة أطفال . كادت تتمنى لو أنها لم ترفضه . ستصبح أمها رهيبة الآن، ولن تغفل دوريس عن التباهي عليها ، فدوريس هي التي ضُحيّ بها دائماً لإنه كان من المتوقع أنها هي ، كيتي ، ستحقق زيجة رائعة . وغاص قلب كيتي .

XI

لكنها وحينما كانت تمشي بعد ظهر أحد الأيام عائدة الى البيت من نادي هارود Harrod ، صادفت وولتر فاين في طريق برومپتون Brompton . فتوقف وتحدّث اليها . ثم سألها ، وعلى نحو عفوي ، إنْ كانت ستقوم بجولة معه في المنتزه . لم تكن بها رغبة ملحة في العودة الى البيت ، فلم يكن البيت حينذاك مكاناً ممتعاً جداً . فتمشيا ، وأخذا يتحادثان كما كانا يتحادثان دائماً عن أمور عابرة ، ثم سألها الى أين كانت ستذهب في الصيف .

– أوه ، إننا ندفن أنفسنا دائماً في الريف . فأبي ، كما ترى ، يكون منهك القوى بعد فترة العمل ، فنذهب الى أهدأ مكان نستطيع أن نجده .

تكلّمت كيتي متظاهرة بالجد وهي تهزل ، فهي تعرف تماماً بأنه لم يكن لدى أبيها ما يكفي من عمل ليتعبه ، وحتى لو كان لديه مثل هذا القدر من العمل ، فإن راحته ما كانت تؤخذ بعين الإعتبار في اختيار أية عطلة . لكن المكان الهادىء هو المكان الرخيص .

قال وولتر فجأة :

– ألا ترين بأن هذين الكرسيّين يغريان الى حد ما على الجلوس ؟

وتابعت عينيه ، فرأت كرسيّين أخضرين قربهما على العشب وتحت شجرة . قالت :

– لنجلس عليهما .

لكنه بدا ، حينما جلسا ، أن ذهنه أخذ يشرد على نحو غريب . لقد كان مخلوقاً غريباً . وتابعت هي ثرثرتها وهي مرحة ، وتساءلت في نفسها عن سبب دعوته لها لتمشي معه في المنتزه . ربما كان سيسرّ اليها عن عاطفته نحو الممرضة مبسوطة القدمين في هونج كونج . وفجأة ، التفت اليها ، مقاطعاً إياها في منتصف جملة ، مما أكّد لها بأنه لم يكن يصغي اليها ، وكان وجهه أبيض بياضاً طباشيرياً .

Amly نهضة العرب

- أريد أن أقول لك شيئاً .

نظرت اليه بسرعة ورأت بأن عينيه تمتلئان بقلق مؤلم . كان صوته متوتراً ، منخفضاً ، وغير مطرد تماماً. لكنه عاد وتكلّم قبل أن تتمكن من أن تسأل نفسها عما يعنيه هذا الإنفعال :

- أود أن أسألك إنْ كنتِ ستتزوجينني .

أجابت ، وقد فوجئت الى درجة أنها نظرت اليه بخواء :

- يمكنك أن تصرعني بريشة .

- ألا تعرفين بأنني غارق في حبك ؟

- لم تبيّن هذا قط .

- إنني أخرق وحييّ . إنني أجد دائماً صعوبة في قول الأمور التي أعنيها أكثر مما أجدها في قول الأمور التي لا أعنيها .

أخذ قلبها يخفق بسرعة أكبر . لقد عُرض عليها الزواج كثيراً من قبل ، لكن العرض كان على نحو مرح وعاطفي ، وقد كانت تجيب على العرض بنفس الأسلوب . ولم يطلب أحد منها الزواج بأسلوب فجائيّ ومأساوي على نحو غريب في نفس الوقت .

قالت والشك يساورها :

- إنه للطف شديد منك .

- لقد وقعتُ في حبك منذ أول مرة رأيتُك فيها . لقد أردتُ أن أطلب الزواج منك من قبل ، لكنني لم أستطع قط أن أحمل نفسي على هذا .

قهقهتْ :

- لستُ متأكدة إنْ كان ذلك قد صيغ على نحو جيد جداً .

وسرّها أن تتاح لها فرصة أن تضحك قليلاً ، فقد بدا أن الهواء حولها في هذا اليوم الرائع المشمس أخذ يثقل فجأة بنذير شر . وعبس مكفهر الوجه :

- أوه . أنتِ تعرفين ما أعنيه . إنني لا أريد أن أفقد الأمل . لكنكِ ستسافرين الآن وأنا لا بد أن أسافر عائداً الى الصين في الخريف .

Amly نهضة العرب

قالت بعجز :

- لم أفكّر فيك على ذلك النحو قط .

لم يزد على ما قاله شيئاً . غضّ نظره نحو العشب بوجوم . لقد كان شخصاً غريباً جداً . لكنها ، وبعد أن أخبرها الآن بهذا أحسّت بطريقة غامضة بأن حبه كان حباً لم تصادف مثله من قبل . خافت قليلاً ، لكنها ابتهجت أيضاً . لقد كانت سلبيته مؤثرة على نحو غامض .

- لا بد أن تمهلني بعض الوقت لأفكّر .

ظل صامتاً ولا يقول شيئاً . لم يتحرّك . هل يقصد أن يبقيها هناك حتى تقرر ؟ كان ذلك سخيفاً . لا بد أن تبحث الموضوع مع أمها . كان يجب أن تقف حين تكلّمت ، لكنها انتظرت ، ظانةً أنه سيجيب ، وها هي الآن تجد أن من الصعب عليها أن تحرّك ساكناً دون أن تعرف سبب هذا . لم تنظر اليه ، لكنها كانت تتبيّن مظهره ، لم تتخيّل نفسها قط تتزوج رجلاً أطول قليلاً منها . وحين تجلس لصقه فإنك ترى مدى جمال قسماته ، ومدى برودة وجهه . كان من الغريب ألا يسعك إلاّ أن تحس بالعاطفة المدمّرة التي كانت في قلبه .

قالت بصوت مرتجف :

- أنا لا أعرفك ، أنا لا أعرفك على الإطلاق .

ألقى عليها نظرة وأحسّت بعينيها تنجذبان الى عينيه . كانت فيهما رقة لم ترها فيهما من قبل قط ، لكن فيهما شيئاً مستجدياً ، كعينيّ كلب ضُرب بالسوط ، مما أثار سخطها قليلاً .

قال :

- أظن أنني أتحسّن عند التعرّف عليّ .

- أنتَ خجول طبعاً ، أليس كذلك ؟

لقد كان هذا أغرب عرض زواج قُدّم اليها بالتأكيد . وبدا لها ، حتى الآن ، بأنهما كانا يقولان لبعضهما بعضاً آخر الأمور التي تتوقع قولها في

Amly نهضة العرب

مناسبة كهذه . لم تكنّ تشعر نحوه بأدنى شعور بالحب . ولم تعرف لماذا ترددتْ في رفضه على الفور .

قال :

- إنني غبي جداً . أريد أن أقول لك بأنني أحبك أكثر من أي شيء في العالم ، لكنني أجد أن من الصعب جداً أن أقول هذا .

وكان ذلك غريباً أيضاً ، فقد أثّر عليها على نحو لا يمكن تفسيره ، إنه لم يكن بارداً حقاً ، لكن سلوكه هو الذي كان سيء الحظ طبعاً : وقد أحبّته في تلك اللحظة أكثر مما أحبته من قبل . كانت دوريس ستتزوج في تشرين ٢ / نوفمبر . وسيكون هو في طريقه الى الصين حينذاك ، وإذا هي تزوجته فستكون معه . ولن يكون حسناً جداً أن تكون وصيفة شرف في زفاف دوريس . وسيكون من دواعي سرورها أن تهرب من ذلك . كما ستكون دوريس إمرأة متزوجة عند ذاك وتظل هي عزباء ! والكل يعرف مدى صغر سن دوريس، وسيجعلها ذلك تبدو أكبر سناً . سيضعها هذا على الرف . لن يكون هذا زواجاً جيداً ، لكنه زواج، وستجعل حقيقة أنها ستعيش في الصين هذا الزواج أسهل عليها . لقد كانت تخاف من مرارة لسان أمها . آه ، لقد تزوجت كل الفتيات اللواتي خرجن الى حياة المجتمع معها منذ وقت طويل وأنجبت أغلبهن أطفالاً ، لقد تعبت من الذهاب الى زيارتهن والإفاضة بحديث عاطفي عن أطفالهن . لقد عرض عليها وولتر فاين حياة جديدة ، فالتفتت اليه وعلى وجهها إبتسامة كانت تعرف جيداً أثرها .

- إن أنا اندفعتُ وقلتُ بأنني سأتزوجك ، فمتى ترغب في أن تتزوجني؟

أطلق شهقة ابتهاج فجائية ، واحمرّت وجنتاه البيضاوان .

- الآن ، على الفور . بأسرع وقت ممكن . سنسافر الى إيطاليا لقضاء شهر عسلنا . شهر آب / أغسطس وشهر أيلول / سبتمبر .

سينقذها ذلك من قضاء الصيف مع أبيها وأمها في بيت رجل دين ريفي ، مستأجَر بخمس جنيهات في الإسبوع . ورأت بياضة وبعينيّ

Amly نهضة العرب

عقلها الإعلانَ في صحيفة مورنينج بوست Morning Post بأن الزفاف سيتم على الفور لإن العريس سيعود الى الشرق . إنها تعرف أمها حق المعرفة ، ويمكن الإعتماد عليها بإثارة ضجة ، ففي هذه اللحظة على الأقل، ستكون دوريس في خلفية الأحداث ، وحين يجري زفاف دوريس الأفخم من زفافها ، فإنها ستكون بعيدة عن البلاد .

ومدّت يدها .

– أظن بأنني أميل اليك كثيراً جداً . يجب أن تتيح لي الوقت لأتعوّد عليك .

قاطعها :

– إذن ، الجواب نعم ؟

– أظن هذا .

XII

عرفته معرفة بسيطة جداً حينذاك ، والآن وبالرغم من أنهما تزوجا منذ حوالي سنتين ، فإنها عرفته معرفة أقل من السابق . وقد تأثّرتْ في البداية من لطفه وتملقتها عاطفته بالرغم من اندهاشها منها . لقد كان مراعٍ لمشاعر الآخرين على نحو كبير ، وكان مهتماً عظيم الإهتمام براحتها ، فلم تعبّر عن أقل رغبة إلاّ وسارع في تلبيتها ، وظلّ يقدّم اليها هدايا صغيرة . وحينما كانت تمرض ، لم يكن أحد ألطف منه ولا أكثر إنشغالاً بها . وبدا أنها كانت تقدّم اليه خدمة حين كانت تتيح له فرصة القيام بأي عمل متعب لها . وكان دائماً مؤدباً الى أقصى درجة . فقد كان ينهض ليقف على قدميه حين تدخل غرفة ، ويقدّم اليها يده ليساعدها على الخروج من السيارة ، كما كان يرفع قبعته إنْ هو صادف وقابلها في الشارع ، وكان لا يألو جهداً في أن يفتح الباب لها حين تغادر الغرفة ، ولم يدخل غرفة نومها أو مخدعها دون أن يطرق الباب .

Amly نهضة العرب

لم يعاملها حسب الطريقة التي رأت كيتي أغلبية الرجال يعاملون زوجاتهم بها ، بل عاملها كأنها ضيفة زائرة في بيت ريفي . وكانت معاملته تدخل السرور الى النفس لكنها مثيرة للضحك أيضاً . كانت ستشعر بالراحة أكثر معه لو أنه كان أكثر بساطة معها . كما لم تقرِّبها علاقاتهما الزوجية اليه أكثر . فقد كان عاطفياً حينذاك ، وعنيفاً وهستيرياً أيضاً وشديد الإنفعال .

وقد أزعجها أن تدرك مدى عاطفيته . ولم تعرف إنْ كانت سيطرته على نفسه ناتجة عن خجله أو مرانه الطويل عليها ، وقد بدا لها أن مما هو جدير بالإحتقار قليلاً أن يستعمل لغة الأطفال وهي تستكين بين ذراعيه وقد خمدت رغبته ، وهو الذي يخجل جداً من أن يردد كلاماً سخيفاً ، وهو الذي يخشى الى درجة كبيرة في أن يكون سخيفاً . لقد أغاظته مرة بمرارة بالضحك وبالقول له بأنه كان يردد هراء رهيباً . فأحست بذراعيه ترتخيان حولها ، وظل صامتاً لوهلة وجيزة ، ثم تركها ودخل غرفته دون أن ينبس بكلمة واحدة . لم ترد أن تجرح أحاسيسه، لذلك قالت له بعد يوم أو يومين :

– أنتَ أيها الشيء السخيف العجوز ، لا يهمني أي هُراء تقوله لي .

وضحك بطريقة خَجِلة . لقد اكتشفت بأنه يعاني من عجز تعيس في إفلات زمام نفسه . وكان خجولاً. وحين يكون في حفلة ويبدأ الكل في الغناء ، لم يكن وولتر يستطيع أن يحمل نفسه على الإنضمام اليهم . فيجلس هناك مبتسماً ليبيّن بأنه مسرور ومستمتع بوقته ، لكن إبتسامته تكون مفتعلة : وتكون أشبه بابتسامة ساخرة ، ولا تستطيع منع نفسك عن الإحساس بأنه يرى بأن كل أولئك الناس المستمتعين بوقتهم ما هم إلاّ حفنة من حمقى . ولم يكن يستطيع أن يحمل نفسه على أن يلعب الألعاب الدائرية التي كانت كيتي بروحها العالية تجد فيها المرح . وقد رفض أثناء رحلتهما الى الصين أن يرتدي ملابس تنكرية رفضاً قاطعاً بينما كل الآخرين يرتدونها . وقد عكّر سرورها أنه يرى

Amly نهضة العرب

على نحو واضح أن الأمر كله مضجر .

كانت كيتي مفعمة بالحيوية ، راغبة في الثرثرة طيلة النهار ، وكانت تضحك بسهولة . لقد أزعجها صمته. وكانت لديه طريقة تثير سخطها في عدم الرد على ملاحظة عابرة تبديها . لقد كان صحيحاً أنها لا تحتاج الى رد ، لكن رداً على أية حال كان سيسرها . فإنْ كانت السماء تمطر وقالت : " إنها تمطر بغزارة " ، فإنها تود أن يقول : " نعم ، أليس كذلك ؟ " . لكنه يظل صامتاً . فترغب أحياناً في أن تهزّه . وتكرّر القول :

– قلت بأنها تمطر بغزارة .

فيجيب بإبتسامة متكلّفة :

– لقد سمعتك .

ويبدو من هذا أنه لم يعنِ أن يثير غيظها . فهو لا يتكلّم لإنه ليس لديه ما يقوله . وقد فكّرت كيتي وهي تبتسم : لو أن الإنسان لا يتكلّم إلاّ إذا كان لديه ما يقوله ، لفقد العنصر البشري القدرة على الكلام .

XIII

والحقيقة أنه ما كان يتمتع بأي سحر طبعاً . لذلك السبب لم يكن شعبياً، ولم تقضِ طويل وقت في هونج كونج لتكتشف أنه لم يكن كذلك. وبقيت معلوماتها غامضة جداً فيما يتعلّق بعمله . وكانت تلك المدة تكفي لكي تتبيّن بأن عالم البكتيريا الحكومي لم يكن من فئة عظيمة ، وقد تبيّنت هذا بجلاء تام . وبدا أنه لم تكن لديه رغبة في مناقشة ذلك الجزء من حياته معها . ولإنها كانت راغبة في أن تهتم بأي شيء في البداية ، فقد سألته عن عمله . لكنه أوقفها عند حدّها بمزاح :

– إن أجر من يشغله قليل إجمالاً .

وقال في مناسبة أخرى :

Amly نهضة العرب

- إنه يبخس حق الذي يشغله على وجه الإجمال .

لقد كان شديد التحفّظ . وتوصّلت الى كل ما عرفته عن ماضيه وبلاده وتعليمه وحياته ، قبل لقائها به ، بسؤاله عن ذلك مباشرة . كان من الغريب أن يكون الشيء الوحيد الذي بدا أنه يزعجه هو طرح سؤال عليه ، وحين أطلقتْ عليه ، بفضولها الطبيعي ، وابلاً منها ، صارت إجابته على كل واحد منها أقصر من الأخرى . وكان من فطنتها أنها رأت أن عدم إهتمامه بالإجابة على أسئلتها لم يكن بسبب أن لديه أي شيء يخفيه عنها ، بل بسبب تكتمه الطبيعي فقط . وكان يضجره أن يتكلّم عن نفسه . فذلك يجعله خجولاً وقلقاً . وهو لا يعرف كيف يكون منفتحاً . وكان ولوعاً بالقراءة ، لكنه كان يقرأ كتباً بدت لكيتي مملة جداً. فإنْ لم يكن مشغولاً ببعض البحوث العلمية ، فإنه يقرأ كتباً عن الصين أو مؤلفات تاريخية. إنه لا يستريح قط . وهي لا تعتقد بأنه يستطيع أن يستريح . لقد كان شغوفاً بالألعاب ، إنه يلعب التنس والبريدج .

لقد تساءلت عن سبب وقوعه في حبها . فلم تستطع أن تتخيّل أية إمرأة أقل منها ملاءمةً لهذا الرجل الكتوم البارد الهادىء . لكن من المؤكد تماماً بأنه أحبها بجنون . فقد كان سيفعل أي شيء في العالم ليدخل السرور الى نفسها . وكان كالشمع بين يديها . وحين تفكّر بجانب واحد أظهره لها ، بجانب رأته هي فقط ، احتقرته قليلاً . وقد تساءلت إنْ كان سلوكه الساخر ، بتساهله المحتقِر لعدد كبير من الأشياء والأشخاص الذين أعجبَتْ بهم ، مجرّدَ واجهة لإخفاء ضعف عميق في نفسه . لقد افترضت بأنه كان ذكياً ، فالكل يبدون بأنهم يرونه كذلك ، ولم تكن تجده مسلياً ، إلاّ حينما يكون مع شخصَيْن أو ثلاثة أشخاص من الذين يميل اليهم وحين يكون في مزاج رائق . لم يكن يضجرها بالضبط ، بل يثير فيها اللامبالاة .

Amly نهضة العرب

XIV

مع أن كيتي قابلت زوجة تشارلز تاونسيند في حفلات شاي مختلفة ، إلاّ أنها أمضتْ بضعة أسابيع وهو في هونج كونج قبل أن تراه . وقد قُدّمتْ اليه حينما ذهبت مع زوجها لتناول العشاء في بيته فقط . واتخذت منه موقفاً دفاعياً . فقد كان تشارلز تاونسيند مساعد حاكم المستعمرة ولم تكن تفكّر بالسماح له في معاملتها بنفس التنازل الذي لاحظته في معاملة السيدة تاونسيند لها ، بالرغم من سلوكها الطيّب . كانت الغرفة التي استقبلا فيها فسيحة . وكانت مؤثثة بأسلوب عائليّ مريح ككل غرفة استقبال أخرى دخلتها في هونج كونج. كانت حفلة كبيرة . وكانا آخر مَنْ حضر ، وحينما دخلا ، كان خدم صينيون في بزات رسمية يقدّمون الكوكتيل والزيتون . وقد حيّتهما السيدة تاونسيند بأسلوبها غير الرسمي ، ثم ذكرت لوولتر ، وهي تنظر الى قائمة ، السيدةَ التي سيُدْخلها معه الى غرفة الطعام لتناول العشاء .

ورأت كيتي رجلاً طويلاً مفرط الأناقة يقبل نحوهما :

– هذا زوجي .

قال :

– ستكون لي حظوة الجلوس الى جوارك .

أحسّتْ بالراحة على الفور واختفى الشعور بالعداء من صدرها . ومع أن عينيه كانتا تبتسمان ، إلاّ أنها رأتْ فيهما نظرة دهشة سريعة . وقد فهمتها تماماً ، وجعلتها تميل الى الضحك .

قال :

– لن أكون قادراً على تناول أي عشاء ، وإن كنتُ أعرف يا دوروثي بأن العشاء طيب جداً .

– لماذا ؟

– كان يجب أن أعلم . كان لا بد أن ينذرني أحدهم .

Amly نهضة العرب

- بماذا ؟
- لم يقل أحد كلمةً واحدة . كيف كان عليّ أن أعرف بأنني سأقابل جمالاً خلاّباً ؟
- والان ، ما الذي عليّ أن أقوله عن ذلك ؟
- لا شيء . دعيني أقوم بالكلام . وسأردد القول مراراً وتكراراً .

وتساءلت كيتي ، وهي غير متأثرة من كلامه ، عما كانت زوجتُه أخبرته عنها . لا بد أنه سأل عنها . وتذكّر تاونسيند فجأة وهو ينظر اليها بعينيه الضاحكتين . فإنه استفسر من زوجته حين أخبرته بأنها قابلت عروس دكتور فاين :

- ما شكلها ؟
- أوه ، شيء صغير لطيف تماماً . كممثلة .
- هل مَثَلَتْ على خشبة المسرح ؟
- أوه ، لا ، لا أظن هذا . فأبوها دكتور أو محامي أو شيء من هذا القبيل . أظن بأننا لا بد أن ندعوهما على العشاء .
- لا داعي للعجلة ، أليس كذلك ؟

وحينما كانا يجلسان جنباً الى جنب الى الطاولة ، قال لها بأنه عرف وولتر فاين منذ أن حضر الى المستعمرة .

- فنحن نلعب البريدج معاً . إنه أفضل لاعب بريدج في النادي ، يتفوّق على الكل تفوّقاً كبيراً .

قالت لوولتر وهما في طريقهما الى البيت .

- ذلك ليس جديداً، كما تعرفين .
- كيف يلعب ؟
- ليس على نحو سيء . إنه يلعب ويكسب جيداً جداً ، لكن ، حين تسوء أوراقه ، يتحطّم .
- هل يلعب جيداً كما تلعب أنت ؟
- لا تساورني أوهام حول لعبي . لا بد أن أصف نفسي كلاعب ماهر

Amly نهضة العرب

جداً من الدرجة الثانية . ويظن تاونسيند أنه لاعب من الدرجة الأولى . وهو ليس كذلك .

- ألا تحبه ؟

- لا أحبه ولا أكرهه . وأظن أنه ليس سيئاً في عمله ، ويقول الجميع بأنه رياضيّ جيد . وهو لا يثير اهتمامي كثيراً جداً .

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يثير فيها تحفّظ وولتر سخطها . ولقد سألت نفسها لماذا يكون من الضروري التمسّك بالحكمة الى هذه الدرجة ؛ فأنتَ إما تحب الناس وإما لا تحبهم . لقد مالت الى تشارلز تاونسيند كثيراً جداً . مع أنها لم تتوقع أن تشعر بهذا الميل اليه . فهو يكاد يكون أشهر رجل في المستعمرة . وكان من المفترض أن يتقاعد حاكم المستعمرة في وقت قريب ، وكان الكل يأمل أن يخلفه تاونسيند . إنه يلعب التنس والپولو والجولف . كما أنه يربي أمْهَرَ سباق . وهو مستعد دائماً في أن يقدّم لأي شخص خدمة . ولم يدع الروتين الحكومي يتدخل بأموره قط . كما أنه لا يتكبّر. ولم تعرف كيتي لماذا كانت تنفر من أن تسمع الناس يطرونه ، وما كان بوسعها إلاّ أن تفكّر بأنه لا بد أن يكون مغروراً جداً ؛ لقد كانت سخيفة جداً ، فذلك كان آخر ما يمكنك إتهامها به .

لقد استمتعتْ بأمسيتها . فقد تكلما عن المسارح في لندن وعن اسكوت Ascot وكاويس Cowes ، وكل الأمور التي عرفت عنها ، كأنها كانت قد قابلته حقاً في بيت راقٍ في حدائق لينوكس Lennox ، وقد سار الهوينى بعد أن دخل الرجال غرفة الإستقبال بعد العشاء ، ثم جلس الى جانبها ثانية . ومع أنه لم يقل أي شيء مسلٍ جداً ، إلاّ أنه حملها على الضحك ، لا بد أنها كانت الطريقة التي قالها بها ؛ فقد كان لي صوته العميق الغنيّ رنة مداعبة ، وكان في عينيه اللطيفتين الزرقاوين اللامعتين ، اللتين تجعلانك تشعر بأنك في بيتك تماماً ، تعبير مبهج . لقد كان فيه سحر طبعاً ، وذلك ما جعله طريفاً .

Amly نهضة العرب

فكرت : إنه طويل ، حوالي الستة أقدام وبوصتين على الأقل ، وله قوام جميل ، فهو في حال جيدة على نحو واضح ، وليس فيه آونسة شحم واحدة زائدة . كان أنيق اللباس ، أكثر الرجال الذين في الغرفة أناقة ، ويرتدي ملابسه على نحو جيد . وهي تحب أن يكون الرجل أنيقاً . وتحوّلت عيناها الى وولتر : يجب أن يحاول تحسين مظهره قليلاً حقاً . ولاحظت أزرار كميّ تاونسيند وأزرار صديريته ، لقد رأت أزراراً مشابهة لها في محلات كارتيير Cartier . إن لتاونسيند وسائل خاصة طبعاً . ووجهه ملوّح بعمق من الشمس، لكن الشمس لم تسلب اللون الصحي من وجنتيه . لقد أحبّت الشارب المفتول المشذّب الذي لم يخفِ شفتيه الحمراوين المليئتين . وكان شعره أسود قصيراً ممشوطاً بفرشاة ليصبح أملس تماماً . لكن عينيه اللتين كانتا تحت الحاجبين الكثيّن العريضين كانتا أجمل قسماته طبعاً : فقد كانتا زرقاوين تماماً وتتمتعان برقة ضاحكة تقنعك بجمال تكوينه . لم يكن أي رجل له تينك العينين الزرقاوين يستطيع أن يحتمل أيذاء أي إنسان .

لم يكن في وسعها إلاّ أن تعرف بأنها قد أثارت انطباعاً في نفسه . فإنْ هو لم يقل لها كلاماً ساحراً إلاّ أن عينيه الدافئتين من الإعجاب خانتاه . لقد كانت بساطته مبهجة . ولم يكن خجولاً . فأحست كيتي بالراحة في ظل هذه الظروف ، وقد أعجبت بالطريقة التي ألمح بها ، بين وقت وآخر ، باطراء جميل بين المزاح الذي كان قوام حديثهما . وحين صافحته عند مغادتهما الحفلة ، ضغط على يدها على نحو لا يمكن أن تخطئه . وقال بلا كلفة :

– آمل أن نراكِ ثانية في وقت قريب .

لكن عينيه منحتا كلماته معنى ما كانت تستطيع أن تعجز عن رؤيته.

قالت :

– هونج كونج صغيرة جداً ، أليس كذلك ؟

Amly نهضة العرب

XV

مَنْ كان يظن إذ ذاك بأنهما سيصبحان على مثل هذه العلاقة خلال ثلاثة شهور ؟ لقد قال لها بأنه هُوس بها في ذلك المساء الأول . فقد كانت أجمل مخلوق رآه في حياته . لقد تذكّر الفستان الذي كانت تلبسه ، لقد كان فستان زفافها ، وقال بأنها بدت كزنبقة الوادي . لقد عرفت بأنه وقع في حبها قبل أن يخبرها بذلك ، فأبقته بعيداً عنها وهي تحس بخوف طفيف . لقد كان مندفعاً وكان الوضع صعباً . فقد خافت أن تسمح له في أن يقبّلها ، فالتفكير بذراعيه وهما يحيطان بها جعل قلبها يخفق بسرعة كبيرة . فهي لم تكن قد وقعت في الحب من قبل . إن الحب رائع . والآن وبعد أن عرفت ما هو الحب ، شعرتْ بعطف فجائي على الحب الذي يكنّه لها وولتر . فأخذت تضايقه بمزاح ، ورأتْ بأنه يستمتع بهذا . ربما كانت خائفة قليلاً منه ، لكنها تحس الآن بثقة أكبر بالنفس . ومازحته قليلاً وكان يسرها أن ترى الإبتسامة البطيئة التي كان يتلقى بها مزاحها في البدء . اندهش وداخله سرور . وظنتْ في أحد هذه الأيام بأنه سيصبح ككل البشر تماماً . وبعد أن عرفت الآن شيئاً عن العاطفة ، فقد صار من دواعي تسليتها أن تلعب بخفة على عواطفه ، كعازف قيثارة harp يجري أصابعه على أوتار قيثارته . ولقد ضحكتْ حين كانت ترى مدى ما تثيره في نفسه من ارتباك وحيره .

وحين أصبح تشارلي عشيقها ، بدا أن الوضع بينها وبين وولتر قد أصبح سخيفاً جداً . فلم تكن تكاد تنظر اليه ، هو الرزين الوقور ، بدون أن تضحك . وكانت أسعد من أن تشعر بالقسوة نحوه . فلولاه، على أية حال ، ما كانت عرفت تشارلي . لقد ترددت لبعض الوقت قبل أن تخطو الخطوة النهائية ، لا لإنها لم تكن تريد أن تستسلم لعاطفة تشارلي ، فقد كانت عواطفها نحوه معادلة لعواطفه نحوها ، بل لإن تنشئتها وكل معتقدات حياتها كانت ترعبها . وقد ذُهلت فيما بعد

Amly نهضة العرب

(وكان الفعل النهائي ناتج عن صدفة ، فلم يجد أي منهما الفرصة إلاّ بعد أن واجهتهما) لاكتشافها أنها لم تختلف عما كانت في السابق . سيسبب بعض التغيير ، لم تكن تكاد تعرف ما هو هذا التغيير ، تغيير خيالي فيها فتشعر كأنها إنسانة أخرى ، وحين كانت تتاح لها فرصة النظر الى نفسها في المرآة ، كانت تشعر بالإرتباك حين كانت ترى نفس المرأة التي كانت تراها في اليوم السابق .

سألها :

- هل أنتِ غاضبة مني ؟

همست :

- أنا أعبدك .

- ألا ترين بأنكِ كنتِ سخيفة جداً لإضاعتك الكثير جداً من الوقت ؟

- بلهاء تماماً .

XVI

وجددت جمالَها سعادتُها التي كانت أعظم من أن تستطيع أن تحتملها . فقد أخذتْ تبدو قبل أن تتزوج تعبة ومسحوبة بعد أن بدأت تفقد نضارتها . فقال القساة بأنها تنتهي . لكن هناك فرق بين فتاة في الخامسة والعشرين وإمرأة متزوجة في ذلك السن . كانت كبرعم وردة أخذ يتحوّل الى اللون الأصفر عند أطراف بتلاتها ، ثم تحوّلت فجأة الى وردة في كامل إزهارها . فاكتسبت عيناها النجميّتان تعبيراً أكثر أهمية، وأصبحت بشرتها (ذلك الجزء من جسدها الذي كان دائماً مجال فخرها الأعظم وعنايتها الكبرى) مذهلة : فلم يكن من الممكن مقارنتها بالخوخ أو بالزهرة ، بل كان الخوخ والزهرة هما اللذان يطلبان مقارنتهما بها . لقد عادت تبدو في الثامنة عشرة من عمرها مرة أخرى . وكانت في قمة جمالها الباهر . ولم يكن من المستحيل عدم ملاحظة هذا عليها ،

Amly نهضة العرب

وقد أخذتها صديقاتها الى جانب وسألنها بود إنْ كانت تنتظر مولوداً . واقرّتْ اللامباليات ، اللواتي قلن بأنها لم تكن سوى إمرأة جميلة جداً بأنف كبير ، بأنهن قد أسأن الحكم عليها . لقد كانت ما دعاها تشارلي به حين رآها لأول مرة : جمالاً خلاباً .

وأدارا مؤامرتهما الغرامية بمهارة . لقد قال لها بأن له ظهراً عريضاً (وقاطعته بخفة : " لن أدعك تتباهى بقوامك ") ، ولم يكن يهمه أمر نفسه ، لكنهما كانا يحبان ألاّ يخاطرا أدنى مخاطرة من أجلها هي . فلم يكونا يستطيعان اللقاء وحدهما كثيراً ، ولا حتى نصف المرات التي كان يتمنى أن يتم فيها اللقاء بينهما ، لكنه كان لا بد أن يفكّر بها أولاً ، أحياناً في دكان التحف ، وفي بيتها بين وقت وآخر حين لا يكون في البيت أحد ، لكنها كانت كثيراً ما تراه هنا وهناك . وكان يسليها أن ترى الطريقة الرسمية التي يتكلّم بها اليها ، حيث يكون مرحاً ، فقد كان هو على ذلك النحو دائماً ، على نفس النحو الذي يكون فيه مع الجميع . فمن كان يمكن أن يتخيل ، حين يسمعونه وهو يمازحها بذلك الأسلوب الساحر الذي يتميّز به ، بأنه كان سيحتضنها بذراعيه العاطفيتّين بعد ذلك ؟

لقد عبدته . فقد كان رائعاً في جزمته العالية الجميلة وبنطال الركوب الأبيض حين يلعب البولو . وهو يبدو في ملابس التنس مجرّد فتى . لقد كان فخوراً بقوامه طبعاً : كان أروع قوام رأته في حياتها . وكان يتجشّم عناء المحافظة عليه . فهو لا يأكل الخبز أو البطاطا أو الزبدة قط . وكان يقوم بالكثير من التمارين الرياضية . وكانت تعجب بالعناية التي يولي بها يديه ، فقد كان يطليها بطلاء المنكير مرة في الإسبوع . لقد كان رياضياً مدهشاً ، وقد فاز ببطولة التنس المحلية في السنة الماضية . ويقيناً أنه كان أفضل راقص رقصت معه في حياتها ، لقد كان الرقص معه حلماً . لم يكن أحد يرى أنه في الأربعين من عمره . ولقد أخبرته بأنها لا تصدّق هذا .

Amly نهضة العرب

- أظن بأن كل هذا مجرّد خداع وأنكَ في الخامسة والعشرين حقاً .

ضحك . وكان مسروراً جداً .

- أوه يا عزيزتي ، لديّ إبن في الخامسة عشرة . أنا رجل في منتصف العمر . وخلال سنتين أو ثلاث سنوات سأكون مجرّد رجل عجوز سمين .

- ستكون فاتناً حين تكون في المائة .

وأحبّت حاجبيه السواداوين الكثيّين . وقد تساءلت إنْ كانا هما اللذان يضفيان على عينيه الزرقاوين تعبيرهما المقلق .

كان عظيم الإنجازات . فقد كان يعزف على البيانو عزفاً حسناً جداً ، موسيقى الرجتيم * طبعاً ، وكان يستطيع أن يغني أغاني هزلية بصوت رخيم وروح مرحة طيبة . لم تكن لتصدّق بأن هناك أي شيء لا يستطيع فعله ؛ كان ماهراً جداً في عمله أيضاً وكانت تشاركه في سروره حين كان يخبرها بأن الحاكم هنّاه بشكل خاص على الطريقة التي أنجز بها مهمة صعبة .

ضحك ، وعيناه ساحرتان من الحب الذي يكنه لها ؛

- بالرغم من أن الحال كما يقولون عنها ، فإن لا أحد في الخدمة كان يستطيع أن ينجزها على نحو أفضل مما أنجزتها .

آه . كم تمنتْ لو كانت زوجته وليستْ زوجة وولتر .

XVII

لم يكن من المؤكد بعدُ أنّ يكون وولتر قد عرف الحقيقة طبعاً ، وإنْ هو لم يعرفها ، فقد يكون من المستحسن أن تُترك المسألة ، لكنه إنْ عرف، فإنّ هذا سيكون خيراً لهم جميعاً في النهاية . ففي البداية ، كانت تحس بالإطمئنان ، إنْ لم يكن الرضى ، عند رؤية تشارلي خلسة فقط ، لكن

---

* ragtime موسيقى أمريكية ، زنجية الأصل (المورد)

Amly نهضة العرب

الزمن زاد من عاطفتها وأصبحت منذ وهلة نافذة الصبر على نحو متزايد من العقبات التي تمنعها من أن يكونا معاً دائماً . لقد أخبرها كثيراً بأنه يلعن مركزه الذي يجبره على أن يكون حذراً ، ويلعن الروابط التي تقيّده ، والروابط التي تقيّدها ، لقد قال : يا للروعة لو كانا كلاهما أحراراً ! لقد قدّرت وجهة نظره ، فلا أحد يريد فضيحة ، وسيتطلّب الأمر طبعاً الكثير من التفكير قبل أن تغيّر مجرى حياتك . لكن ، لو أن الحرية فُرِضَتْ عليهما ، آه ، فكم سيكون كل شيء سهلاً حينذاك !

لم يكن الأمر يبدو أن أي شخص سيعاني كثيراً جداً . فقد كانت تعرف بالضبط ما هي علاقاته مع زوجته . لقد كانت إمرأة باردة ولم يكن بينهما أي حب طيلة سنوات . كانت العادة هي التي تربطهما معاً، والمصلحة والأطفال طبعاً . فالوضع أسهل بالنسبة الى تشارلي مما هو بالنسبة اليها : فوولتر يحبها ، لكنه على أية حال مشغول في عمله ، ولدى الرجل دائماً ناديه ، فقد ينزعج في البداية ، لكنه سيتغلّب على هذا ، فليس ثمة سبب يمنعه من الزواج من امرأة أخرى . وقد أخبرها تشارلي بأنه لا يمكنه أن يتبيّن كيف حدث ورمت بنفسها على وولتر فاين .

لقد استغربت ، وهي تبتسم نصف إبتسامة ، لماذا ارتعبتْ قبل وهلة وجيزة عند التفكير بأن وولتر أمسك بهما متلبسَيْن. لقد كان من المفزع طبعاً أن ترى مقبض الباب يدور ببطء . لكنهما عرفا بأن وولتر يمكن أن يكون هو الذي يديره على أسوأ الإحتمالات ، وقد كانا مستعدَيْن لمواجهة هذا . وكان تشارلي سيشعر بارتياح عظيم ، قدر الإرتياح الذي ستشعر به ، أن يُفْرَض عليهما بالقوة ما كانا يرغبان فيه أكثر من أي شيء آخر في العالم .

لقد كان وولتر سيداً مهذباً ، ستكون منصفة له بإقرارها بذلك ، وهو يحبها ، وسيفعل الصواب ويسمح لها في أن تحصل على الطلاق . لقد ارتكبا غلطة ، ومن حسن الحظ أنهما اكتشفا هذا الخطأ قبل أن يفوت

Amly نهضة العرب

الأوان . لقد عَزَمتْ على ما ستقوله له وكيف ستعامله . ستكون رقيقة ومبتسمة وحازمة . ولن يكون لديهما أي داع ليتشاجرا . وسيكون من دواعي سرورها فيما بعد أن تراه . وأملت بصدق أن تظل السنتان اللتان قضياها معاً ذكرى لا تقدّر بثمن بالنسبة اليه .

فكّرت : " لا أظن أن دوروثي تاونسيند ستبالي بالحصول على الطلاق من تشارلي أدنى مبالاة . وحيث أن إبنها الأصغر سيعود الى انجلترا الآن فسيكون من الأفضل لها كثيراً أن تقيم في إنجلترا أيضاً . فليس لديها أي عمل تقوم به في هونج كونج . ستكون قادرة على قضاء كل العطلات مع أبنائها . كما أن لديها أباها وأمها في إنجلترا . "

كان كل شيء بسيطاً جداً ويمكن تدبير كل شيء بلا فضيحة أو استياء . وعندئذ ، يمكنها هي وتشارلي أن يتزوجا . أطلقتْ كيتي تنهيدة طويلة . سيكونان سعيدين جداً . إن تحقيق ذلك يستحق أن يتعرّضا الى متاعب معيّنة . وعلى نحو مشوّش ، دَفَعتْ صورةً صورةً أخرى ، ففكّرت في الحياة التي سيحيانها معاً ، وفي المرح الذي سيحظيان به ، والرحلات القصيرة التي سيقومان بها معاً ، والبيت الذي سيعيشان فيه ، والمناصب التي سيتبوأها والعون الذي ستقدّمه له . سيكون فخوراً جداً بها أما هي فإنها تعبده .

لكن تياراً من الخوف جرى متخللاً كل أحلام اليقظة هذه . كان مضحكاً : كأن آلات نفخ خشبية ووتريات أوركسترا تعزف ألحاناً أركاديّة * ، بينما تقرع الطبول في الخلفية جهورية الصوت bass إيقاعاً كئيباً برقة مع خفقات تحمل نذير شر في نفس الوقت . لا بد أن يعود وولتر الى البيت عاجلاً أو آجلاً ، فخفق قلبها بسرعة وهي تفكّر بلقائه ، فمن الغريب أنه خرج بعد ظهر ذلك اليوم دون أن يقول لها كلمة . لم تكن خائفة منه طبعاً ، وكررتْ القول لنفسها : ما الذي يمكنه أن يفعله

---

* أركاديّة ، Arcadia من أركادية أي أرض النعيم ، أي لحن بسيط جميل (المورد)

Amly نهضة العرب

على أية حال ، لكنها لم تستطع أن تخفف من قلقها . ورددت مرة أخرى ما ستقوله له . ما الفائدة من إثارة ضجة ؟ لقد كانت متأسفة جداً . والله يعلم بأنها لم ترغب في أن تسبب له أي ألم ، لكن لم يكن في يدها من حيلة إنْ هي لم تحبه . فليس جيداً أن تتظاهر ، ومن المستحسن دائماً أن تقول الحق . إنها تأمل ألاّ يحسّ بالتعاسة ، لكنهما ارتكبا خطأ ، والشيء المعقول الوحيد الذي يمكنهما فعله هو الإقرار بهذا . وستذكره دائماً بالخير .

لكنها ، حتى وهي تقول هذا لنفسها ، دفعتْ عصفةُ خوف فجائية العرقَ فتفصّد في راحتيّ يديها . ولإنها كانت خائفة ، أخذت تحس بالغضب منه . فإنْ أراد هو أن يثير فضيحة ، فإن ذلك سيكون وجهة نظره ، ويجب ألاّ يندهش إنْ هو نال أكثر مما ساوم عليه . ستخبره بأنها لم تهتم به أدنى إهتمام أبداً . وأن يوماً واحداً لم يمر عليها منذ زواجهما دون أن تحس بالندم . لقد كان بليداً . أوه ، كم أثار في نفسها الملل ، أضجرها ! أضجرها ! إنه يرى نفسه أفضل كثيراً من أي شخص آخر ، إن هذا مثير للضحك ، فهو لا يتمتّع بروح المرح ، وهي تكره مظهره المتشامخ وبروده وثقته بنفسه . من السهل أن تكون واثقاً بنفسك حين لا تكون مهتماً بأي شيء ولا بأي شخص سوى نفسك . إنه يثير نفورها . وهي تكره أن تدعه يقبّلها . ما الذي لديه ليكون مغروراً الى هذا الحد ؟ فهو يرقص رقصاً عفناً ، وهو بطّانية مبتلّة في الحفلات ، إنه لا يستطيع أن يعزف ولا أن يغني ، ولا يستطيع أن يلعب البولو ، ولعبه للتنس ليس أفضل من لعب أي شخص آخر . البريدج ؟ من ذا الذي يهتم بالبريدج ؟

أنهكت كيتي نفسها حتى بلغت قمة الإنفعال . ليجرؤ على تأنيبها . فكل ما وقع كان خطأه هو . إنها مغتبطة لإنه عرف الحقيقة أخيراً . لقد كرهته ورغبتْ في ألاّ تراه ثانية . نعم ، إنها مغتبطة بأن حياتهما قد انتهت . لماذا لا يتركها وشأنها ؟ لقد ألحّ عليها الى درجة الإزعاج لكي

Amly نهضة العرب

تتزوجه ، وها هي قد سئمت الآن .

كررت القول بصوت عال ، مرتجفة من الغضب :

- سئمت ! سئمت !

وسمعت السيارة تقف عند بوابة حديقتهما . وكان يرتقي الدرج .

XVIII

دخل الغرفة : أخذ قلبها يخفق بعنف ويداها ترتعشان ، كان من حسن حظها أنها كانت تتمدد على الصوفا . كانت تمسك بكتاب مفتوح كأنها كانت تقرأ ، وقف للحظة على عتبة الباب وتلاقت عيونهما . وغرق قلبها ، شعرت ببرد يتخلل أوصالها فجأة ، فارتعدت . شعرت بذلك الشعور الذي تصفه بقولك بأن شخصاً كان يمشي فوق قبرك ، كان وجهه شاحباً شحوب الموتى ، لقد رأته على ذلك النحو ذات مرة في السابق ، حين جلسا معاً في المنتزه وطلب منها أن تتزوجه . بدت عيناه الداكنتان والثابتتان والغامضتان كبيرتَيْن على نحو غير طبيعي . إنه يعرف كل شيء .

قالت :

- عدتَ مبكراً .

ارتجفت شفتاها الى درجة أنها لم تستطع تشكيل الكلمات إلاّ بصعوبة . لقد كانت مرتعبة . وكانت تخشى أن يغمى عليها .

- أرى أنه الوقت المعتاد تقريباً .

بدا لها صوته غريباً . وقد ارتفع عند الكلمة الأخيرة لكي يضفي على ملاحظته الأخيرة جواً من العفوية ، لكنه كان مفتعلاً . وتساءلت إنْ كان يرى أن أوصالها كلها ترتعش . ولم تمتنع عن الصراخ إلاّ بعد جهد . وغضّ بصره .

- سأرتدي ملابسي .

Amly نهضة العرب

غادر الغرفة . كانت مزعزعة . ولم تستطع أن تتحرّك لمدة دقيقتين أو ثلاث دقائق ، لكنها عثرت على قدميها أخيراً بعد أن رفعت نفسها عن الصوفا بصعوبة ، كأنها كانت تعاني من مرض ظلّت بعد أن أبلت منه ضعيفة . لم تعرف إنْ كانت قدماها ستسندانها . وتحسست طريقها الى الشرفة متكئة على الكراسي والطاولات ، ثم اتجهت الى غرفتها وإحدى يديها تتكيء على الجدار . ارتدت رداء الشاي ، وحين عادت ودخلت مخدعها (فهما يستخدمان غرفة الإستقبال فقط حين يقيمان حفلة) كان يقف عند الطاولة ناظراً الى صور مجلة سكيتش Sketch . كان عليها أن تجبر نفسها على الدخول .

– هل سننزل ؟ العشاء جاهز .

– هل أخرّتك ؟

كان من المفزع أنها لم تستطع أن تسيطر على ارتجاف شفتيها .

متى سيتكلّم ؟

جلسا ، وران صمت بينهما للحظة . ثم ألقى ملاحظة ، ولإنها كانت عادية ، فإنها حملت جواً من الشر.

قال :

– لم تصل الباخرة " الإمبراطورة " اليوم ، وأتساءل إنْ كانت عاصفة قد أخّرتها .

– هل اليوم موعدها ؟

– نعم .

نظرت اليه الآن فرأت أن عينيه كانتا مثبّتتَيْن على طبقه . وألقى ملاحظة أخرى ، بنفس القدر من التفاهة، عن دورة مباريات تنس توشك أن تجري ، وأطال في الحديث . كان صوته في العادة مقبولاً ، مع تغيير في نبرة صوته ، أما الآن فقد تكلّم بنبرة واحدة . كان هذا غير طبيعي على نحو غريب . فقد أوحى لكيتي بانطباع في أنه كان يتكلّم من مكان بعيد . وكانت عيناه طيلة الوقت تتجهان نحو طبقه ، أو الطاولة،

Amly نهضة العرب

أو نحو صورة على الجدار . لم يكن ليلتقي بعينيها . أدركت أنه لا يحتمل النظر اليها .

قالت حين انتهى العشاء :

- هل سنصعد الى الطابق العلوي ؟

- إن أردتِ .

نهضت وأمسكت بالباب لتبقيه مفتوحاً له . كانت عيناه تغضّان الطرف حينما مرّت به . وحينما بلغا غرفة الجلوس ، التقط الجريدة المصوّرة مرة أخرى .

- أهذه جريدة سكيتش الجديدة ؟ لا أذكر أنني رأيتها .

- لا أعرف . لم ألاحظ هذا .

لقد ظلّت ملقاة مدة إسبوعين وهي تعرف بأنه كان قد تصفّحها مراراً وتكراراً . أخذها وجلس . تمددت على الصوفا ثانية والتقطت كتابها . وكقاعدة في المساء ، وحينما يكونان وحدهما ، فإنهما يلعبان ورق الكُنكان أو لعبة الصبر . كان يميل الى الخلف متكئاً على ظهر أريكته في وضع مريح ، بينما بدا أن انتباهه مركّز على الصور التي كان ينظر اليها . لم يقلب الصفحة . وحاولت هي أن تقرأ ، لكنها لم تستطع أن ترى الطباعة أمام عينيها . كانت الكلمات لطخات غير واضحة . وبدأ رأسها يؤلمها ألماً عنيفاً .

متى سيتكلّم ؟

جلسا صامتَيْن مدة ساعة . كفّت عن التظاهر بالقراءة ، وتركتْ روايتها تسقط على حجرها ، ثم حدّقت في الفراغ . كانت تخشى أن تثير أدنى حركة وتطلق أدنى صوت . وجلس هو ساكناً في تلك الجلسة السهلة نفسها ، وحدّق في الصورة بتينك العينين الواسعتين الساكنتَيْن . كان سكونه يوحي بالتهديد على نحو غريب . أثار في كيتي شعوراً بأنه حيوان متوحش مستعد للإنقضاض .

وحينما نهض واقفاً فجأة ، فزعت . أطبقت يديها وأحسّت بنفسها

Amly نهضة العرب

تشحب . الآن !

وقال بذلك الصوت الهادىء الرتيب وقد أشاح نظراته عنها :

– لديّ بعض الأعمال . سأدخل غرفة مكتبي ، إنْ لم يكن لديكِ مانع . أظن أنكِ ستكونين في سريرك حين أنهي عملي .

– إنني تعبة الى حد ما هذه الليلة .

– حسناً ، تصبحين على خير .

– تصبح على خير .

وغادر الغرفة .

XIX

واتصلت بتاونسيند في مكتبه هاتفياً حالما تمكّنت من ذلك في الصباح التالي :

– نعم ، ما الأمر ؟

– أريد أن أراك .

– يا عزيزتي ، أنا مشغول جداً . إنني رجل عامل .

– إنه أمر مهم جداً . هل يمكنني الحضور الى مكتبك ؟

– أوه ، لا ، ما كنتُ سأفعل ذلك لو كنتُ مكانك .

– أوه ، تعال الى هنا إذن .

– لا يمكنني الخروج الآن . ما رأيك ببعد ظهر اليوم ؟ ألا ترين بأن من المستحسن ألاّ آتي الى بيتك ؟

– يجب أن أراك على الفور .

رانت فترة صمت ، وكانت تخشى أن يكون الخط قد انقطع .

فسألت بقلق :

– هل أنتَ هناك ؟

– نعم ، أنا أفكّر . هل حدث أي شيء ؟

Amly نهضة العرب

- لا يمكنني إخبارك عن طريق الهاتف .

وران صمت آخر قبل أن يتكلّم ثانية :

- حسناً ، إسمعي ، يمكنني تدبير الأمر لأراك لمدة عشر دقائق في الساعة الواحدة إنْ كان ذلك كافياً . يحسن أن تذهبي الى محل كو-تشو Ku - Chou وسآتي اليك حالما أتمكّن من ذلك .

سألت بفزع :

- دكان التحف ؟

أجاب :

- حسناً ، لا يمكننا أن نلتقي في ردهة الإنتظار في فندق هونج كونج .

لاحظت أثر غيظ في صوته :

- حسناً جداً . سأذهب الى محل كو - تشو .

XX

نزلت من عربتها الركشة rickshaw في طريق ڤكتوريا ، وصعدت المنحدر ، وهو زقاق ضيّق ، الى أن وصلت الى الدكان . تسكّعت خارجة لمدة لحظة كأن انتباهها قد تعلّق بالتحفة الزينيّة bric - á - brac المعروضة . لكن الصبي الذي كان يقف هناك مراقباً الزبائن إبتسم إبتسامة متواطئة بعد أن عرفها . وقال شيئاً باللغة الصينية الى أحد الأشخاص في الداخل ، فخرج صاحب المحل ، وهو رجل ضئيل سمين الوجه ، يرتدي رداء أسود ، وحيّاها . ودخلت مسرعة .

- مستر تاونسيند ما أتى بعد . أنت تصعدين فوق ، نعم ؟ *

إتجهت نحو مؤخرة الدكان وارتقت الدرج المتداعي المعتم . تبعها الصينيّ ثم فتح الباب المؤدي الى غرفة النوم . كانت فاسدة الهواء كما كانت تعبق برائحة أفيون حادة . جلست على صندوق من خشب

---

* استعمل الصيني لغة إنجليزية ركيكة (المترجم)

Amly نهضة العرب

الصندل .

وبعد لحظة ، سمعت خطوات ثقيلة على الدرج المصدر صريراً . دخل تاونسيند وأغلق الباب خلفه . كان وجهه يحمل نظرة متجهمة ، لكنها تلاشت حالما رآها ثم ابتسم بطريقته الفاتنة تلك . أخذها بسرعة بين ذراعيه وقبّل شفتيها .

- والآن ، ما هي المشكلة ؟

إبتسمت :

- إن مجرّد رؤيتك تسرّي عني .

جلس على السرير وأشعل سيجارة :

- تبدين شاحبة في هذا الصباح .

أجابت :

- لا أستغرب هذا . لا أظن أنني أغمضت عينيّ طيلة الليل .

ألقى عليها نظرة . كان لا يزال يبتسم ، لكن إبتسامته كانت متكلّفة قليلاً وغير طبيعية . ظنّت أنها رأت ظل قلق في عينيه .

قالت :

- إنه يعرف .

ران صمت للحظة قبل أن تجيب :

- ما الذي قاله ؟

- لم يقل أي شيء .

- ماذا !

ونظر اليها بحدة :

- وما الذي يجعلك تظنين بأنه يعرف ؟

- كل شيء . نظرته . الطريقة التي تكلّم بها عند العشاء .

- هل كان سيء الطبع ؟

- لا ، على العكس من هذا ، لقد كان مؤدباً على نحو يثير الشك . ولأول مرة منذ أن تزوجنا ، لم يقبّلني قبلة المساء .

Amly نهضة العرب

غضّت بصرها . لم تكن متأكدة إنْ كان تشارلي قد فهم . فكقاعدة متبعة ، كان وولتر يحيطها بذراعيه ويضغط شفتيه على شفتيها ولا يفلتهما . فيرق جسده كله ويصبح عاطفياً بقبلته .

– ما السبب الذي جعله لا يقول شيئاً كما تتصوّرين ؟

– لا أعرف .

رانت فترة صمت . وجلست كيتي ساكنة تماماً على صندوق خشب الصندل ونظرت بانتباه قلق الى تاونسيند . تجهّم وجهه مرة أخرى وارتسمت تقطيبة بين حاجبيه . تهدّل فمه قليلاً عند زاويتيه . لكنه رفع نظره فجأة وتسللت ومضة إبتهاج خبيث في عينيه .

– أتساءل إنْ كان سيقول أي شيء .

لم تجب . لم تفهم ما قصده .

– بعد كل هذا ، لن يكون هو أول رجل يغمض عينيه في وضع من هذا النوع . ما الذي سيكسبه من إثارة ضجة ؟ فلو أراد أن يثير ضجة ، لأصرّ على دخول غرفتك .

أومضت عيناه وانفرجت شفتاه عن إبتسامة عريضة .

– لكنا سنبدو كبلهاوَيْن ملعونَيْن .

– ليتك رأيتَ وجهه الليلة الماضية .

– أظن أنه كان منزعجاً . من الطبيعي أنها كانت صدمة . فهو موقف مذلّ لعين لأي رجل . وهو يبدو دائماً كأبله . إن وولتر لا يثير فيّ انطباعَ رجل يهمه أن ينشر الكثير من الملابس القذرة على الملأ .

أجابت وهي مستغرقة في التفكير :

– لا أظن هذا . إنه حسّاس جداً ، لقد اكتشفتُ ذلك .

– كل ذلك لمصلحتنا بالقدر الذي يعنينا . وأنتِ تعرفين بأنها خطة جيدة جداً أن تضعي نفسك في مكان شخص آخر وأن تسألي نفسك كيف ستتصرّفين وأنتِ في مكانه . وثمة طريقة وحيدة يمكن للرجل بها أن ينقذ ماء وجهه حينما يكون في موقف كذلك الموقف وهو أن يتظاهر

Amly نهضة العرب

بأنه لا يعرف أي شيء . وأنا أراهنك بأي شيء تريدينه بأن ذلك هو ما سيفعله بالضبط .

وكلما تكلّم تاونسيند أكثر كلما أصبح أكثر إستهتاراً . فتلألأت هيناء الزرقاوان وأصبح مرحاً ومبتهجاً مرة أخرى . وشعّ ثقةً مشجّعة .

- إنني لا أريد أن أذمه ، والله على ما أقول شهيد ، إلاّ أنكِ حين تعالجين جوهر الموضوع ، فإنك سترَيْن أن عالم البكتيريا ليس شخصاً عظيم الشأن . كما أن الفرص مهيّأة لي في أن أصبح حاكم المستعمرة حين يعود سيمونز Simmons الى الوطن ، ومن مصلحة وولتر أن يبقى على وفاق معي . فلديه خبزه وزبدته ليفكر فيهما ، كبقيتنا هنا ؛ هل ترَيْن بأن وزارة المستعمرات ستهتم كثيراً بشخص يثير فضيحة ؟ صدقيني ، إنه سيكسب الكثير إنْ هو أمسك لسانه وسيخسر كل شيء إنْ هو أثار ضجة .

وتململت كيتي . فهي تعرف مدى خجل وولتر ، وكانت تعتقد بأن خوفه من إثارة ضجة وخشيته من أن يلفت اليه الإنتباه العام قد يؤثرا عليه ، لكنها لم تصدّق بأنه سيحفل بالتفكير بفائدة مادية . ربما لم تعرفه جيداً جداً ، لكن تشارلي لا يعرفه على الإطلاق .

- هل خطر في بالك بأنه واقع في حبي بجنون ؟

لم يجب ، لكنه إبتسم لها بعينين ماكرتَيْن . إنها تعرف وتحب تلك النظرة الفاتنة .

- حسناً ، ما الأمر ؟ أنا أعرف بأنك ستقول شيئاً رهيباً .

- حسناً ، أنتِ تعرفين بأن النساء غالباً ما يقعن تحت تأثير الإنطباع بأن الرجال يحبوهن حباً جنونياً أكثر مما يحبوهن في الواقع .

ولأول مرة ضحكتْ . لقد كانت ثقتُه بنفسه مؤثرة .

- يا له من كلام وحشيّ تقوله .

- إنني أصوّر لك الأمر بأنكِ لم تكوني تحفلين كثيراً بزوجك مؤخراً . ربما لا يكون مولّهاً بحبك كثيراً كما كان في السابق.

Amly نهضة العرب

ردّت عليه :

- على أية حال ، لن أخدع نفسي أبداً بأنكَ مولّه بحبي الى درجة الجنون .

- ها هنا أنتِ مخطئة .

آه ، كم هو لطيف أن تسمعه يقول ذلك ! إنها تعرف هذا ، وإيمانها بعاطفته نحوها تدفيء قلبها . وحالما تكلّم ، نهض واقفاً عن السرير واقترب منها وجلس الى جانبها على صندوق خشب الصندل . وأحاط خصرها بذراعه .

قال :

- لا تُقلِقي رأسَكِ الصغير السخيف للحظة أطول . أعدك بأنه لن يكون هناك ما يخيفك . أنا متأكد ، كما أنا متأكد من أي شيء آخر ، من أنه سيتظاهر بأنه لا يعرف شيئاً . إن أمراً كهذا من الصعب جداً إثباته ، كما تعرفين . أنتِ تقولين بأنه يحبك ، فربما هو لا يرغب في أن يفقدك تماماً . أقسم أنني أفضّل أن أقبل أي شيء حتى لا أفقدك لو كنتِ زوجتي .

مالت نحوه ، فارتخى جسدها واستسلم على ذراعه . لقد كان الحب الذي تكنّه له يكاد يكون عذاباً . لقد أقرّت عليها كلماته الأخيرة : ربما كان وولتر يحبها الى درجة أنه على استعداد لقبول أي إذلال إنْ هي سمحتْ في أن يحبها في بعض الأحيان . بوسعها أن تفهم ذلك ، فذلك هو الشعور الذي تشعربه نحو تشارلي . وسرت رعشة فخر في جسدها ، وأحسّت في نفس الوقت باحتقار طفيف نحو رجل يحب على هذا النحو من العبودية .

وأحاطت رقبة تشارلي بذراعها والحب يفعمها .

- أنتَ مدهش تماماً . كنتُ أرتجف كورقة شجر حين جئتُ الى هنا وها أنت أعدتَ الأمور الى نصابها .

أخذ وجهها بين يديه وقبّل شفتيها .

Amly نهضة العرب

- حبيبتي .

تنهدت :

- أنتَ الطمأنينة لي الى درجة كبيرة .

- أنا متأكد من أنه لا داعٍ لإن تكوني عصبية . وأنتِ تعرفين بأنني سأقف الى جانبك . لن أخذلك .

وطرحت عنها مخاوفها ، لكنها أسفت ، على نحو غير معقول وللحظة من الزمن ، على أن خططها للمستقبل تحطّمت . والآن ، وبعد أن زال الخطر ، رغبتْ رغبة طفيفة في أن يصرّ وولتر على الطلاق .

قالت :

- أعرف أنني أستطيع الإعتماد عليك .

- وهذا ما آمله .

- ألا يجب أن تذهب لتتناول غداءك ؟

- أوه ، اللعنة على غدائي .

وجذبها نحوه ملصقاً إياها به ، فأصبحتْ محاطة بإحكام بين ذراعيه. وبحث فمه عن فمها .

- أوه يا تشارلي ، يجب أن تدعني أذهب .

- أبداً .

أطلقت ضحكة صغيرة ، ضحكة حب سعيد وضحكة انتصار ، وكانت يداه ثقيلتين بالشهوة . رفعها حتى وقفت على قدميها ، ملصقاً إياها بصدره ، ودون أن يدعها تفلت منه ، أقفل الباب .

XXI

ولكّرت طيلة بعد الظهر كله فيما قاله تشارلي عن وولتر . كانا سيتعشيان في الخارج في ذلك المساء ، فكانت ترتدي ملابس الخروج حين حضر من النادي . طرق الباب .

Amly نهضة العرب

- أدخل .

لم يفتح الباب .

- سأذهب لأرتدي ملابسي على الفور . كم ستستغرقين من وقت ؟

- عشر دقائق .

لم يقل شيئاً آخر ، لكنه ذهب الى غرفته . كانت في صوته تلك اللهجة المتكلّفة التي سمعتها منه في الليلة الماضية . أحسّت بالثقة بنفسها الآن الى حد ما . واستعدت قبل أن ينتهي ، وحين هبط الى الطابق السفلي ، كانت قد سبقته وجلست في السيارة .

قال :

- أخشى أن أكون قد أبقيتكِ تنتظرين .

أجابت وقد تمكّنت من الإبتسام وهي تتكلّم :

- لقد ظللتُ على قيد الحياة .

ألقت ملاحظة أو إثنتين ، وهما يهبطان التل بالسيارة ، لكنه أجاب عليهما بجفاف . هزّت كتفيها ، وازداد نفاذ صبرها قليلاً : إنْ أراد أن يتجهّم ، فليتجهم ، إنها لا تبالي . سارت السيارة وهما صامتان الى أن وصلا الى غايتهما . كانت حفلة عشاء ضخمة . فقد كان هناك الكثير جداً من الناس والكثير جداً من ألوان الطعام . وراقبته كيتي وهي تثرثر بمرح مع جيرانها . لقد كان شاحباً شحوب الموتى كما كان وجهه ذاوياً .

- يبدو زوجك شاحباً الى حد ما . ظننتُ بأنه لا يتأثّر بالحرارة . هل كان يعمل بجد ؟

- إنه يعمل دائماً بجد .

- أظن أنكما ستسافران قريباً ؟

قالت :

- أوه ، نعم ، أظن بأنني سأسافر الى اليابان كما فعلتُ في السنة الماضية . فالطبيب يقول بأنني يجب أن أهرب من الحرارة إنْ كنتُ لا

Amly نهضة العرب

أريد أن أنهار كلياً .

لم يرشقها وولتر بنظرة مبتسمة بين الفينة والفينة كما كان يفعل عادة حينما كانا يتعشيان في الخارج . إنه لم ينظر اليها قط . كما لاحظت بأنه أبقى عينيه مشاحتين عنها حينما اقترب من السيارة ، وفعل نفس الشيء حين قدّم اليها يده لتركب السيارة بأدبه المعهود . وبينما كان الآن يتحدّث الى النساء على كلا جانبيه ، لم يبتسم ، بل نظر اليهن بعينين ثابتتين لا تطرفان ، وبدت عيناه هائلتين حقاً في ذلك الوجه الشاحب الأسود الفحمي . وكان وجهه جامداً وقاسياً .

فكّرت كيتي بسخرية : " لا بد أنه رفيق مسل . "

ولم تسلّها ، حتى ولا قليلاً ، فكرةُ أن السيدتين النعستَيْن تحاولان أن تتبادلا الكلام مع ذلك القناع المقطّب .

أنه يعرف طبعاً ، لا شك في ذلك ، وهو غاضب منها . لماذا لم يقل أي شيء ؟ أكان ذلك حقاً لإنه يحبها كثيراً جداً الى درجة أنه يخشى أن تهجره ، بالرغم من أنه غاضب ومتألم ؟ وجعلها هذا التفكير تحتقره قليلاً ، لكنها احتقرته بحسن نيّة : فبعد كل هذا ، هو زوجها ويقدّم اليها المأوى والمسكن ، وطالما لن يتدخل في شؤونها ويتركها تفعل ما تشاء ، فستكون لطيفة معه . ومن جهة أخرى ، لعل صمته ناتج عن خجل مرضيّ . لقد كان تشارلي على حق حين قال أن لا أحد يكره الفضيحة أكثر مما يكرهها وولتر . فهو يمتنع عن إلقاء أية خطبة إنْ كان أمكنه تفادي هذا . وقد أخبرها بأنه حين استدعي للمحكمة للإدلاء بشهادة في قضية حيث كان عليه أن يقدّم دليلاً كخبير ، ظلّ إسبوعاً وهو لا يكاد ينام قبل القضية . كان خجله مرضاً .

وثمة أمر آخر : إن الرجال مغرورون جداً ، فطالما لم يعرف أحد ما حدث ، فقد يقنع وولتر بتجاهل هذا . ثم تساءلت إنْ كان من المحتمل أن يكون تشارلي على حق ، حين أشار بأن وولتر يعرف على أي جانب من خبزه وُضعت الزبدة . لقد كان تشارلي أبرز رجل في المستعمرة ،

Amly نهضة العرب

وسرعان ما سيصبح حاكماً لها . ويمكن أن يكون نافعاً جداً لوولتر ؛ ومن جهة أخرى ، فإنه يمكن أن يكون مكدّراً لوولتر إنْ هو استفزه . وخفق قلبها جذلاً وهي تفكّر في قوة عشيقها وعزمه ، إنها تحس بأنها عزلاء بين ذراعيه الرجوليّتَيْن . الرجال عجيبون ؛ فلم يخطر في بالها أبداً أو وولتر في مثل هذا الإنحطاط ، ومع ذلك ، فمن يدري ، ربما كان وقاره مجرّد قناع يخفي طبيعة دنيئة خادعة . وكانت كلما فكّرت بهذا ، كلما بدا لها أن تشارلي كان على حق ، فحوّلت نظرها الى زوجها مرة أخرى . ولم يكن في نظرتها تسامح .

وحدث أن كانت السيدتان ، على كلا جانبيه ، تتحدّثان الى جارتيهما وتُرك هو وحيداً . فأخذ يحدّق أمامه مباشرة ، ناسياً الحفلة ، وقد أغمِضَتْ عيناه بحزن قاتل . وأصابتها هذه النظرة بصدمة .

XXII

في اليوم التالي ، وحين كانت كيتي مستلقية بعد الغداء وقد غفت ، أيقظتها طرقة على بابها .

صاحت بانفعال :

– مَنْ هناك ؟

فهي غير معتادة أن يزعجها أحد في تلك الساعة .

– أنا .

عرفت صوت زوجها ، فجلست معتدلة بسرعة .

– أدخل .

سأل وهو يدخل :

– هل أيقظتك ؟

أجابت باللهجة الطبيعية التي أنتهجتها معه خلال اليومين الماضيين :

– نعم ، إنْ شئتَ الحق .

– هلاّ أتيتِ الى الغرفة المجاورة . أريد أن أتحدّث اليك قليلاً .

Amly نهضة العرب

أطلق قلبها خفقاً فجائياً على أضلعها .

- سأرتدي مبذلاً .

تركها . فزلقت قدميها الحافيتين في خُفّ ولفّتْ نفسها في مبذل كيمونو . نظرت في المرآة ، كانت شاحبة جداً فوضعت بعض طلاء الشفتين . وقفت عند الباب لحظةً ، تستجمع أعصابها للمقابلة ، ثم انضمت اليه بوجه جريء .

قالت :

- كيف تمكّنتَ من الخروج من المختبر في هذه الساعة ؟ فأنا لا أراك كثيراً في مثل هذا الوقت .

- ألن تجلسي ؟

لم ينظر اليها . وتكلّم بجدية . وسرّها أن تجلس كما طلب منها ، لقد كانت ركبتاها تصطكان قليلاً ، ولزمت الصمت بعد أن لم تعد قادرة على الإستمرار في الكلام بتلك اللهجة المازحة . وجلس هو أيضاً وأشعل سيجارة . وتجوّلت عيناه في أنحاء الغرفة وهما قلقتان . بدا أنه يعاني من بعض الصعوبة في بدء الكلام .

فجأة ، نظر في وجهها مباشرة ، وإنه أشاح بنظره عنها لمدة طويلة كهذه ، أثارتْ تحديقته المباشرة هذه ذعراً شديداً في نفسها الى درجة أنها خنقت صرخة .

سألها :

- هل سمعت عن ماي - تان - فو Mai - tan - fu ؟ لقد كُتب عنها الكثير في الصحف أخيراً .

حدّقت فيه بدهشة . ثم قالت مترددة :

- هل هو ذلك المكان حيث تنتشر الكوليرا ؟ كان مستر آربوثنوت Arbuthnot يتكلّم عنه ليلة أمس .

- هناك وباء . أظن أنه أسوأ وباء أصابهم منذ سنين . وكان هناك مبشّر طبيّ . وقد مات من الكوليرا قبل ثلاثة أيام . هناك دير فرنسي

Amly نهضة العرب

وموظّف الجمارك . أما كل الآخرين فقد خرجوا .

كانت عيناه لا تزالان مثبتتَيْن عليها ، ولم تغضّ هي عينيها . حاولت أن تقرأ تعابير وجهه ، لكنها كانت عصبية فلم تتمكّن من أن تميّز سوى ترقب غريب . كيف يمكنه النظر اليها بمثل هذا الثبات ؟ إنه حتى لم يطرف بعينيه .

– إن الراهبات الفرنسيات يفعلن ما يمكنهن فعله . وقد حولن ملجأ الأيتام الى مستشفى . لكن الناس يموتون كالذباب . لقد عُرض عليّ الذهاب الى هناك وتولّي المسؤولية .

– أنت .

أجفلت بعنف . كان أول ما فكّرت به هو أنها ستكون حرة إنْ هو ذهب ، فتتمكن من رؤية تشارلي دون عائق أو معيق . لكن الفكرة صدمتها . وأحسّت بنفسها تتضرج الى حد كبير . لماذا يراقبها على ذلك النحو ؟ وأشاحت بنظرها عنه وهي مرتبكة .

قالت متلعثمة :

– هل ذلك ضروري ؟

– ليس ثمة طبيب أجنبيّ في المنطقة .

– لكنك لست طبيباً ، أنت عالم بكتيريا .

– إنني دكتور في الطب ، كما تعرفين ، وقد مارستُ الطب العام في المستشفى قبل أن أتخصص . وحقيقة أنني عالم بكتيريا أولاً وأخيراً سيكون لصالح العمل . فستكون فرصة متاحة لأعمال البحث .

كان يتكلّم بطلاقة تقريباً ، وحين نظرت اليه ، اندهشت لرؤيتها في عينيه وميضاً من السخرية . ولم تستطع فهمه .

– لكن ، ألن يكون هذا خطراً جداً ؟

– جداً .

إبتسم . لقد كانت تقطيبة ساخرة . أسندت جبهتها على يدها . انتحار . إنه لا يقل عن ذلك بأي شيء . رهيب ! لم تفكّر بأنه سيأخذ

Amly نهضة العرب

الأمر على ذلك النحو . لن تستطيع أن تدعه يفعل ذلك . إنها قسوة . لم تكن غلطتها إنْ هي لم تحبه . لم تستطع إحتمال التفكير في أنه سيقتل نفسه من أجلها . وانسكبت الدموع رقيقة على وجنتيها .

– لماذا تبكين ؟

كان صوته بارداً .

– لستَ مجبراً على الذهاب ، أليس كذلك ؟

– لا ، إنني أذهب بمحض إرادتي .

– من فضلك لا تذهب يا وولتر . سيكون الأمر فظيعاً جداً إنْ حدث شيء لك . لنفرض أنك مت ؟

مع أن وجهه بقي جامداً ، إلاّ أن ظل إبتسامة عَبَر عينيه مرة أخرى . لم يجب .

سألتْ بعد فترة صمت :

– أين هذا المكان ؟

– ماي – تان – فو ؟ تقع على فرع من النهر الغربي . سنبحر في النهر ثم ننتقل بالمحفّات .

– مَنْ نحن ؟

– أنتِ وأنا .

نظرتْ اليه بسرعة . فكّرت في أنها أخطأت السمع . لكن الإبتسامة في عينيه انتقلت الآن الى شفتيه . كانت عيناه الداكنتان مثبتتين عليها .

– هل تتوقع مني أن أذهب أيضاً ؟

– ظننتُ بأنكِ ستحبين أن تذهبي .

أخذت أنفاسها تنطلق بسرعة كبيرة . وسرت رعدة في جسدها .

– لكن من المؤكد أنه ليس مكاناً مناسباً لإمرأة . فقد أرسل المبعوث زوجته وأطفاله الى هنا قبل أسابيع كما عاد مبعوث الإدارة العامة وزوجته الى هنا . لقد قابلتها في حفلة شاي . تذكّرتُ الآن بأنها قالتْ بأنهم غادروا مكاناً ما بسبب الكوليرا .

Amly نهضة العرب

- هناك خمس راهبات فرنسيات .
وتملكها ذعر .
- لا أعرف ما تعنيه . سيكون من الجنون أن أذهب الى هناك . فأنت تعرف مدى رقتي . لقد أشار دكتور هايوورد Hayward بأنني يجب أن أخرج من هونج كونج بسبب الحرارة . ولن أستطيع تحمّل الحرارة هناك . والكوليرا ؛ سأجنّ من الخوف . إنه مجرّد بحث عن المتاعب . ليس ثمة من داعٍ لي لكي أذهب . سأموت .

لم يجب . نظرت اليه وهي يائسة وبالكاد تمكّنت من منع نفسها من إطلاق صرخة . اكتسى وجهه شحوب أسود أرعبها فجأة . رأت فيه نظرة كراهية . أمن الممكن أنه يريدها أن تموت ؟ وأجابت على أفكارها الغاضبة .

- إن هذا سخيف . إنْ أنتَ فكّرتَ بأنك يجب أن تذهب ، فهذه وجهة نظرك . لكنك لا يمكنك حقاً أن تتوقع مني أن أذهب . فأنا أكره المرض. وباء كوليرا . إنني لا أتظاهر بأنني شجاعة جداً ، ولا يضيرني أن أقول لك بأنّ ليس لديّ الشجاعة على ذلك . سأبقى هنا حتى يحل الوقت لأذهب الى اليابان .
- لا بد أنني فكّرتُ في أنك ستودين مصاحبتي حين أوشك على الإنطلاق في مهمة خطيرة .

كان يسخر منها الآن على نحو واضح . كانت مشوّشة . لم تعرف تماماً إنْ كان قد عنى ما قاله أو كان يحاول فقط أن يخيفها .
- لا أظن أن أحداً سيلومني لرفضي الذهاب الى مكان خطير ليس لديّ عمل فيه أو أنني لا يمكن أن أكون ذات نفع فيه .
- يمكنك أن تكوني ذات نفع عظيم ، يمكنك أن تسرّي عني وتوفري الراحة لي .

وازداد شحوبها قليلاً .
- لا أفهم ما تتكلّم عنه .

Amly نهضة العرب

- ما كنتُ أظن أن هذا يحتاج الى أكثر من ذكاء متوسط .
- لن أذهب يا وولتر . إنْ من الوحشية أن تطلب مني هذا .
- إذن ، لن أذهب أنا أيضاً ، سأحوّل طلبي الى الملف للحفظ على الفور .

XXIII

نظرت اليه مشدوهة . فقد كان ما قاله غير متوقع الى حد أنها لم تكد تدرك معناه لأول وهلة .

قالت مترددة :

- ما الذي تتكلّم عنه بحق الله ؟

وبدا جوابها زائفاً حتى بالنسبة اليها ، ورأت نظرة الإزدراء التي ارتسمت على وجه وولتر الصارم .

- أخشى أنكِ فكّرتِ بأنني أكثر بلاهة مما أنا في الحقيقة .

لم تعرف تماماً ما تقوله . كانت مترددة في أن تؤكد بحنق براءتها أو أن تنفجر في توبيخات غضب . بدا أنه يقرأ أفكارها .

- لديّ كل الدليل الضروري .

وشرعت تبكي . وانسكبت الدموع من عينيها بلا عناء واضح ولم تجففهما : فالبكاء يمنحها وقتاً قصيراً لتتمالك نفسها . لكن عقلها كان خاوياً . راقبها بلا اكتراث ، فأخافها هدوءه . ثم نفذ صبره .

- لن تحققي الكثير من البكاء ، أنت تعرفين هذا .

أثار صوته ، البارد القاسي جداً ، حنقاً في نفسها . وأخذت تستعيد رباطة جأشها .

- لا يهمني . أظن أن ليس لديك اعتراض على طلاقي . أنه لا يعني شيئاً بالنسبة الى الرجل .

- هل تسمحين لي في أن أسألك عن السبب الذي يجعلني أزعج نفسي

Amly نهضة العرب

أدنى إزعاج بسببك ؟
- لن يشكّل هذا فرقاً بالنسبة اليك . ليس بالكثير أن أطلب منك التصرّف كرجل مهذب .
- إنني آخذ مصلحتك بعين الإعتبار الى حد كبير .
اعتدلت بجلستها الآن وجففت عينيها . سألته :
- ما الذي تعنيه ؟
- سيتزوجك تاونسيند إنْ هو كان شريكاً في قضية زنا ، وستكون القضية مخزية الى درجة أن زوجته ستُجبَر على الطلاق منه .
صاحت :
- أنتَ لا تعرف ما الذي تتكلّم عنه .
- أنتِ بلهاء غبية .
كانت لهجته مفعمة باحتقار بالغ حتى أنها احمرّت غضباً . وربما كان غضبها أعظم لإنها لم تسمعه يقول لها من قبل سوى الكلام الجميل والمطري والمُبهج . لقد كانت معتادة أن تجده خاضعاً لكل نزواتها .
- إنْ كنتَ تريد الحقيقة فيمكنك أن تسمعها . إنه متلهف جداً لكي يتزوجني . ودوروثي تاونسيند راغبة تماماً في أن تطلّقه ، وسنتزوج في لحظة أن تتحرر .
- هل أخبرك بذلك بمثل هذه الكلمات الواضحة أم أن ذلك ناتج عن الإنطباع الذي أثاره فيك سلوكه .
لمعت عينا وولتر بسخرية مريرة . وأقلقتا كيتي قليلاً . فلم تكن متأكدة تماماً من أن تشارلي كان قد قال ذلك بالضبط بمثل هذه الكلمات الكثيرة في أي وقت من الأوقات .
- لقد قال هذا مراراً وتكراراً .
- تلك كذبة وأنتِ تعرفين بأنها كذبة .
- إنه يحبني من صميم قلبه وروحه . أنه يحبني بنفس القدر من العاطفة التي أحبه بها . لقد اكتشفتَ الحقيقة . لن أنكر أي شيء . لماذا أنكر

Amly نهضة العرب

هذا ؟ لقد كنا عاشقَيْن مدة سنة وأنا فخورة بهذا . أنه يعني لي كل شيء في العالم وأنا مسرورة لإنك عرفتَ هذا أخيراً . لقد سئمنا حتى الموت من السرّية والحيطة وما الى ذلك. لقد كانت غلطة أنني تزوجتك ، ما كان عليّ أن أتزوجك ، لقد كنتُ بلهاء . لم أهتم بك إطلاقاً . لم يكن بيننا أي شيء مشترك أبداً . فأنا لا أحب الناس الذين تحبهم ، وأضيق من الأمور التي تهمك . إنني ممتنة لإن هذا انتهى .

راقبها دون إشارة منه ولا خلجة من وجهه . أصغى اليها بأنتباه ولم يبيّن أي تغيير في تعابيره بأن ما قالته أقر فيه .

– أتعرف لماذا تزوجتُ منك ؟

– لإنكِ أردتِ أن تتزوجي قبل أختك دوريس .

كان هذا صحيحاً ، لكن هذا أثار فيها تحوّلاً عجيباً عندما أدركت بأنه كان يعرف ذلك . وقد أثار هذا إشفاقها على نحو غريب وحتى في تلك اللحظة من الخوف والغضب . وابتسم إبتسامة خفيفة . قال :

– لم تخالجني أية أوهام حولك . كنتُ أعرف بأنكِ سخيفة ومستهترة وخاوية الرأس . لكنني أحببتُك . كنت أعرف بأن أهدافك ومثالياتك كانت مبتذلة وتافهة . لكنني أحببتك . كنت أعرف أنك امرأة من الدرجة الثانية . لكنني أحببتك . إنه لوضع هزليّ حين أفكّر كيف حاولتُ جاهداً في أن أستطيب الأشياء التي كانت تطيب لك وكيف كنت متلهفاً أن أخفي عنك أنني لم أكن جاهلاً ولا مبتذلاً ولا محبّاً للفضائح ولا غبيّاً. كنتُ أعرف مدى خوفك من الذكاء ، فبذلتُ كل ما استطعتُ من جهد لأجعلك تظنين بأنني أبله كبير كبقية الرجال الذي عرفتِهم . لقد عرفتِ بأنك تزوجتني لتحقيق راحتك . لقد أحببتك كثيراً جداً الى درجة أنني لم أهتم . وحسبما أرى فإن أغلب الناس حين يحبون شخصاً ولا يبادلهم الحب ، يجأرون بالشكوى . يغضبون ويحسون بالمرارة . ولم أكن كذلك . فلم أتوقع قط أن تحبيني ، ولم أرَ أي سبب يدعوك لإن تحبيني ، كما لم أفكّر قط بأنني شخص محبوب جداً . لقد كنتُ ممتناً لإن يُسمح

Amly نهضة العرب

لي في أن أحبك ، وكنت أنتشي حين أظن بأنك مسرورة مني من وقت الى آخر ، أو حين ألاحظ في عينيك وهج الحنان الطيّب . حاولت ألاّ أضايقك بحبي ، وكنت أعرف بأنني لن يكون بمقدوري أن أضايقك ، فكنتُ دائماً يقظاً لأول إشارة تدل على أنك متضايقة من عواطفي . وما كان أغلب الأزواج يترقبون تقبله كحق لهم ، كنت مستعداً لتلقيه كمنّة .

لم تسمع كيتي ، التي أُلِفَتْ الإطراء طيلة حياتها ، كلاماً كهذا يقال لها من قبل . وانبعث غضب أعمى في قلبها ، طرد الخوف منه : لقد بدا أنه يخنقها ، وأحسّت بأوعية الدم في صدغيها تنتفخ وتخفق . فالغرور الجريح يجعل المرأة أكثر تحفزاً للإنتقام من لبؤة سُرقت أشبالها منها . ونتأ فكّ كيتي ، وهو مربع قليلاً دائماً، ببشاعة قرديّة وأسوّدتْ عيناها الجميلتان بخبث . لكنها كبحت جماح عواطفها .

– إنْ لم يكن لدى الرجل ما هو ضروري ليجعل المرأة تحبه ، فهذا خطأه وليس خطأها .

– تماماً .

وزادت لهجته الساخرة من غيظها . أحسّت بأنها يمكنها أن تجرحه على نحو أكبر بالمحافظة على هدوئها .

– لستُ مثقّفة جداً ولستُ ذكيةً جداً . إنني مجرّد إمرأة شابة عادية جداً . إنني أحب الأشياء التي يحبها الناس الذين عشتُ بينهم طيلة حياتي . إنني أحب الرقص والتنس والمسارح وأحب الرجال الذين يلعبون الألعاب . إنه صحيح تماماً أنني كنتُ دائماً أتضايق منك ومن الأشياء التي تحبها . فهي لا تعني شيئاً بالنسبة اليّ ولا أريدها . لقد جررتني معك الى تلك المعارض التي لا تنتهي في ڤينيسيا Venice : كنت سأستمتع أكثر بلعب الجولف في ساندويتش Sandwich .

– أعرف .

– أنا آسفة إنْ لم أكن كلَّ ما توقعتَني أن أكونه . ومن سوء الحظ أنني

Amly نهضة العرب

وجدتُ أنك تثير دائماً نفوري جسدياً . ولا يمكنك أن تلومني على ذلك .

- أنا لا ألومك .

كان يمكن لكيتي أن تتعامل مع الوضع بسهولة أكبر لو أنه أرغى وأزبد . لكان باستطاعتها أن تقابل العنف بالعنف . لقد كانت سيطرته على نفسه غير إنسانية ، فكرهته الآن كما لم تكرهه من قبل .

- لا أظن بأنك رجل على الإطلاق . لماذا لم تقتحم الغرفة وتدخلها حين عرفتَ بأنني كنتُ هناك مع تشارلي؟ لكان بإمكانك أن تحاول أن تضربه على الأقل . هل كنتَ خائفاً ؟

لكنها احمرت خجلاً في اللحظة التي قالت فيها هذا ، فقد أحسّت بالخجل . لم يجب ، لكنها قرأت في عينيه إزدراء ثلجياً ، وأومض ظل إبتسامة على شفتيه .

- قد يكون الأمر أنني ، كإحدى الشخصيات التاريخية ، أرفع مستوى من أن أقاتل .

فهزّت كيتي كتفيها وهي غير قادرة على التفكير بأي شيء تجيب به . وللحظة أطول ، حاصرها بتحديقته الثابتة .

- أظن أنني قلتُ ما يجب أن أقوله ؛ إنْ أنتِ رفضتِ أن تحضري الى ماي - تان - فو ، فإنني سأحوّل طلبي الى الملف للحفظ .

- لماذا لا توافق على أن تسمح لي في طلب الطلاق ؟

أشاح عينيه عنها أخيراً . ومال الى الخلف في كرسيه وأشعل سيجارة. دخنها حتى النهاية دون أن ينبس بكلمة . ثم رسم إبتسامة خفيفة بعد أن رمى عقب السيجارة . ونظر اليها مرة أخرى ؛

- إنْ أكدتْ لي السيدة تاونسيند بأنها ستطلّق زوجها ، وإنْ هو أعطاني وعده الخطيّ بأن سيتزوجك خلال إسبوع من صدور قراريّ الطلاق الجازمين ، فإنني سأطلقك .

كان في طريقة كلامه التي تحدّث بها شيء أزعجها . لكن احترامها

Amly نهضة العرب

لنفسها أجبرها على قبول عرضه بأسلوب مترفّع :
- إنْ ذلك كرم عظيم منك يا وولتر .
ولدهشتها ، انفجر في ضحك عالٍ فجأة . فاحمرّت غضباً .
- ما الذي يضحكك ؟ لا أرى موجباً للضحك .
- عفواً . يخيّل اليّ أن إحساسي بالفكاهة غريب .
نظرتْ اليه عابسة . كانت تود أن تقول قولاً مريراً وجارحاً ، لكنه لم يخطر في بالها أي رد . نظر الى ساعة يده .
- يحسن أن تسرعي إنْ أردتِ أن تلحقي بتاونسيند في مكتبه . وإنْ أردتِ أن تأتي معي الى ماي - تان - فو ، فسيكون من الضروري أن تنطلقي بعد غد .
- أتريد مني أن أخبره اليوم ؟
- يقولون إنه ليس ثمة وقت أفضل من الزمن الحاضر .
أخذ قلبها يخفق بسرعة أكبر . لم يكن ما أحسّت به قلقاً ، لقد كان ، إنها لا تعرف تماماً ما الذي كانه . تمنّت لو اتسع وقتها أكثر قليلاً، لكانت ودّت أن تعدّ تشارلي للأمر . لكنها كانت تثق فيه كامل الثقة ، فقد أحبّها قدر ما أحبّته ، وكان من الخيانة أن تدع التفكير يعبر ذهنها بأنه لن يرحّب بالضرورة التي فرضت عليهما . التفتت الى وولتر بجدية :
- لا أظن بأنك تعرف ما هو الحب . ليست لديك أية فكرة عن عمق حب تشارلي لي وحبي له . وهذا هو الشيء الوحيد الذي يهم ، وستكون كل تضحية يستدعيها حبنا سهلة سهولة سقوط قطعة خشب .
انحنى لها إنحناءة طفيفة ، لكنه لم يقل شيئاً ، وتبعتها عيناه وهي تخرج من الغرفة بخطى محسوبة .

Amly نهضة العرب

XXIV

أرسلتْ ملاحظة الى تشارلي كتبتْ فيها : " *قابلني من فضلك . أنه أمر عاجل* " . طلب منها صبي صينيّ أن تنتظر ، وأحضر الجواب الذي يقول بأن السيد تاونسيند سيراها خلال خمسة دقائق . كانت عصبية الى حد كبير . وحين أدخِلَتْ أخيراً الى غرفته ، تقدّم منها تشارلي ليصافحها ، لكنه ، وفي اللحظة التي أغلق الصبي الباب وتركهما وحدهما ، أسقط سلوكه الرسمي اللطيف .

- أقول لك يا عزيزتي ، يجب ألاّ تحضري الى هنا في ساعات العمل . لديّ الكثير جداً مما يجب فعله ولا نريد أن نعطي الناس فرصة للتقوّل .

ألقت عليه نظرة طويلة بعينيها الجميلتين ، وحاولت أن تبتسم ، لكن شفتيها كانتا متيبستين ، فلم تستطع الإبتسام .

- ما كنتُ لآتي لو لم يكن الأمر ضرورياً .

إبتسم وأمسك بذراعها .

- حسناً ، ما دمتِ هنا ، تعاليّ واجلسي .

كانت غرفة عادية وضيّقة ذات سقف عال ، وكانت جدرانها مطلية بظليّن من لون الطين النضيج terra cotta . وكان الأثاث الوحيد في الغرفة مؤلفاً من طاولة مكتب كبيرة ، وكرسيّ دوّار ليجلس عليه تاونسيند ، وأريكة جلدية للزائرين . وقد أثار الجلوس على هذه الأريكة الرهبة في نفس كيتي . وجلس هو الى طاولة المكتب. لم تكن قد رأته يضع نظارة من قبل ، ولم تكن تعرف بأنه يستعملها . وحين لاحظ بأن عينيها تستقران عليها ، خلعها . قال :

- إنني أستعملها للقراءة فقط .

إنسابت دموعها بسهولة ثم أخذت تبكي الآن ، دون أن تعرف السبب . لم تكن لديها نيّة متعمدة في أن تخدعه ، بل كانت لديها رغبة غريزية في أن تثير عطفه الى حد ما . نظر اليها بخواء .

Amly نهضة العرب

- هل ثمة أي شيء ؟ أوه يا عزيزتي ، لا تبكي .

أخرجت منديلها وحاولت أن تكبح نشيجها . رنّ الجرس ، وحين وصل الصبي الخادم الى الباب ، إتجه نحوه .

- إنْ سأل أي شخص عني ، فقل له بأنني في الخارج .

- حسناً جداً يا سيدي .

أغلق الصبي الخادم الباب . جلس تشارلي على ذراع الأريكة وأحاط كتفيّ كيتي بذراعه .

- والآن يا كيتي العزيزة ، قولي لي كل شيء ؟

قالت :

- يريد وولتر الطلاق .

أحسّت بضغط ذراعه على كتفها يكفّ . وتصلّب جسمه . حلّت لحظة صمت ، ثم نهض تاونسيند عن كرسيّها ، وعاد وجلس على كرسيّه . قال :

- ماذا تعنين بالضبط ؟

نظرتْ اليه بسرعة ، فقد كان صوته أجش ، ورأت بأن وجهه كان أحمر قاتماً .

- لقد تحدّثتُ معه . وأتيت من البيت مباشرة . إنه يقول أن لديه الدليل الذي يريده .

- لم تورطي نفسك ، أليس كذلك ؟ لم تعترفي بأي شيء ؟

غاص قلبها . وأجابت :

- لا .

سألها ، ناظراً اليها بحدة :

- هل أنت متأكدة تماماً ؟

وكذبتْ مرة أخرى :

- متأكدة تماماً .

مال الى الخلف في كرسيّه وحدّق بخواء في خريطة الصين التي كانت

Amly نهضة العرب

معلّقة على الجدار أمامه . راقبته بقلق. كانت منزعجة الى حد ما من الطريقة التي تلقى بها الخبر . فقد توقعت منه أن يأخذها بين ذراعيه ويخبرها بأنه ممتن الآن لإنهما سيستطيعان أن يبقيا معاً دائماً ، لكن الرجال سخفاء طبعاً . كانت تبكي بصوت خافت ، لا لكي تثير تعاطفه الآن ، بل لإن هذا هو ما بدا أن من الطبيعي أن تفعله .

قال أخيراً :

- إنها ورطة دموية تورطنا فيها . لكن ، لا فائدة من أن نفقد عقلينا . ولن يكون البكاء ذا نفع أبداً ، كما تعرفين .

لاحظتْ الغيظ الذي شاب صوته ، فجففت عينيها :

- إنها ليست غلطتي يا تشارلي . لم أستطع منع نفسي .

- أنتِ لا تستطيعين طبعاً . لقد كان هذا مجرد سوء حظ لعين . وأنا أستحق اللوم قدر ما تستحقين . إن ما يجب فعله الآن هو أن نرى كيف سنخرج من هذه الورطة . لا أظن أنك تريدين الطلاق أكثر مما أريده أنا .

خنقتْ شهقة . وألقتْ عليه نظرة متسائلة . لم يكن يفكّر فيها إطلاقاً .

- أتساءل عما لديه من أدلة . لا أعرف كيف يمكنه أن يبرهن فعلاً بأننا كنا معاً في تلك الغرفة . فقد كنا ، إجمالاً حذرين حول هذا قدر ما يستطيع أي إنسان آخر أن يكون كذلك . وأنا متأكد من أن العجوز في دكان العاديات لم يشِ بنا . حتى ولو رآنا ندخل الى ذلك الدكان ، فليس ثمة سبب يمنعنا من البحث عن التحف معاً .

كان يكلّم نفسه أكثر مما كان يكلّمها الى حد ما .

- إن من السهل توجيه تهم ، لكن من الصعب اللعين إثبات تلك التهم ، وأي محام سيؤكّد لكِ ذلك . إنّ خطنا هو إنكار كل شيء ، وإنْ هو هدّد بأن يقيم دعوى ضدنا فإننا سنطلب منه أن يذهب الى الجحيم وسنقاوم هذا .

Amly نهضة العرب

- لا يمكنني الذهاب الى المحكمة يا تشارلي .
- لماذا لا ، بحق الأرض ؟ أخشى أنك لا بد أن تذهبي الى المحكمة . فالله يعلم أنني لا أريد إثارة ضجة ، لكننا لا نستطيع مواجهة الأمر ونحن غير مستعدين .
- لماذا نحتاج الى الدفاع ؟
- يا له من سؤال تطرحينه . فبعد كل هذا ، لستِ أنتِ فقط المعنية بالأمر ، فأنا معنيّ به أيضاً . لكنني ، في الحقيقة ، لا أرى أنكِ بحاجة الى أن تخافي من ذلك . سنكون قادرين على أن نسوي الأمر مع زوجك بطريقة من الطرق . إن ما يقلقني فقط هو أفضل طريقة لمواجهة هذا .

وبدا كأن فكرة خطرت في باله ، فقد التفتَ اليها مبتسماً إبتسامته الساحرة وقد أصبحت لهجته مداهنة بعد أن كانت قبل لحظة جافة وعملية .

- أخشى أن تكوني قد انزعجتِ كثيراً ، أيتها المرأة الصغيرة المسكينة . إن هذا سيء جداً .

مدّ يده وأمسك بيدها .

- إنها ورطة تورطنا فيها ، لكننا سنخرج منها . إنها ليست ...

كفّ عن الكلام ، فساور كيتي شك بأنه كان على وشك أن يقول بأنها لم تكن الورطة الأولى التي خرج منها :

- إن أهم شيء هو أن نحافظ على رباطة جأشنا . وأنتِ تعرفين أنني لن أتخلى عنك أبداً .
- إنني لست خائفة . ولا يهمني ما سيفعله .

ظلّ يبتسم ، لكن إبتسامته كانت مغتصبة قليلاً كما يبدو .

- إنْ ساءت الأمور الى أقصى حد فإنني سأخبر الحاكم . سيشتمني كالجحيم ، لكنه شخص طيّب ورجل دنيا . وسيسوي الأمر بطريقة ما . فلن يكون في صالحه أن تثور فضيحة .

سألت كيتي :

Amly نهضة العرب

- ما الذي يمكنه فعله ؟

- يمكنه الضغط على وولتر . فإنْ هو لم يستطع الوصول اليه عن طريق طموحه ، فإنه سيصل اليه عن طريق شعوره بالواجب .

أحسّت كيتي ببرودة خفيفة تسرى في عروقها . لم تبد بأنها قادرة على أن تحمل تشارلي على أن يرى مدى جدية الوضع وخطورته . لقد أثارت خفتُه نفاذَ صبرها . أسفتْ لإنها جاءت لتراه في مكتبه . فقد روّعها المحيط . كان من السهل أن تقول ما تريد قوله لو كانت بين ذراعيه وذراعاها حول عنقه .

قالت :

- أنتَ لا تعرف وولتر .

- إنني أعرف أن لكل رجل ثَمَنَه .

لقد أحبّت تشارلي من كل قلبها ، لكن جوابه أزعجها ، فهذا قول غبي يقوله رجل ذكي مثله .

- لا أظن بأنك تدرك مدى غضب وولتر . لم تر وجهه ولا نظرة عينيه .

لم يجب للحظة ، بل نظر اليها بابتسامة طفيفة . عرفتْ ما كان يفكّر فيه . أن وولتر عالم بكتيريا ويشغل منصباً ثانوياً ، ولن يكون سعيداً الى درجة أنه يجرؤ على أن يزعج الموظفين الكبار في المستعمرة .

قالت بجدية :

- ليس من الخير خداع نفسك يا تشارلي . فإنْ عَقَدَ وولتر العزم أن يقيم دعوى ضدنا فلن يكون لأي شيء يمكنك قوله أو يمكن لأي شخص قوله أدنى تأثير .

أصبح وجهه ثقيلاً ومتجهماً :

- هل يفكّر بإقامة دعوى ضدي بأنني شريك في الزنا ؟

فكّر بذلك في البَدْء . لكنني تمكنتُ من إقناعه في أن يوافق على أن يدعني أطلقه .

وخفّ توتره ثانية ورأت الإرتياح في عينيه :

Amly نهضة العرب

– أوه ، حسناً ، ليس ذلك بالأمر الرهيب . يبدو لي أن تلك طريقة جيدة للخروج من الورطة . وبعد كل هذا ، فإن ذلك أقل ما يمكن لرجل فعله ، إنه الفعل الوحيد المعقول .

– لكنه يضع شرطاً .

ألقى عليها نظرة متسائلة وبدا أنه يفكّر .

– إنني لستُ غنياً جداً طبعاً ، لكنني سأفعل أي شيء ضمن قدرتي .

صمتت كيتي . كان تشارلي يردد كلاماً ما كانت تتوقع منه أن يقوله . وجعل هذا الكلام من الصعب عليها أن تتكلّم . كانت تتوقع أن تردد هذا الشرط بنَفَس واحد ، وقد أحاطها بذراعيه الرائعتين ، ووجهها المشتعل على صدره .

– إنه يوافق على أن أطلب الطلاق منه إنْ قدّمتْ له زوجتُك الضمان بأنها ستتقدّم بطلب الطلاق منك .

– أي شيء آخر ؟

لم تجد كيتي صوتها إلاّ بصعوبة :

– و – إنه من الصعب جداً قوله يا تشارلي . إنه يبدو رهيباً – إنْ أنتَ وعدتَ أن تتزوجني خلال إسبوع من صدور القرارين على نحو لا يُنقَضْ .

XXV

ظل صامتاً للحظة . ثم أخذ يدها ثانية وضغط عليها بلطف .

قال :

– أنتِ تعرفين يا حبيبتي ، أننا لا بد أن نُبقي دوروثي بعيدة عن هذا مهما حدث .

نظرت اليه مشدوهة :

– لكنني لا أفهم . كيف يمكننا هذا ؟

Amly نهضة العرب

- حسناً ، لا يمكننا أن نفكّر بأنفسنا في هذا العالم فقط . فأنت تعرفين أن كل الأمور الأخرى سواء ، وليس في هذا العالم ما أحبه أكثر من زواجي منك . لكن هذا محال تماماً . فأنا أعرف دوروثي ؛ ليس هناك ما يغريها على طلب الطلاق .

اشتد خوف كيتي الى حد رهيب . فبدأت تبكي ثانية . نهض وجلس الى جانبها وذراعه حول خصرها .

- حاولي ألاّ تزعجي نفسك يا حبيبتي . يجب أن نحافظ على رباطة جأشنا .

- ظننت بأنك تحبني ...

قال برقة :

- إنني أحبك طبعاً . من المؤكد أنك لا يمكن أن تشكّي بذلك الآن .

- إنْ هي لم تطلقك فان وولتر سيقيم دعوى ضدك بالمشاركة بالزنا .

واستغرق وقتاً طويلاً ليجيب . كانت لهجته جافة :

- سيدمّر ذلك حياتي العملية طبعاً ، لكنني أخشى ألاّ يعود هذا عليكِ بالنفع الكبير. إنْ بلغتْ الأمور الى أقصى حد من السوء ، فإنني سأعترف لدوروثي ، ستتألم وتشقى كثيراً جداً ، لكنها ستصفح عني .

ثم فكّر :

- ولستُ متأكداً من أن أفضل خطة ستكون بالإعتراف بهذا على أية حال . إنْ هي ذهبتْ الى زوجك فإنني أعتقد بأنها ستتمكّن من إقناعه بإمساك لسانه .

- أيعني هذا بأنك لا تريدها أن تطلقك ؟

- حسناً ، لديّ أبنائي الذين يجب أن أفكّر فيهم ، أليس كذلك ؟ ولا أريدها أن تحس بالشقاء طبعاً . لقد سارت أمورنا معاً على خير وجه دائماً . لقد كانت زوجة طيبة جداً معي ، كما تعرفين .

- لماذا أخبرتني بأنها لم تكن تعني شيئاً بالنسبة اليك ؟

- لم أقل ذلك قط . لقد قلتُ بأنني لا أحبّها . ولم نرقد معاً منذ سنين

Amly نهضة العرب

إلاّ بين الحين والآخر ، في يوم عيد الميلاد مثلاً ، أو في اليوم السابق لرحيلها الى الوطن أو في يوم رجوعها منه . فهي ليست إمرأة تهتم بذلك النوع من الأمر . لكننا كنا دائماً صديقَيْن حميمَيْن . ولا يضيرني أن أخبرك بأنني أعتمد عليها أكثر مما يتخيّل أي إنسان .

- ألا ترى أنه كان يحسن أن تتركني وشأني إذن ؟

وجدت أنْ من الغريب أنها كان يمكنها أن تتكلّم بمثل هذا الهدوء ، بالرغم من الرعب الذي يمسك بأنفاسها .

- لقد كنتِ أجمل شيء رأيتُه منذ سنين . وقد وقعتُ في حبك في جنون . ولا يمكنكِ لومي على ذلك .

- لقد قلتَ لي بأنك لن تتخلى عني بعد كل هذا .

- لكن ، يا إلهي الرحيم ، إنني لن أتخلى عنك . لقد تورطنا في ورطة شنيعة ، وسأفعل كل ما يمكن للإنسان فعله لإخراجك منها .

- ما عدا الشيء الوحيد الواضح والطبيعي .

نهض واقفاً وعاد الى كرسيه .

- عزيزتي ، يجب أن تكوني معقولة . يحسن أن نواجه الموقف بصراحة، وأنا لا أريد أن أوذي مشاعرك ، لكنني لا بد أن أخبرك بالحقيقة ، أنني حريص جداً على عملي . ليس ثمة سبب يمنعني من أن أصبح حاكم مستعمرات في أحد هذه الأيام ، وشغلك منصب حاكم مستعمرات جيد جداً . وما لم نهدّيء هذا الأمر ، فلن يكون لديّ أدنى أمل في هذا المنصب . قد لا أترك الخدمة ، لكن ستكون ثمة نقطة سوداء ضدي . وإنْ كان لا بد أن أترك الخدمة ، فلا بد أن أعمل في أحد الأعمال التجارية في الصين حيث أعرف الناس . وفي كلتا الحالين ، ستكون فرصتي هي في ملازمة دوروثي لي .

- هل كان من الضروري أن تخبرني بأنك لم تكن تريد شيئاً في العالم سواي ؟

وتدلّتْ زاويتا فمه بنكد :

- أوه يا عزيزتي ، من الصعب الى حد ما أن تأخذي ما يقوله رجل حرفياً حين يكون واقعاً في غرامك .
- ألم تكن تعني ما قلته ؟
- في تلك اللحظة .
- وما الذي سيحدث لي إنْ طلقني وولتر ؟
- إنْ لم يكن لدينا موطيء قدم نضع أقدامنا عليه فلن نستطيع الدفاع عن أنفسنا حقاً . لن تثور فضيحة عامة ، كما أن مدارك الناس قد اتسعت هذه الأيام .

ولأول مرة ، فكّرت كيتي بأمها . فارتعدت . نظرت الى تاوندسيند ثانية . وامتزج ألمها الآن بالإستياء . قالت :

- أنا متأكدة من أنك لن تواجه أية صعوبة في تحمّل أية متاعب سأعاني منها .

أجاب :

- لن نحرز أي تقدّم في حل المشكلة بقذف بعضنا بعضاً بأقوال سيئة .

أطلقت صرخة يأس . كان من الرهيب أن تكون قد أحبته بهذا التفاني ، وأن تحسّ نحوه بمثل هذه المرارة مع ذلك . لم يكن ممكناً أن يفهم مدى ما كان يعنيه بالنسبة اليها .

- أوه يا تشارلي ، ألا تعرف مدى حبي لك ؟
- لكن يا عزيزتي ، إنني أحبك . لكننا لا نعيش في جزيرة صحراوية ولا بد أن نستخلص أفضل ما نستطيع استخلاصه من الظروف المفروضة علينا . يجب أن تكوني عاقلة حقاً .
- كيف يمكنني أن أكون عاقلة ؟ لقد كان حبنا ، بالنسبة اليّ ، كل شيء ، وكنتَ أنتَ حياتي كلها . وليس مما يبعث على سرور عظيم أن أدرك بأن هذا الحب ، بالنسبة اليك ، لم يكن سوى فترة من حياتك فقط .
- لم يكن فترة من حياتي طبعاً . لكنكِ تعرفين بأنكِ تطلبين الكثير حين

Amly نهضة العرب

تطلبين مني أن أسمح لزوجتي ، التي ارتبط بها ارتباطاً متيناً ، في طلب الطلاق مني ، فسأحطّم حياتي العملية بزواجي منك .

– لا أطلب منك أكثر مما أرغب في أن أقدمه اليك .

– لكن الظروف مختلفة الى حد ما .

– الفرق الوحيد هو أنك لا تحبني .

– يمكن لإنسان أن يكون مدلّهاً في حب إمرأة دون أن يرغب في قضاء بقية حياته معها .

ألقت عليه نظرة سريعة ثم سيطر عليها يأس . وانسابت دموع ثقيلة على وجنتيها .

– أوه ، يا للقسوة ! كيف يمكنك أن تكون قاسي القلب ؟

وشرعت تنشج بهستيرية . فألقى نظرة قلقة على الباب .

– يا عزيزتي ، حاولي أن تسيطري على نفسك .

شهقت :

– أنتَ لا تعرف مدى حبي لك . إنني لا أستطيع الحياة بدونك . ألا تحس بالشفقة عليّ ؟

لم تعد تستطيع الكلام . وبكت دون توقف :

– لا أريد أن أكون قاسياً ، والسماء تعرف أنني لا أريد أن أوذي مشاعرك ، لكنني يجب أن أخبرك بالحقيقة .

– إنه لدمار حياتي كلها . لماذا لم تتركيني وشأني ؟ ما الأذى الذي أوقعته بك ؟

– إنْ كان مما يفيدك أن تضعي اللوم كله عليّ ، فيمكنك هذا طبعاً .

التهب غضب كيتي فجأة .

– أظن أنني رميتُ بنفسي عليك . أظن أنني ظللتُ أزعجك حتى استجبتَ لتوسلاتي .

– إنني لا أقول ذلك . لكن من المؤكد أنني لم أكن سأفكّر بممارسة الحب معك لو لم تظهري بوضوح بأنك على استعداد لتلقي ممارسة الحب.

Amly نهضة العرب

أوه ، يا للعار ! كانت تعرف بأن ما قاله كان صحيحاً . كان وجهه الآن متجهماً وقلقاً ، وتحرّكت يداه بضيق . وألقى عليها نظرة سخط قصيرة بين الفينة والفينة .

قال بعد وهلة :

- ألن يصفح زوجك عنك ؟

- لم أطلب منه هذا قط .

انقبضت يداه غريزياً . رأته يكبح انطلاق استهجان الإنزعاج الذي بلغ شفتيه .

- لماذا لا تذهبين اليه وترمي بنفسك تحت رحمته ؟ فإنْ كان يحبك قدر ما تقولين ، فهو قمين بأن يصفح عنك .

- ما أقل ما تعرفه عنه !

XXVI

مسحت عينيها . حاولت أن تتمالك نفسها .

- تشارلي ، إنْ أنتَ هجرتني فإنني سأموت .

لقد أجبِرَتْ الآن على أن تلجأ الى عطفه . كان يجب أن تخبره على الفور . فحين يعرف مجال الإختيار الرهيب الذي وضع أمامها ، فإن كرمه وشعوره بالإنصاف ورجولته ستثور بحميّة حتى أنه لن يفكّر بأي شيء سوى الخطر الذي تتعرّض له . أوه ، لشد ما ترغب بشوق عارم في أن تحس بذراعيه العزيزتَيْن الحاميتَيْن حولها !

- يريدني وولتر أن أذهب الى ماي - تان - فو .

- أوه ، لكن ذلك هو المكان الذي تنتشر فيه الكوليرا . لقد أصابهم أسوأ وباء عرفوه منذ خمسين سنة . ليس ذلك بمكان مناسب لأية إمرأة. لا يمكنك الذهاب الى هناك .

- إنْ تخليتَ عني ، فلا بد أن أذهب اليه .

Amly نهضة العرب

– ما الذي تعنيه ؟ أنا لا أفهم .
– إن وولتر يحل محل طبيب البعثة التبشيرية الذي مات . وهو يريدني أن أذهب معه .
– متى ؟
– الان . فوراً .
دفع تاونسيند كرسيه الى الخلف ونظر اليها بعينَيْن تسيطر عليهما الحيرة .
– قد أكون غبياً جداً ، لكنني لا أعرف ذيلَ ما تقولينه من رأسه . إنْ أراد منكِ أن تذهبي الى هذا المكان معه ، فماذا عن الطلاق ؟
– لقد منحني الخيار . فإما أن أذهب الى ماي – تان – فو ، أو أنه سيقيم دعوى .
– أوه ، أرى هذا .
وتغيّرت لهجة تاونسيند قليلاً .
– أرى بأن ذلك عرض مقبول الى حد ما ، أليس كذلك ؟
– مقبول ؟
– حسناً ، إنه لموقف رياضيّ منه أن يذهب الى هناك . إنه موقف ما كان سيستهويني . سيحصل على وسام لذلك طبعاً حين يعود .
صاحت وصوتها يشي بالعذاب الشديد الذي تعاني منه :
– لكن ، ماذا عني أنا يا تشارلي ؟
– حسناً ، أرى أنه إنْ أرادك أن تذهبي تحت هذه الظروف ، فلا أرى كيف يمكنك أن ترفضي تماماً .
– إن هذا يعني الموت . الموت المؤكد المحتوم .
– أوه ، اللعنة على كل هذا ، إن ذلك مبالغة الى حد ما . ما كان ليأخذك لو أنه رأى ذلك . إنها مخاطرة له أكثر مما هي لك . وفي الحقيقة ، ليس ثمة عظيم خطر إنْ كنتِ حذرة . لقد كنتُ هنا ، حين كانت الكوليرا منتشرة ، ولم تهزّ شعرة مني . إن أهم شيء هو ألاّ

Amly نهضة العرب

تأكلي أي شيء غير مطبوخ ، لا فاكهة فجّة أو سلطة أو أي شيء من ذلك القبيل ، وتأكدي من أن يكون ماء الشرب مغليّاً .

كان يستعيد ثقته بنفسه وهو يتابع الكلام ، وكان كلامه منطلقاً ، وأصبح أقل تجهماً وأكثر مرحاً ، أصبح خفيف الظل تقريباً :

– بعد كل هذا ، فهذا هو عمله ، أليس كذلك ؟ إنه مهتم بالبق ؟ إنها فرصة بالنسبة اليه إنْ فكّرتِ بهذا الأمر .

وكررت القول ، وهي لا تتعذّب عذاباً مبرحاً ، بل وهي تحس بهلع عظيم .

– لكن ، ماذا عني أنا يا تشارلي ؟

– حسناً ، أفضل طريقة في فهم رجل هو أن تضعي نفسك في موضعه . فمن وجهة نظره ، كنتِ أنتِ شيئاً صغيراً متعجرفاً الى حد ما ، وهو يريد أن يبعدك عن طريق الضرر . لقد رأيتُ دائماً بأنه لن يرغب في أن يطلّقك ، ولم يخطر في بالي بأنه من ذلك الصنف من الرجال ، لكنه قدّم ما أرى بأنه عرض كريم ، لكنكِ أثَرتِ حفيظتَه برفضك عرضه . لا أريد أن ألومك ، لكنني أرى بأنك لا بد أن تولي الأمر قليلاً من الإعتبار من أجلنا معاً .

– لكن ، ألا ترى بأن هذا سيقتلني ؟ ألا تعرف بأنه يأخذني الى هناك لإنه يعرف بأن هذا سيقتلني ؟

– أوه يا عزيزتي ، لا تتكلّمي على ذلك النحو . نحن في وضع سيء لعين وليس ثمة متسع من الوقت لإن نكون ميلودراميين .

– لقد صممتَ على ألاّ تفهم .

أوه ، الألم في قلبها ، والخوف ! لو كان بوسعها أن تصرخ .

– لا يمكنك أن ترسل بي الى موت أكيد . إنْ لم يكن لديك أي حب أو شفقة نحوي ، فلا بد أن يكون لديك شعور إنسانيّ عادي .

– أرى أن من الصعب عليّ الى حد ما أن أصيغ الأمر على ذلك النحو . إن زوجك يتصرّف تصرّفاً غاية في الكرم حسبما أرى هذا . إنه راغب

Amly نهضة العرب

في أن يصفح عنكِ إنْ أنتِ سمحتِ له في ذلك . إنه يريد أن يبعدك عن هنا وقد تقدّمَتْ هذه الفرصة لأخذك الى مكان ستكونين فيه بمنأى عن طريق الضرر لمدة بضعة شهور . أنا لا أزعم أن ماي - تان - فو منتجع صحي ، ولم أعرف قط في حياتي مدينة صينية كانت كذلك ، لكنه ليس ثمة من داع لتفزعي لهذا . إن ذلك في الحقيقة أسوأ ما يمكنك فعله حقاً . وأنا أعتقد أن عدد الذين يموتون من الخوف من وباء يعادل عدد الذين يموتون من إصابتهم بهذا الوباء .

- لكنني خائفة الآن . وحين تكلّم وولتر عن السفر ، كاد يغمى عليّ .

- إنني أعتقد بأن هذا سيكون صدمة في اللحظة الأولى ، لكنك حين تنظرين الى الأمر بهدوء ، ستكون حالك على ما يرام . ستكون تجربة لن يجربها كل إنسان .

- ظننت ، ظننت ..

اهتزت الى الأمام والى الخلف بألم مبرّح . لم يتكلّم ، واكتسى وجهه مرة أخرى التجهم الذي لم تعرفه قط إلاّ أخيراً . لم تعد كيتي تبكي الآن . كانت جافة العينين ، هادئة ، ومع أن صوتها كان خفيضاً إلاّ أنه كان ثابتاً .

- أتريد مني أن أذهب ؟

- إنه إختيار هوبسون * ، أليس كذلك ؟

- أهو كذلك ؟

- إن من الإنصاف أن أخبرك بأنني لن أكون في وضع يسمح لي في أن أتزوجك إنْ أقام زوجك دعوة طلاق وكسبها .

بدا أن عمراً طويلاً قد مضى قبل أن تجيب . ونهضتْ واقفة على قدميها ببطء .

- لا أظن أن زوجي فكّر في إقامة دعوى للطلاق قط .

---

* Hobson's Choice : الإختيار في أن تأخذ الشيء المعروض عليك أو لا تأخذ شيئاً آخر ، أي غياب إختيار حقيقي (القاموس الموسوعي العالمي) .

Amly نهضة العرب

سألها :

- فلماذا بحق الله ظللتِ تخيفينني حتى أخرجتني عن وعيي ؟

نظرت اليه ببرود :

- كان يعرف بأنك ستتخلى عني .

صمتت . وعلى نحو غامض ، وكما يحصل عندما تدرس لغة أجنبيه، وتقرأ صفحة لا تفهم منها في البداية أي شيء الى أن تعطي كلمةٌ أو جملةٌ مفتاحاً لك ، يومض في عقلك المضطرب شكٌ بالمعنى فجأة ، على ذلك النحو الغامض مرّت في خاطرها طريقة عمل عقل وولتر . كانت الفكرة كمنظر طبيعي منذر بالشر أظهره للعيان وميضُ برق ثم أخفاه الليلُ ثانية وفي لحظة . فارتعدت أمام ما رأته .

- لقد أطلق ذلك التهديد لإنه كان يعرف بأنك ستنهار أمام هذا التهديد يا تشارلي . من الغريب أنه حكم عليك بمثل هذه الدقة . لقد تصرّف حسب طبيعته بتعريضي الى مثل هذا التخلّص من الوهم بقسوة .

نظر تشارلي الى قطعة ورق النشّاف أمامه . كان يعبس قليلاً وكان فمه مقطّباً . لكنه لم يُحِر جواباً .

- كان يعرف بأنك مغرور ، وجبان ، وأنانيّ التفكير . لقد أراد لي أن أرى هذا بأم عينيّ . كان يعرف بأنك ستهرب كأرنب بريّ عند اقتراب الخطر . وكان يعرف مدى انخداعي الشديد بالتفكير بأنك كنت تحبني ، لإنه كان يعرف بأنك غير قادر على حب أي شخص سوى نفسك . كان يعرف بأنك ستضحي بي بلا نخزة ندم لكي تنقذ جلدك .

- إنْ كان يرضيك أن ترددي كلاماً وحشياً اليّ ، فإنني أرى أنْ ليس من حقي أن أشكو . فالنساء دائماً غير منصفات ، وهن قادرات على أن يضعن الرجال عامة في موضع الخطأ . لكن ثمة أمر لا بد أن يُقال من جانب آخر .

لم تبال بمقاطعته :

- وها أنا أعرف ما عرفه . إنني أعرف أنك قاس وعديم القلب ، إنني

Amly نهضة العرب

أعرف أنك أنانيّ ، أنانيّ الى درجة تفوق الكلمات ، وأنا أعرف أنْ ليس لديك شجاعة أرنب ، أنا أعرف أنك كذّاب ودجّال ، أنا أعرف أنك حقير الى أقصى مدى . والجانب المأساوي –

واهتاج وجهها فجأة من الألم :

– والجانب المأساوي من الأمر هو أنني أحبك من كل قلبي بالرغم من كل هذا .

– كيتي .

أطلقتْ ضحكة مريرة . لقد ردّد إسمها بتلك اللهجة الرقيقة الغنيّة التي تواتيه على نحو طبيعي جداً وتعني القليل جداً .

قالت :

– أنتَ أبله .

ارتدّ الى الخلف بسرعة ، محمّر الوجه ومغتاظاً ، ولم يستطع أن يخرجها . ألقت عليه نظرةً فيها ومضة استهتار :

– لقد بدأتَ تكرهني ، أليس كذلك ؟ حسناً ، إكرهني . لن يشكّل هذا أي فرق بالنسبة اليّ .

وبدأتْ تضع قفازها . سأل :

– ما الذي ستفعلينه ؟

– أوه ، لا تخف ، لن تتعرّض لأي أذى . ستكون آمناً تماماً .

أجاب وصوته العميق يشي بالقلق :

– بحق الله لا تتكلّمي على ذلك النحو يا كيتي . لا بد أن تعرفي بأن كل ما يعنيكِ يعنيني . سأكون بالغ القلق لكي أعرف ما سيحدث . ما الذي ستقولينه لزوجك ؟

– سأخبره بأنني مستعدة للذهاب الى ماي – تان – فو معه .

– ربما لن يلح عليك بالذهاب حين توافقين .

لم يكن ليستطيع أن يعرف لماذا نظرت اليه على هذا النحو الغريب حين قال هذا .

Amly نهضة العرب

سألها :

- أنتِ لستِ خائفة حقاً ؟

قالت :

- لا . لقد ألهمتَني الشجاعة . إن الذهاب في وسط وباء الكوليرا سيكون تجربة فريدة ، وإنْ أنا متُ هناك- حسناً ، سأكون قد مت .

- حاولت أن أكون لطيفاً معك قدر الإمكان .

نظرت اليه ثانية . وقفزتْ الدموع الى عينيها ثانية ، وكان قلبها ملعماً جداً . وكان الدافع لأن ترمي بنفسها على صدره وتسحق شفتيها على شفتيه يكاد لا يُقاوم . لم يكن ثمة فائدة .

قالت ، محاولة أن تبقي صوتها هادئاً :

- إنْ أردتَ أن تعرف ، فإنني أذهب والموت في قلبي ، والخوف . إنني لا أعرف ما الذي في عقل وولتر المظلم الملتوي ، لكنني ارتعد من الرعب. إنني أرى أن الموت قد يكون خلاصاً لي حقاً .

أحسّت أنها لم تكن تستطيع أن تحافظ على سيطرتها على نفسها للحظة أخرى . فمشت بخفة وسرعة نحو الباب وخرجت قبل أن يتسع وقته للتحرّك من كرسيه . وأطلق تاونسيند تنهيدة ارتياح طويلة . وكان في حاجة ماسة الي براندي وصودا .

XXVII

كان وولتر في البيت حين عادت اليه . كانت تود أن تذهب مباشرة الى غرفتها ، لكنه كان في الطابق السفلي ، في الردهة ، يصدر أوامراً لأحد الصبية الخدم . كانت تعيسة جداً الى درجة أنها رضيت بالهوان الذي ستعرّض نفسها اليه . فتوقفت وواجهته .

قالت :

- سآتي معك الى ذلك المكان .

Amly نهضة العرب

– أوه ، حسناً .
– متى تريد مني أن أكون مستعدة ؟
– ليلة الغد .
لم تعرف أية روح شجاعة مصطنعة سيطرت عليها . كانت لامبالاته كوخزة حربة . فقالت قولاً أدهشها هي نفسها :
– أظن أني لن أحتاج الى أكثر من بضع ملابس صيفيّة وكَفَن ، أليس كذلك ؟
كانت تراقب وجهه فعرفتْ أن تبذّلها أغضبه .
– لقد أخبرتُ أمّتك بما ستريدينه .
أومأت برأسها وصعدت الى غرفتها . كانت شاحبة جداً .

XXVIII

وصلا الى هدفهما أخيراً . لقد حُملا في محفَّتَيْن يوماً بعد يوم وعلى ممر ضيّق بين حقول أرز لا تنتهي . انطلقا في الفجر وسافرا الى أن أجبرتهما حرارة النهار على أن يلتجئا الى ملاذ في خان على جانب الطريق ثم تابعا رحلتهما ثانية الى أن وصلا الى المدينة حيث رتّبا كيف سيقضون الليل . كانت محفّة كيتي تتقدّم الموكب وولتر يتبعها ، ثم تبعهما الخدم حاملوا لوازم نومهما ومؤونتهما ومعداتهما في خط يُشق طريقه بصعوبة . ومرّت كيتي خلال الريف بعينين لا تريان شيئاً . لم يُقطع الصمت طيلة الساعات الطويلة كلها إلاّ بملاحظة عرضية من أحد الحمّالين أو بفقرة من أغنية غريبة ، بينما كيتي تقلّب في ذهنها المعذّب تفاصيل المشهد الساحق للفؤاد في مكتب تشارلي . وقد أفزعها ، وهي تستعيد ما كان قد قاله لها وما قالته له ، أن ترى حديثهما وقد تحوّل الى حديث مجدب وشبيه بحديث يتعلّق بالأعمال . لم تقل ما كانت تريد قوله ولم تتكلّم باللهجة التي نوت أن تتكلّم بها . لو كانت قادرة على أن تجعله

Amly نهضة العرب

يرى حبها اللامحدود ، والعاطفة في قلبها وعجزها ، لما استطاع أن يكون لاإنسانياً الى درجة أن يتركها لمصيرها . لقد أخذت على حين غرة . ما كان بوسعها أن تصدّق أذنيها حين أخبرها ، وبأوضح العبارات ، بأنه لم يكن يبالي بها . لذلك السبب لم تبكِ كثيراً جداً ، فقد كانت مذهولة الى درجة كبيرة . لقد بكت بعد ذلك ، بكت بتعاسة .

في الليل وفي الخانات ، وفيما هي تشترك مع زوجها في احتلال غرفة الضيوف الرئيسية عارفة بأن وولتر يتمدد مستيقظاً على سريره السفريّ على بُعد بضعة أقدام منها ، كانت تغرز أسنانها في المخدّات حتى لا ينطلق أي صوت منها . لكنها كانت تسمح لنفسها في النهار ، وستائر المحفّة تحميها ، في أن تستسلم للبكاء . كان ألمها كبيراً جداً الى درجة أنها لم تستطع أن تصرخ بأعلى صوتها ، فلم تكن تعرف بأن أحداً يمكنه أن يعاني الى تلك الدرجة ، فساءلت نفسها بيأس عما كانت قد فعلته لتستحق هذا . لم تستطع أن تكتشف لماذا لم يحبها تشارلي ، فكّرت ، إنها غلطتها ، لكنها كانت قد بذلت أقصى جهدها لكي تجعله يغرم بها . لقد سارت أمورهما دائماً سيراً حسناً ، فقد كانا يضحكان طيلة الوقت الذي يقضيانه معاً ، فلم يكونا محبَّيْن فقط ، بل صديقَيْن حميمَيْن أيضاً . لم تستطع أن تفهم ، لقد تحطمت . قالت لنفسها بأنها تكرهه وتزدريه ، لكنها لم تكن لديها أية فكرة كيف كانت ستعيش إنْ هي لم تكن ستراه ثانية . إنْ كان وولتر سيأخذها الى ماي - تان - فو كعقاب لها ، فإنه يضع نفسه في موضع سخرية ، فما الذي يهمها الآن مما سيؤول اليه مصيرها ؟ لم يعد لديها أي شيء لتعيش من أجله . لقد كان من الصعب ، الى حد ما ، أن تنتهي حياتها في سن السابعة والعشرين .

XXIX

وعلى الباخرة التي أبحرت بهما الى أعلى النهر الغربي ، واصل وولتر

Amly نهضة العرب

القراءة بلا انقطاع ، لكنه كان يحاول ، وعند وجبات الطعام ، أن يتبادل نوعاً من الحديث . كان يكلّمها كأنها غريبة صادفها أثناء الرحلة ، فأخذ يتحدّث اليها عن أمور غير ذات أهمية على سبيل المجاملة، كما تخيلت كيتي ، ، أو حتى يتمكن من أن يزيد من عمق الهوّة التي تفصل بينهما .

وبومضة من بُعد نظر منها ، كانت قد أخبرتْ تشارلي بأن وولتر أرسلها اليه مع تهديد بالطلاق كبديل عن اصطحابها له الى المدينة الموبوءة لكي ترى بأم عينها مدى لامبالة وجبن وأنانية تشارلي . لقد كان هذا صحيحاً . كانت حيلة تتفق تماماً مع مزاجه الساخر . لقد كان يعرف بالضبط ما كان سيحدث فأصدر لأمَتِها التعليمات الضرورية قبل عودتها . لقد لمحت في عينيه ازدراء بدا أنه يشمل عشيقتها إضافة الى أنه يمثلها هي . لعله قال لنفسه بأنه لو كان في محل تاونسيند لما أعاقه شيء في العالم عن القيام بأية تضحية لتحقيق أصغر نزوة من نزواتها . كانت تعرف بأن ذلك كان صحيحاً أيضاً . لكنها فكرت حين انفتحت عيناها ، كيف يمكنه أن يجعلها تُقْدِم على عمل محفوف بالأخطار كهذا ، عمل لا بد أنه يعرف بأنه يخيفها على نحو رهيب ؟ فكّرت في البدء ، بأنه كان يلهو بها فقط ، فظلّت تفكّر بأنهما حالما ينطلقان في رحلتهما ، لا ، بعد ذلك ، حالما يغادران النهر ويستقلا المحفّتَيْن للإنطلاق عبر الريف ، سيطلق تلك الضحكة القصيرة المعهودة ويخبرها بأن لا داعٍ لمجيئها . فليست لديها أدنى فكرة عما يدور في ذهنه . إنه لا يمكن أن يرغب في موتها . فقد أحبّها حباً يائساً جداً . إنها تعرف ما هو الحب الآن ، وتذكّرت ألف علامة تنمّ عن عبادته لها . فهي بالنسبة اليه ، وحسب التعبير الفرنسي ، تخلق جواً جميلاً وبشعاً . من المستحيل أنه كفّ عن حبها . هل تكفّ عن حب شخص لإنك عوملت معاملة قاسية ؟ لم تعذّبه كما عذبّها تشارلي ، ومع ذلك ، فلو أن تشارلي أشار اليها أية إشارة ، وبالرغم من كل شيء وحتى بالرغم من أنها عرفته الآن ، فإنها

Amly نهضة العرب

كانت سترفض كل ما يقدمه العالم لها لكي تطير الى ذراعيه . وبالرغم من أنه ضحى بها ولم يبالِ بها قط ، وبالرغم من أنه كان قاسياً وعديم الرحمة ، إلاّ أنها تحبه .

في البدء ، فكّرتْ في أن عليها فقط أن تنتظر الفرصة الملائمة ، فوولتر سيصفح عنها عاجلاً أو آجلاً . لقد كانت شديدة الثقة في تأثيرها عليه الى درجة أن من الصعب أن تصدّق أن هذا التأثير قد انتهى الى الأبد . فالكثير من المياه لا يمكنها أن تطفيء الحب . إنه ضعيف إنْ هو أحبها ، وأحسّت بأنه لا بد أن يحبها . لكنها لم تكن الآن متأكدة تماماً من هذا. وحينما يجلس في المساء يقرأ على كرسيّ مستقيم الظهر مصنوع من خشب أسود في الخان ونور مصباح أعاصير على وجهه ، كانت قادرة على مراقبته وهي غير متوترة . فتتمدد على الحشيّة التي لُفرد لتكوّن فراشها ، وتكون هي في الظل . إن ملامحه المستقيمة المنتظمة تلك تجعل وجهه يبدو صارماً جداً . حتى أنك ما كنت لتصدّق بأن من الممكن أن يتغيّر هذا الوجه في بعض المناسبات الى إبتسامة عذبة . كان قادراً على أن يقرأ بهدوء تام ، كأنها كانتْ على بُعد ألف ميل عنه ، فقد رأته يقلّب الصفحات ورأت عينيه تتنقلان بانتظام وهما تقفزان من سطر الى آخر . لم يكن يفكّر فيها. وحين تكون الطاولة قد أعدت وجُلب الطعام، كان يضع كتابه جانباً ويلقي عليها نظرة سريعة (دون أن يدري كيف كان الضوء يلقي على وجهه ملامح محدّدة) ، وقد لمحتْ لرؤيتها نظرة مقت واضحة في عينيه . نعم ، لقد أفزعتْها . هل من الممكن أن يكون حبه قد فارقه تماماً ؟ هل من الممكن أن يكون قد خطط حقاً لموتها ؟ إن هذا سخيف . سيكون ذلك فعل رجل مجنون . كانت غريبةً تلك الرعدة الطفيفة التي سرت في عروقها ، وفكرةُ أن وولتر ربما لا يكون عاقلاً تماماً تخطر في بالها .

Amly نهضة العرب

XXX

فجأة ، أخذ حاملو محفّتها ، الذين لزموا الصمت مدة طويلة ، يتحادثون ، ثم التفت أحدهم اليها ، مردداً كلمات لم تفهمها ومشيراً إشارات لتجذب انتباهها . نظرت في الإتجاه الذي أشار اليه ، فرأت على قمة تل قوساً ، فعرفت الآن بأنه كان نصباً يحيي ذكرى عالِم محظوظ أو أرملة فاضلة ، وقد مرّت بالكثير منها منذ أن غادرت النهر ، لكن هذا النصب ، المرسوم ظله إزاء شمس غاربة ، كان أبهى وأجمل من أي نصب آخر كانت قد رأته . لكنه أثار في نفسها القلق ، دون أن تدري سبب هذا ، لقد أوحى اليها بمعنى أحسّت به ، لكنها لم تستطع أن تصوغه بكلمات : هل كان تهديداً ميّزته بغموض أو كان سخرية ؟ كانت تمر بأجمة أشجار غاب ، وكانت الأشجار تميل منحنية على الممر على نحو غريب كأن هذه الأشجار كانت ستحتجزها ، وكانت أوراقها الخضراء الضيّقة ترتعش قليلاً رغم أن الهواء كان ساكناً . أوحى اليها هذا بأن شخصاً كان يختبيء بين هذا الأشجار ويراقبها وهي تمر . ووصلوا الآن الى سفح التل ، وانتهت حقول الأرز . وصعد الحمّالون التل بخطى سريعة خفيفة . كان التل مكسواً بكثافة بربى خضراء ، تلتصق كل واحدة منها بالأخرى ، فكانت الأرض مضلّعة كرمل البحر حين ينحسر عنه المد ، وكانت تعرف هذا أيضاً ، فقد مرت ببقع كهذه وهم يقتربون من كل مدينة مأهولة ويغادرونها . لقد كانت المقبرة . وعرفت الآن لماذا لفت الحمّالون انتباهها الى الممر المقدّس القائم على قمة التل : لقد وصلوا الى نهاية رحلتهم .

مروا من خلال الممر المقوّس ، وصمت حاملو المحفّات لينقلوا عمود المحفّة من كتف الى كتف . مسح أحدهم وجهه المتفصّد عرقاً بخرقة قذرة . وتلوى الممر هابطاً . كانت ثمة بيوت متسخة على جانبي الطريق . كان الليل يرخي سدوله الآن ، لكن الحمّالين انطلقوا فجأة في

Amly نهضة العرب

حديث منفعل ، واقتربوا من الجدار قدر ما استطاعوا ذلك بقفزة هزّتها . وعرفت في لحظة ما الذي أفزعهم ، فقد مر بالحمّالين الواقفين هناك المثرثرين الى بعضهم بعضاً أربعةُ فلاحين ، سريعين وصامتين ، حاملين تابوتاً جديداً غير مطليّ ، وخشبه الجديد يتوهّج أبيض في الظلام الموشك على الحلول . أحست كيتي بقلبها يخفق برعب على أضلعها . مرّ التابوت ، لكن الحمالين وقفوا صامتين ، بدا كأنهم لا يستطيعون أن يستجمعوا إرادتهم للإستمرار في السير لكن صيحة انطلقت من الخلف، ففزعوا . ولم ينبسوا الآن .

ساروا لبضع دقائق ثم استدارو بحدّة داخلين بوّابة مفتوحة . ووُضِعَتْ المحفّة على الأرض . لقد وصلت .

XXXI

كان المسكن كوخ بنجالو bungalow ، فدخلت غرفة الجلوس . جلست بينما أحضر الحمّالون أحمالهم وهم يشقّون طريقهم الى الداخل واحداً إثر الآخر . ووجّههم وولتر ، وهو في الفناء ، مشيراً الى الإتجاه الذي سيوضع فيه هذا الشيء أو ذاك . كانت تعبة جداً . أجفلت حين سمعت صوتاً مجهولاً .

- أيمكن أن أدخل ؟

أحمرتْ وشحبت . لقد كانت منهكة القوى مما جعلها عصبية لمقابلتها شخصاً غريباً . وخرج رجل من الظلام ، فقد كانت الغرفة الواطئة مضاءة بمصباح مظلل فقط ، ومَدّ الرجل يده .

- إسمي وادينجتون Waddington . إنني وكيل المفوّض .

- أوه ، الجمارك . أعرف هذا . لقد سمعتُ بأنك هنا .

كان بوسعها أن ترى في ذلك الضوء المعتم بأنه كان رجلاً ضئيلاً فقط ، لا يزيد طوله عن طولها ، وله رأس أصلع ووجه صغير أجرد .

Amly نهضة العرب

- إنني أعيش في قاع التل ، ولم تروا بيتي لسلوككم الطريق الذي سلكتموه . لقد رأيت أنكما ستكونان تعبَيْن جداً فلا تستطيعان الحضور لتناول العشاء معي ، لذلك أمرتُ بإحضار العشاء الى هنا ، وقد دعوتُ نفسي كذلك .

- إنني مسرورة لسماع هذا .

- ستجدين أن الطبّاخ ليس سيئاً . لقد استبقيتُ خدم واطسون Wat-son لكما .

- واطسون هو رجل البعثة التبشيرية الذي كان هنا ؟

- نعم . رجل رائع جداً . سأريكِ قبره غداً إنْ شئتِ .

قالت كيتي مبتسمة :

- كم أنت لطيف .

في تلك اللحظة ، دخل وولتر . كان وادينجتون قد قدّم نفسه له قبل أن يدخل ليرى كيتي ، فقال الآن :

- لقد كنتُ أزفّ الى زوجتك خبرَ أنني سأتعشى معكما . منذ أن مات واطسون ، لم يكن ثمة مَنْ أبادله الكلام سوى الراهبات ، وأنا لا أستطيع أن أظهر كفاءتي باللغة الفرنسية . إضافة الى أن ثمة عدد غير محدود من المواضيع فقط التي يمكنك الحديث عنها معهن .

قال وولتر :

- لقد أخبرتُ الصبيّ الخادم أن يحضر بعض الشراب .

أحضر الخادم ويسكي وصودا ، ولاحظت كيتي بأن وادينجتون يقدّم الشراب الى نفسه بسخاء . وقد أوحى اليها أسلوبه في الكلام وقهقهته المنطلقة ، حين دخل عليها ، بأنه لم يكن صاحياً تماماً .

قال :

- هذا للحظ .

ثم قال ، وهو يلتفت الى وولتر :

- إن العمل معدّ لك هنا . إنهم يموتون كالذباب . وقد أضاع المسجّل

Amly نهضة العرب

صوابه ويبذل العقيد يو Colonel Yu ، قائد الجنود هنا ، جهداً شيطانياً لمنعهم من السلب والنهب . وإنْ لم يحدث شيء هنا قريباً ، فإننا سنقتل جميعاً في أسرّتنا . لقد حاولتُ حمل الراهبات على الرحيل، لكنهن رفضن طبعاً . فكلهن يردن أن يصبحن شهيدات ، اللعنة عليهن .

تكلّم بخفة وخالط صوتَه نوعٌ من ضحكة شبحية حتى أنك لم تكن تستطيع أن تصغي اليه دون أن تبتسم .

سأل وولتر :

– لماذا لم ترحل ؟

– حسناً ، لقد فقدتُ نصف موظفيّ ، أما الآخرون فمستعدون لإن يسقطوا ويموتوا في أية دقيقة . لا بد أن يبقى شخص ويحافظ على سير الأمور سيراً حسناً .

– هل لُقّحت ؟

– نعم . لقد لقحني واطسون . وقد لقّح نفسه كذلك ، لكن ذلك لم يفده كثيراً ، المتورّط المسكين .

والتفت الى كيتي وكان وجهه الصغير المضحك متغضّناً بمرح .

– لا أظن أن ثمة مخاطرة كبيرة إنْ أنتِ اتخذتِ الإحتياطات السليمة . إغلي حليبك وماءك ولا تأكلي الفواكه الطازجة أو الخضار غير المطبوخة . هل أحضرتِ معكِ أية أسطوانات حاكي ؟

قالت كيتي :

– لا ، لا أظن هذا .

– أنا آسف لذلك . كنتُ آمل أن تحضري معك بعضها . فلم يكن لديّ أي منها منذ وقت طويل ، وقد مللتُ من اسطواناتي القديمة .

دخل الصبي الخادم ليسألهم إنْ كانوا سيتناولون العشاء .

سألها وادينجتون :

– لن تغيّرا ملابسكما الليلة ، أليس كذلك ؟ لقد مات صبيي الإسبوع

Amly نهضة العرب

الماضي ، والصبيّ الخادم الذي لديّ الآن أبله ، لذلك فإنني لا أغيّر ملابسي في المساء .

قالت كيتي :

– سأذهب وأخلع قبعتي .

كانت غرفتها هي المجاورة للغرفة التي كانوا يجلسون فيها . وكانت لا تكاد تحوي أثاثاً . وكانت أمَة تركع على الأرضية وهي تخرج أمتعة كيتي ومصباح الى جانبها .

XXXII

كانت الغرفة صغيرة ، تملأ الجزءَ الأكبرَ منها طاولةٌ هائلة الحجم . وكانت على الجدران مشاهد محفورة من الإنجيل ونصوص مضاءة .

أوضح وادينجتون :

– لدى البعثات التبشيرية دائماً طاولات موائد كبيرة . فهم يفسحون مكاناً أكبر كل سنة لكل طفل ينضم اليهم ، وهم يشترون طاولاتهم حين يتزوجون على نحو يفسح مكاناً لغرباء صغار .

تدلّى من السقف مصباح بارافين كبير ، فتمكّنت كيتي من أن ترى أي نوع من الرجال كان وادينجتون . لقد خدعها صلعه فظنّت أنه لم يعد شاباً ، لكنها رأت الآن بأنه لا بد أن يكون أقل من الأربعين كثيراً . كان وجهه الصغير تحت جبهة مدوّرة عالية ، غير مجعّد ونضر اللون ، وقبيح كوجه قرد ، لكنه قبيح قبحاً ليس خالياً من سحر ، كان وجهاً مسلياً . لم تكن ملامحه وأنفه وفمه أكبر من ملامح وأنف وفم طفل ، وكانت له عينان صغيرتان زرقاوان صافيتان جداً . أما حاجباه فأشقران وخفيفان . بدا كفتى صغير مضحك . وظل يشرب ، حتى اتضح لهما أنه صار بعيداً جداً عن الصحو والعشاء يتقدّم . لكنه إنْ كان ثملاً فإنه يكون كذلك بلا عدوانية وبمرح كماعزٍ سرقت قربة النبيذ من راعيها

Amly نهضة العرب

النائم .

تكلّم عن هونج كونج ، فلديه الكثير من الأصدقاء هناك وكان يريد أن يعرف أخبارهم . كان قد سافر الى هناك قبل سنة لمشاهدة السباق ، وتكلّم عن الخيل وأصحابها .

ثم سأل فجأة :

- على فكرة ، ماذا عن تاونسيند ؟ هل سيصبح حاكم المستعمرة ؟

أحسّت كيتي بنفسها تتضرّج احمراراً ، لكن زوجها لم ينظر اليها .

أجاب :

- لن أستغرب هذا .

- إنه من النوع الذي لا يكفّ عن السعي الى هذا .

سأله وولتر :

- هل تعرفه ؟

- نعم ، أعرفه تماماً . لقد سافرنا من الوطن مرة معاً .

ومن الجانب الآخر من النهر ، سمعوا خفق الأجراس القرصية وقرقعة الصواريخ النارية . وهناك ، وعلى مسافة قصيرة منهم ، تهجع المدينة العظيمة مرتعبة ، بينما يندفع الموت ، فجائياً وقاسياً ، خلال شوارعها الملتوية .لكن وادينجتون راح يتكلّم عن لندن . فتكلّم عن المسارح . وكان يعرف كل المسرحيات التي تُعرض في تلك اللحظة ، وأخبرهم عن المسرحيات التي شاهدها حين كان في الوطن أخيراً وهو في إجازة . وضحك وهو يتذكّر هذا الممثل الهزليّ الرخيص ، وتنهّد وهو يستعيد متأملاً جمال تلك النجمة في الهزليّة الموسيقية . وكان مسروراً لإنه كان قادراً على التباهي بأن إبن عم له تزوج من إحدى الشهيرات جداً . وكان قد تناول الغداء معها كما أعطته صورتها . وسيريها لهما حين سيحضران ويتناولان العشاء معه في دار الجمارك .

نظر وولتر الى ضيفه بتحديقة باردة وساخرة ، لكنه لم يكن مسروراً منه في قليل أو كثير ، وبذل جهداً ليظهر إهتماماً مؤدّباً في مواضيع

Amly نهضة العرب

كانت كيتي تعرف تماماً أنه لم يكن يعرف عنها شيئاً . وتسكّعت على شفتيه إبتسامة طفيفة . لكن كيتي كانت مفعمة بالرهبة دون أن تعرف سبب هذا . فقد بدوا ، في بيت ذلك المبعوث التبشيري الميّت ، القائم على مشارف المدينة الموبؤة ، بدوا منعزلين على نحو لا يمكن وصفه عن العالم كله . ثلاثة مخلوقات منعزلين وغرباء عن بعضهم بعضاً .

انتهى العشاء فنهضتْ هي عن الطاولة .

– أتسمحان لي في أن أتمنى لكما ليلة طيبة ؟ سآوي الى الفراش .

أجاب وادينجتون :

– سأنصرف ، فأنا أتوقّع أن يرغب الدكتور في أن يأوي الى الفراش أيضاً . فلا بد أن نخرج في ساعة مبكّرة من صباح الغد .

صافح كيتي . كان متزناً تماماً وهو يقف على قدميه ، لكن عينيه كانتا تتألقان أكثر من السابق .

قال وولتر :

– سأحضر وآخذك لزيارة الحاكم والعقيد يو ، ثم نتجه الى الدير . سيكون عملك جاهزاً ، يمكنني قول هذا لك .

XXXIII

تعذّبتْ ليلتَها بأحلام غريبة . فقد بدا لها أنها حُملت في محفّتها وأحستْ بالحركة المتأرجحة والحمّالون يسيرون بخطاهم الطويلة غير المنتظمة . فدخلت مدناً ، واسعة ومعتمة ، حيث أحاطت بها الجموع بعيون فضولية . كانت الشوارع ضيّقة وملتوية وتوقف المارون في الدكاكين المفتوحة والمليئة بالبضائع الغريبة ، حينما مرّت هي ، كما كفّ الشارون والبائعون عن البيع والشراء . ثم وصلت الى القوس التذكاري ، فبدت معالمه الخيالية تكتسب فجأة حياة وحشية ، وأصبحت تضاريسه الغريبة غرابة النزوات كأذرع متموجة لإله هندوسي ، وسمعت صدى ضحكة ساخرة حين مرّت تحته . لكن تشارلي تاونسيند اقترب منها

حينذاك وأخذها بين ذراعيه ، رافعاً إياها عن المحفّة ، وقال بأن كل ذلك كان مجرّد غلطة ، فهو لم يقصد قط في أن يعاملها كما عاملها ، فهو يحبها ولن يستطيع أن يعيش بدونها . أحسّت بقبلاته على فمها وَبَكتْ بفرح ، سائلة إياه لماذا كان قاسياً الى ذلك الحد ، لكنها كانت تعرف بأن الأمر لم يكن ليلهمها بالرغم من سؤالها. ثم انطلقتْ صرخة فجائية خشنة ، وانفصلا بينما سار الحمّالون بينهما مسرعين وصامتين بملابسهم الزرقاء الرثة وهم يحملون تابوتاً .

استيقظت مرتاعة .

كان كوخ البنجالو قائماً في منتصف تل منحدر ، فرأت من نافذتها النهر الضيّق تحتها والمدينة في الجهة المقابلة . كان الفجر قد بزغ الآن ، وارتفع من النهر ضباب أبيض يغلّف السفن الشراعية الصينية الراسية لصق بعضها بعضاً كحبّات بازيلاء في غلافها . كانت هناك مئات من السفن ، صامتةً غامضةً تحت ذلك النور الشبحي ، فيتملّكك شعور بأن بحارتها يتمددون تحت تأثير سحر ، فقد بدا أنه لم يكن النوم هو الذي ثبّتهم ساكنين وصامتين على هذا النحو ، بل أن شيئاً غريباً ورهيباً هو الذي فعل هذا .

وتقدّم الصباح ولمستْ الشمس الضباب ، فتألقت بيضاء كشبح ثلج على نجم يموت . ومع أن النور كان يضيء النهر مما يجعلك تميّز خطوط السفن المزدحمة وغابة صواريها تمييزاً غير دقيق ، إلاّ أن جداراً متألقاً لا تستطيع العين إختراقه كان في مقدّمة النهر . لكن فجأة ، ظهر من تلك السحابة البيضاء حصن طويل كئيب وهائل الحجم . لم يبد أنه ظهر للعيان بسطوع الشمس الكاشفة عن كل شيء ، بل انبثق الى حد ما من لا شيء عند لمسة عصا سحرية . وقد علا فوق النهر كبرج معقلاً لجنس بشري قاس وبربريّ . لكن الساحر الذي بنى ذلك كله عمل بسرعة ، فتوّج الآن جزءً من جدار ملوّن الحصنَ ، ورؤيت مجموعة من سقوف خضراء وصفراء بعد لحظة وهي تخرج من الضباب وتلوح واسعة وقد

Amly نهضة العرب

لمسها شعاع أصفر من الشمس هنا وهناك . بدت هائلة الحجم ولم يكن بوسعك أن تميّز نموذجاً لها ، وكان النظام ، إنْ كان هناك نظام ، يفوتك ، وكانت جامحة وهائلة ، لكنها غنيّة غنى لا يمكن تصوره . لم يكن هذا الحصن قلعه ، ولا معبداً ، بل قصراً سحرياً لإمبراطور من الآلهة لا يمكن لأي إنسان أن يدخله . كان واسعاً جداً وخيالياً وغير ماديّ الى حد لا يجعل منه عملاً قامت به أيدٍ بشرية ، بل نسيج حلم .

انهمرت دموع كيتي على وجهها وحدّقت ، وقد تشابكت يداها على صدرها وفمها مفتوح قليلاً ، إنها كانت مقطوعة الأنفاس . لم تحسّ بخفّة قلبها على هذا النحو من قبل قط ، وبدا لها أن جسدها كان صَدَفة تستقر عند قدميها وأنها مجرّد روح خالصة . هنا كان الجمال . فأخذته كما يأخذ المؤمن في فمه رُقاقة الخبيز wafer التي هي الله .

XXXIV

ومنذ أن صار وولتر يخرج في الصباح الباكر ، ليعود عند الغداء فقط لمدة نصف ساعة ، ولا يعود إلاّ حين يكون العشاء جاهزاً ، ألفَتْ كيتي نفسها وحيدة تماماً . فلم تتزحزح من كوخ البنجالو لبضعة أيام . وكان الطقس حاراً جداً ، فأمضت معظم الوقت مستلقية في كرسي طويل عند النافذة المفتوحة ، محاولة أن تقرأ . وقد جرّد نور منتصف النهار القاسي القصرَ البحري من غموضه ولم يعد الآن سوى مجرّد معبد على سور المدينة ، مبهرجاً ورثّ الهيئة ، لكنه لم يكن مكاناً عادياً أبداً ، بعد أن رأته ذات مرة في مثل تلك النشوة التي سيطرت عليها ، وكثيراً ما كانت تجد نفسها قادرة على أن تستعيد شيئاً من ذلك الجمال ثانية عند الفجر أو عند الغسق وفي الليل ثانية . وما بدا لها أنه حصن منيع لم يكن سوى سور المدينة ، وعلى هذا السور الهائل والمعتم كانت تستقر عيناها باستمرار . وكان خلف فتحاته المخصصة للبنادق تمتد المدينة في قبضة

Amly نهضة العرب

الوباء الرهيب .

كانت تعرف ، وعلى نحو غامض ، بأن أموراً رهيبة تجري هناك ، ولم تعرف ذلك من وولتر الذي كان يجيبها حين تسأله (فهو لا يتكلّم اليها إلاّ نادراً إنْ هي لم تتكلّم اليه) باستخفاف مرح يبعث القشعريرة في عمودها الفقري ، بل من وادينجتون ومن الأمّة . كان الناس يموتون بمعدّل مائة شخص في اليوم ، ونادراً ما كان يشفى أولئك الذين كان يهاجمهم المرض ، فأُخرِجَتْ الآلهة من المعابد المهجورة ووضعوها في الشوارع ، ووضعت أمامها القرابين وقدّمت اليها الضحايا ، لكن هذا لم يوقف الوباء . ومات الناس بسرعة هائلة حتى أنه كان من المتعذّر دفنهم . وفي بعض البيوت حُصدت الأسرة كلها فلم يبق أحد للقيام بمراسيم الجنازة . كان الضابط قائد الجند رجلاً قوي الشكيمة ، فإنْ لم تتعرّض المدينة لفوضى وعمليات حرق فذلك يعود الى تصميمه . فقد أجبر جنوده على دفن أولئك الذين لم يكن هناك من أحد ليدفنهم حتى أنه أطلق النار وبيده على ضابط تقاعس عن دخول بيت موبوء .

وكان الخوف يسيطر على كيتي أحياناً الى درجة أن قلبها كان يغوص في جوفها وترتعش أوصالها كلها . كان كل شيء على ما يرام إن قلتَ أن الخطر طفيف إذا أنتَ أخذتَ الإحتياطات المعقولة : لقد كانت فريسة للفزع . وقلّبت في ذهنها خططاً مجنونة للهرب . للإبتعاد ، مجرّد أن تبتعد عن المنطقة ، وكانت مستعدة لكي تنطلق كما هي ، وتشق طريقها وحدها الى مكان آمن ، ودون أن يكون معها أي شيء سوى الذي ترتديه من ملابس . فكّرتْ في أن ترمي بنفسها تحت رحمة وادينجتون ، ذاكرة له كل شيء ، مناشدةً إياه كي يساعدها حتى تعود الى هونج كونج . إذاهي رمت بنفسها على ركبتيها أمام زوجها ، وأقرّت له بأنها كانت خائفة ، فلا بد أن يكون لديه ما يكفي من شعور إنساني ليرثي لها بالرغم من أنه كان يكرهها الآن .

إن هذا خارج الموضوع تماماً . فإنْ هي رحلت ، فإلى أين سترحل ؟

Amly نهضة العرب

ليس الى أمها ، فإن أمها ستُظهر لها بوضوح بأنها أرادتْ أن تتخلّص منها ، بعد أن زوّجتها ، إضافة الى أنها لا تريد أن تسافر الى أمها . إنها تريد أن تذهب الى تشارلي ، وهو لا يريدها . إنها تعرف ما سيقوله لها إنْ هي ظهرتْ أمامه فجأة . إنها ترى التجهّم الذي سيكسو وجهه والقسوةَ اللاذعة خلف عينيه الساحرتين . سيكون من الصعب له أن يجد كلمات ذات وقع حسن . انقبضت يداها . كانت ستتنازل عن أي شيء في سبيل أن تذله كما أذلّها . سيطر عليها أحياناً حماس حملها على أن تتمنى لو أنها تركت وولتر يطلّقها ، مدمّرة نفسها إنْ هي تمكّنتْ من تدميره هو أيضاً . وحين تتذكّر أموراً معيّنة كان قد قالها لها في السابق ، كانت تتضرّج خجلاً وخزياً .

XXXV

حين خَلَتْ الى وادينجتون لأول مرة ، أدرات دفة الحديث حول تشارلي . وكان وادينجتون قد تحدّث عنه في مساء وصولهما . وتظاهرتْ بأنه لم يكن أكثر من مجرّد أحد معارف زوجها .

قال وادينجتون :

– لم أهتم به كثيراً ، فقد اعتبرته دائماً مملاً .

فأجابته كيتي بلهجة خفيفة ممازحة أمكنها أن تتخذها :

– لا بد أن من الصعب إرضاءك . فأنا أظن أنه أكثر الناس شعبية في هونج كونج .

– أعرف هذا ، فتلك بضاعته في التجارة . لقد ابتدع علِم الشعبية . فلديه موهبة حمل كل من يقابله على الشعور بأنه الشخص الوحيد الذي يرغب في أن يراه في العالم . فهو مستعد دائماً للقيام بخدمة لا تجشمه أي عناء ، وحتى إنْ هو لم يقم بما تريده ، فإنه يتمكّن من إثارة الإنطباع في نفسكَ بأن ما تريده لم يتحقق لإنه فوق طاقة البشر .

Amly نهضة العرب

- تلك ميزة رائعة بالتأكيد .
- سحر ولا شيء غير سحر يصبح أخيراً متعباً الى حد ما ، كما أظن . إن مما يبعث على الراحة حينذاك هو التعامل مع رجل ليس ظريفاً تماماً بل مخلصاً قليلاً الى حد ما . لقد عرفت تشارلي تاونسيند لسنين عديدة ، ورأيته مرة أو مرتين وقد انحسر القناع عن وجهه - فأنا - كما ترين ، لم أكن شخصاً مهماً قط ، مجرّد موظف صغير في الجمارك - وأنا أعرف بأنه لا يهتم في قرارة نفسه ، أدنى اهتمام ، بأي شخص في العالم سوى نفسه .

نظرت اليه كيتي ، وهي تسترخي في كرسيّها ، بعينين مبتسمتَيْن . وواصلت لفّ خاتم زفافها حول إصبعها مراراً وتكراراً .

- سينجح طبعاً . فهو يعرف كل الحبال الرسمية . وأنا أؤمن بأنني ، وقبل أن أموت ، سأخاطبه بيا صاحب السعادة وسأقف على قدميّ حين يدخل الغرفة .

- يرى أغلب الناس أنه أهل للنجاح في مسعاه . فمن المفروض أنه على قدر عظيم من المقدرة .

- مقدرة ؟ يا له من هراء ! إنه رجل غبي جداً . إنه يثير في نفسك الإنطباع بأنه يندفع في عمل وينهيه بألمعية خالصة . إنه ليس شيئاً من هذا القبيل . إنه مجد كأي موظف كتابيّ أوروبي آسيوي .

- كيف اكتسب شهرة أنه ذكي ؟

- ثمة كثير من الناس البلهاء في العالم ، فحين يَرفع رجل في منصب عالٍ الكلفة معهم ويربت على ظهورهم، ويخبرهم بأنه سيبذل كل جهد في العالم من أجلهم ، فمن المحتمل طبعاً أنْ يَرَوْه ذكياً . وهناك زوجته طبعاً. وهي امرأة قديرة إن أرضاك هذا . فلها رأس جيد سليم ومشورتها دائماً جديرة بأن تُتبع . فطالما هي قرب تشارلي تاونسيند ليعتمد عليها ، فهو بمأمن دائماً من أن يقوم بعمل أحمق ، وذلك هو أول ما هو ضروري لرجل يتقدّم في خدمة الحكومة ويرتقي . فهم لا يريدون

Amly نهضة العرب

رجالاً أذكياء ، فللأذكياء أفكار ، والأفكار تسبب المتاعب ، إنهم يريدون رجالاً يتمتعون بسحر ولباقة ويمكن الإعتماد عليهم في عدم ارتكاب خطأ . أوه ، نعم ، سيصل تشارلي تاونسيند الى قمة الشجرة حقاً .

– إنني أتساءل عن سبب كراهيتك له .

– إنني لا أكرهه .

وابتسمت كيتي وهي تقول :

– لكنك تحب زوجته أكثر .

– إنني رجل صغير الشأن عتيق الطراز وأحب المرأة حسنة التربية .

– ليتها كانت حسنة الأناقة قدر حسن تربيتها .

– أليست هي أنيقة ؟ لم ألاحظ هذا قط .

قالت كيتي ، وهي تراقبه من تحت أهدابها :

– لقد سمعت دائماً بأنهما زوجان مخلصان .

– إنه مغرم جداً بها . إنني أعترف له بتلك الميزة . وأنا أرى بأن تلك أفضل ما فيه .

– مديح بارد .

– إن لديه مغازلات بسيطة ، لكنها ليست جدية . فهو أمكر من أن يجعلها تمتد الى حدود قد تسبب له المنغصات . وهو ليس رجلاً عاطفياً طبعاً ، إنه رجل مغرور . إنه يحب الإطراء . إنه سمين وفي الأربعين الآن ، وهو يهتم بنفسه كثيراً ، لكنه كان حسن المظهر حين وصل الى المستعمرة أول مرة . وكثيراً ما سمعت زوجته تمازحه عن غزواته .

– إنها لا تأخذ غرامياته مأخذ الجد ؟

– أوه ، لا ، إنها تعرف فهي لا تذهب بعيداً جداً . وتقول بأنها تود أن تكون قادرة على أن تصادق النساء الصغيرات المسكينات اللواتي يقعن في غرام تشارلي ، لكنهن يكن دائماً عاميّات . وتقول إنه ليس مرضياً لها أن تكون النساء اللواتي يقعن في غرام زوجها نساء من الدرجة

Amly نهضة العرب

الغانية وعاميّات الى هذا الحد .

XXXVI

حين ترك وادينجتون كيتي ، فكّرت بما قاله على ذلك النحو من اللامبالاة . ولم يكن ذلك مما يسرّ سماعه ، وقد بذلت بعض الجهد حتى لا تظهر مدى تأثرها . لقد كان أمراً مريراً أن ترى بأن كل ما قاله كان صحيحاً. فقد كانت تعرف بأن تشارلي كان غبياً ومغروراً ، ومتعطّشاً للتملّق ، وتذكّرت الرضى الذي ظهر عليه وهو يقص عليها قصصاً صغيرة للبرهان على ذكائه . وكان فخوراً بالمكر الرخيص . يا لمدى رخصها إذْ هي وهبت قلبها بتلك العاطفية العميقة الى رجل كهذا الآن – إن له عينين رائعتين وقواماً جميلاً ! تمنّت أن تحتقره ، لإنها كانت تعرف أنها طالما أحسّت نحوه بالكراهية فقط ، فإنها ستكون قريبة جداً من حبها له. وكان لا بد أن تفتح الطريقةُ التي عاملها بها عينيها . ولقد كان وولتر يحسنّ نحوه بالإحتقار دائماً . أوه ، لو أنها تستطيع فقط أن تخرجه من قلبها كلياً ! وهل مازحته زوجته عن افتتانها الواضح به ؟ كانت دوروثي تود أن تصادقها ، لكنها وجدتها أمرأة من الدرجة الثانية . إبتسمت كيتي إبتسامة طفيفة : يا للحنق الذي سيتملّك أمها لو عرفت بأن إبنتها اعتُبِرتْ كذلك !

لكنها حلمت به في الليل مرة أخرى . أحسّت بذراعيه تضغطانها نحوه بشدة كما أحسّت بعاطفة قبلاته الحارة على شفتيها . ما الذي بهم إنْ كان سميناً وفي الأربعين ؟ ضحكتْ بحنان لإنه كان يهتم بهذا كثيراً جداً ، وأحبته أكثر لغروره الطفولي ، كما كان يمكنها أن تأسف من أجله وتواسيه . وحين استيقظتْ ، كانت الدموع تنهمر من عينيها .

لم تعرف لماذا بدا لها الأمر مأساوياً لإنها بكت أثناء نومها .

Amly نهضة العرب

XXXVII

رأت وادينجتون كل يوم ، فقد كان يصعد التل ماشياً الهوينى وهو يتجه نحو كوخ بنجالو أسرة فاين حين ينتهي عمل يومه ، وهكذا توطدت علاقة بينهما بعد إسبوع ، علاقة ما كانا ليبلغاها في ظل ظروف أخرى خلال سنة واحدة . وحين قالتْ له كيتي ، ذات مرة ، بأنها لم تكن تعرف ما كانت ستفعل دونه ، أجابها ضاحكاً :

– كما ترين ، أنتِ وأنا الشخصان الوحيدان هنا واللذان يمشيان بهدوء تام وسلام على أرض صلبة . فالراهبات يمشين في السماء وزوجك – في الظلام .

ومع أنها أطلقت ضحكة لامبالية ، إلاّ أنها تساءلت عما يعنيه . وأحسّت بعينيه المرحتين الصغيرتين الزرقاوين تتفرسان في وجهها بانتباه وديّ لكنه مقلق . فقد اكتشفت بأنه كان خبيثاً وشعرت بأن العلاقات بينها وبين وولتر تثير فيه فضولاً كلبيّاً . وقد وجدت متعة معيّنة في أن تحيّره . كانت تميل اليه وكانت تعرف بأنه يتخذ موقفاً ودياً منها . لم يكن ذكياً جداً ولا لامعاً ، لكن ، لديه طريقة جافة وجارحة في عرض الأمور التي تسليها ، كما كان وجهه المضحك والصبياني ، تحت تلك الجمجمة الصلعاء وقد تجعّد كله من الضحك ، يضفي على ملاحظاته أحياناً تهريجاً مفرطاً . لقد عاش مدة سنين عديدة في أماكن نائية ، دون أن يكون هناك واحد من بني لونه ليتحدّث اليه ، فتطوّرت شخصيته في جو من حرية شاذة . فغلبت عليه النزوات وغرابة الأطوار . وكانت صراحته منعشة . وبدا أنه ينظر الى الحياة بروح مازح ، وكانت سخريته من المستعمرة في هونج كونج لاذعة ، لكنه كان يسخر من الموظفين الصينيين في ماي – تان – فو أيضاً ومن الكوليرا التي أهلكت القسم الأعظم من المدينة . ولم يكن بوسعه أن يقص قصة مأساوية أو قصة بطولية دون أن يجعل منها قصة سخيفة قليلاً . وكان لديه الكثير

Amly نهضة العرب

من الحكايات عن مغامراته خلال عشرين سنة في الصين ، فتستنتج منها بأن الأرض مكان غرائبيّ وعجيب ومثير للسخرية جداً .

وبالرغم من أنه أنكر أنه كان عالماً صينياً (فقد أقسم بأن علماء اللغة والآداب الصينية مجانين كأرانب المستنقعات) إلاّ أنه كان يتكلّم اللغة الصينية بسهولة . وكان يقرأ قليلاً ، وقد تعلّم ما يعرفه من الحديث . لكنه غالباً ما قصّ على كيتي قصصاً من الروايات الصينية ومن التاريخ الصيني ، وبالرغم من أنه كان يقص تلك القصص بخفة مازحة كانت من طبيعته ، إلاّ أنها كانت ذات روح مرحة ورقيقة . فبدا لها بأنه ربما تبنى، وبلا وعي منه ، وجهة النظر الصينية القائلة بأن الأوروبيين برابرة وأن حياتهم حماقة : فالحياة في الصين وحدها كانت تسير على النحو الذي يجعل الإنسان العاقل يميّز فيها نوعاً من الواقعية .فها هنا طعام للتفكير : فلم تسمع كيتي من قبل أحداً يصف اللغة الصينية إلاّ بالإنحلال والقذارة وأنها لغة لا يمكن الكلام بها . وبدا كأن ركناً من ستارة قد رُفع للحظة ، فرأت بلمحة سريعة عالماً غنياً بلون ومعنى لم تحلم بهما من قبل .

جلس هناك ، متحدّثاً وضاحكاً وهو يشرب .

قالت له كيتي بجرأة :

- ألا ترى بأنك تشرب كثيراً جداً ؟

أجاب :

- إنه متعتي الكبرى في الحياة . أضافة الى أنه يبعد عني الكوليرا .

وحين غادرها ، كان ثملاً على نحو عام ، لكنه كان يحتمل الشراب على نحو جيّد . فهو يجعله هزلياً دون أن يصبح منفراً .

وذات مساء ، حضر وولتر مبكّراً عن موعده ، فطلب منه أن يبقى للعشاء . ووقع حادث غريب . فقد تناولوا حساءهم وسمكهم ثم قدّم الصبي لكيتي سلطة طازجة خضراء مع الدجاج .

صاح وادينجتون وهو يراها تتناول بعض السلطة :

Amly نهضة العرب

- يا لله الرحيم ، لن تأكلي ذلك .
- نعم ، فنحن نأكلها كل ليلة .

قال وولتر :

- إن زوجتي تحبها .

وقدّم الطبق الى وادينجتون ، لكنه هزّ رأسه :

- شكراً جزيلاً لكما ، لكنني لا أفكّر في أن أنتحر بعد .

إبتسم وولتر بكآبة وتناول بعض السلطة . ولم يقل وادينجتون شيئاً ، بل أصبح في الحقيقة واجماً على نحو غريب وغادرهما بعد العشاء مباشرة .

كان صحيحاً أنهما يأكلان السلطة كل ليلة . فبعد يومين من وصولهما ، أدخل الطباخ ، بلامبالاة الصينيين ، السلطةَ الى غرفة الطعام فتناولتْ كيتي بعضها بلا تفكير . فمال وولتر الى الأمام بسرعة :

- يجب ألاّ تأكلي ذلك . الصبيّ مجنون لتقديمه لها .

سألت كيتي ، ناظرة اليه في وجهه تماماً :

- ولِمَ لا ؟
- إن هذا خطير دائماً ، إنه جنون الآن . ستقتلين نفسك .

قالت كيتي :

- ظننتُ بأن تلك كانت الفكرة .

وراحت تأكل بهدوء . لقد سيطرتْ عليها روح شجاعة لم تعرف طبيعتها . وراقبتْ وولتر بعينين ساخرتَيْن . وظنّت أنه شحب قليلاً ، لكنه تناول بعض السلطة حين قُدّمت اليه . وبعد أن رأى الطباخ بأنهما لم يرفضاها ، أخذ يقدّم اليهما بعضاً منها كل يوم ، فراحا يأكلان منها كل يوم ، مغازلَيْن الموت . لقد كان من البشع مواجهة خطر كهذا . فكانت كيتي تتناول السلطة ، والرعب من الإصابة بالمرض يسيطر عليها ، وهي لا تحس فقط بأنها بعملها هذا كانت تنتقم لنفسها بخبث من وولتر فحسب ، بل كانت تسخر من مخاوفها اليائسة نفسها أيضاً .

Amly نهضة العرب

XXXVIII

وفي اليوم التالي لهذا العشاء سأل وادينجتون كيتي ، حين زار كوخهما بعد الظهر وجلس معها قليلاً ، إنْ كانت ستخرج معه في نزهة على الأقدام . ولم تكن قد خرجت من المجمّع منذ وصولهما . فسرّتها دعوته .

قال :

- أخشى ألاّ يكون ثمة الكثير من أماكن التنزه . لكننا سنصعد الى قمة التل .

- أوه ، نعم حيث يقع الممر المقوّس . لقد رأيته كثيراً من الشرفة .

فتح لهما أحد الصبية الخدم باباً ثقيلاً ، فخطيا خارجَيْن الى الزقاق المغبّر . ومشيا بضع ياردات ثم أطلقت كيتي صرخة فزعة وهي تقبض على ذراع وادينجتون .

- أنظر !

- ما الأمر ؟

فعند أسفل السور المحيط بالمجمّع ، كان رجل مستلقياً على ظهره ورجلاه ممدودتان وذراعاه على رأسه . وكان يرتدي الخِرَق الزرقاء المرقّعة وتعلو رأسه كتلة شعر المتسولين الصينيين .

شهقت كيتي :

- يبدو كأنه ميّت .

- إنه ميّت . هيا ، يحسن أن تنظري الى الجهة الأخرى . سآمر بنقله حين نعود .

لكن كيتي كانت ترتعش بعنف حتى أنها لم تستطع أن تتحرّك .

- لم أرَ ميّتاً من قبل .

- يحسن أن تسارعي وتعتادي على هذا إذن ، لإنك سترين الكثير منهم قبل أن تنتهي من هذه البقعة البهيجة .

Amly نهضة العرب

أمسك بيدها وسحبها الى تحت ذراعه . وسارا مسافة قصيرة بصمت .

قالت أخيراً :

- هل مات من الكوليرا ؟

- أظن هذا .

سارا صاعدَيْن التل الى أن بلغا الممر المقوّس . كان غنياً بالنقوش . خيالياً وساخراً انتصب كعلاقة مميزة في المنطقة الريفية المحيطة بهم . جلسا على قاعدته وواجها السهل الفسيح . وكان التل قد زُرع قرب ربى الموتى الخضراء ، لا بخطوط منتظمة بل بفوضى ، حتى أنك كنت تحس بأن النباتات تدفع بعضها بعضاً بالمناكب تحت سطح الأرض . وتلوّى الممر الضيّق متعرّجاً بين حقول الأرز الخضراء . وجلس صبي صغير على عنق جاموس ماء يقوده ببطء نحو بيته ، بينما سار ثلاثة فلاّحين يعتمرون قبعات قش عريضة بخطى جانبية متراخية تحت أحمالهم الثقيلة . وبعد حرارة النهار ، كان مما يُسِّر في تلك البقعة أن يتنسّم الإنسان نسمة المساء الخفيفة ، وأشاع امتداد الأرض الريفية الواسعة إحساساً بكآبة مريحة في القلوب المعذّبة . لكن كيتي لم تستطع أن تقصي عن ذهنها المتسوّلَ الميت.

وسألت فجأة :

- كيف يمكنك أن تضحك وتشرب الويسكي والناس يموتون حولك في كل مكان ؟

لم يجب وادينجتون . استدار ونظر اليها ، ثم وضع يده على ذراعها .

قال بجد :

- أتعرفين ، إن هذا ليس مكاناً مناسباً لإمرأة . لماذا لا ترحلين ؟

ألقت عليه نظرة جانبية سريعة من تحت أهدابها الطويلة ، ولاح على شفتيها ظل إبتسامة .

Amly نهضة العرب

– كان يجب أن أفكّر في هذه الظروف بأن مكان الزوجة هو الى جانب زوجها .

– حين أبرقوا اليّ بأنك قادمة مع فاين ، دهشت . لكنه خطر في بالي بأنك ربما كنتِ ممرّضة أو شيئاً من هذا القبيل المتعلّق بالعمل اليومي . لقد توقعتُ أن تكوني واحدة من تلك النساء المتجهمات الوجه اللواتي يدفعنَك الى العيش عيشة كلب حين تكون مريضاً في المستشفى . كان يمكنك أن تطرحيني أرضاً بريشة طير حين دخلتِ كوخ البنجالو ورأيتكِ تجلسين وتستريحين . فقد بدوتِ هشّة جداً وبيضاء وتعبة .

– ما كنتُ تتوقع مني أن أبدو في أحسن حال بعد تسعة أيام على الطريق .

– وأنت تبدين هشّة وبيضاء وتعبة الآن ، وتعيسة الى درجة اليأس أيضاً، إنْ سمحتِ لي في أن أقول هذا .

احمر وجه كيتي ، فهي لم تتمالك نفسها من أن تحمر على ذلك النحو، لكنها كانت قادرة على أن تطلق ضحكة بدت مرحة الى حد ما .

– أنا آسفة لإنكَ لا تحب محياي . إنّ السبب الوحيد لظهوري بمظهر التعيسة هو أنني كنتُ على وعي منذ كنتُ في الثانية عشرة من عمري بأن أنفي طويل قليلاً . لكنّ غَرْس حزن خفي هو أكثر المظاهر تأثيراً في النفوس ، أنتَ لا تتصوّر كم بلغ عدد الشباب اللطفاء الذين أرادوا مواساتي .

استقرّت عينا وادينجتون الزرقاوان اللامعتان عليها ، فعرفت أنه لم يصدّق كلمة مما قالته . ولم تكن لتبالي في ذلك طالما ظل يتظاهر بأنه صدقها .

– إنني أعرف بأنكِ لم تتزوجي منذ وقت طويل ، لكنني توصلتُ الى استنتاج في أنك وزوجك متحابان حباً جنونياً . لم أصدّق بأنه طلب منك أن تحضري ، بل أنتِ التي ربما رفضتِ رفضاً قاطعاً أن تتخلفي عنه .

قالت بخفة :

Amly نهضة العرب

– ذلك تفسير معقول جداً .
– نعم ، لكنه ليس التفسير الصحيح .
انتظرتْ أن يتابع القول ، وهي تخشى ما كان على وشك أن يقوله ، فهي على معرفة تامة بخبثه كما كانت واعية بأنه لا يتردد أبداً في التعبير عما في ذهنه ، لكنها لم تكن قادرة على مقاومة رغبتها في أن تسمعه يتحدّث عنها .
– لا أظن للحظة واحدة أنكِ تحبين زوجك . أظن أنكِ لا تميلين اليه ، ولن أندهش إنْ كنتِ تكرهينه . لكنني متأكد من أنك تخافينه .
وأشاحت بوجهها لحظةً . لم تكن تود أن تدع وادينجتون يرى بأن أياً مما قاله أقر عليها .
فقالت بسخرية باردة :
– يساورني شكٌ بأنكَ لا تحب زوجي كثيراً .
– إنني أحترمه . فقد أوتي العقل والشخصية ، وذلك تكوين غير عادي تماماً إنْ أمكنني أن أقول هذا لكِ . لا أظن أنك تعرفين ما يفعله هنا ، فهو لا يتوسّع بالحديث معكِ عن نفسه كما أرى . فإن كان بوسع أي رجل أن يضع حداً لهذا الوباء المخيف وحدة ، فهو سيضع حداً له . إنه يطبب المرضى ، ويطهّر المدينة ، محاولاً تنقية ماء الشرب . إنه لا يبالي الى أين يذهب ولا ما يفعله . إنه يخاطر بحياته عشرين مرة في اليوم . لقد وضع العقيد يو في جيبه ، وأقنعه في أن يضع الجنود تحت تصرفه . وقد بثّ قليلاً من الشجاعة حتى في نفس الحاكم ، حتى أن العجوز يحاول حقاً في أن يقوم بأي شيء . والراهبات في الدير يحلفن به . إنهن يرين بأنه بطل .
– ألا تراه أنتَ كذلك ؟
– بعد كل هذا ، إنها ليست مهنته ، أليس كذلك ؟ إنه عالم باكتيريا ، ولم توجه اليه دعوة للحضور الى هنا . وهو لا يثير فيّ إنطباعاً بأنه انتقل الى هنا شفقة على هؤلاء الصينيين الذين يموتون . كان واطسون مختلفاً

Amly نهضة العرب

عنه . فقد كان يحب الجنس البشري . وبالرغم من أنه كان مبشّراً ، إلاّ أنه لم يكن يفرّق بين مسيحي أو بوذي أو كونفوشيي ، فقد كانوا كلهم مجرّد مخلوقات بشرية . لكن زوجك لم يحضر الى هنا لإنه يهتم أدنى إهتمام إنْ مات مائة ألف صيني من الكوليرا ، وهو لم يحضر الى هنا أيضاً شغفاً بالعلم . لماذا حضر الى هنا؟

– يحسن أن تسأله .

– يروق لي أن أراكما معاً . وأنا أتساءل أحياناً كيف تتصرفان حينما تكونان على انفراد . فحين أكون بينكما ، فأنتما تمثلان ، أنتِ وهو ، تمثلان تمثيلاً سيئاً وحق جورج . ما كان أي منكما سيحصل على ثلاثين شلناً في الإسبوع في فرقة تمثيل متجوّلة إنْ كان هذا أقصى ما تقدران عليه من تمثيل .

إبتسمت كيتي ، محافظة على مظهر الإستخفاف الذي كانت تعرف بأنه لا يخدع أحداً ، ثم قالت :

– أنا لا أعرف ما تعنيه .

– أنتِ امرأة جميلة جداً . من العجيب ألاّ ينظر اليك زوجك . فحين يتكلّم اليكِ فإن صوته يبدو كأنه ليس صوته بل صوت شخص آخر .

سألته كيتي في صوت منخفض جداً ، وأجش ، وقد ألقتْ عنها فجأة خفّتها :

– أتظن بأنه لا يحبني ؟

– لا أعرف . إنني لا أعرف إنْ كنتِ تثيرين في نفسه نفوراً يجعل بدنه يقشعر عند اقترابه منك أو إنْ كان يحترق من حب لن يسمح لنفسه في أن يظهره لسبب من الأسباب . لقد سألتُ نفسي إنْ كنتما قد حضرتما كلاكما الى هنا لتنتحرا .

ورأت كيتي النظرة الفزعة ثم النظرة المدققة اللتين ألقاهما وادينجتون عليهما حين وقع حادث السلطة .

قالت باستخفاف :

Amly نهضة العرب

- أظن أنك تضفي كبير أهمية على بضع ورقات من الخس .
ثم نهضت واقفة :
- هل سنعود الى البيت ؟ أنا متأكدة من أنك تريد كأس ويسكي وصودا .
- أنتِ لست بطلة على أية حال . أنتِ خائفة حتى الموت . هل أنتِ متأكدة من أنك لا تريدين الرحيل ؟
- وما هو شأنك بهذا ؟
- سأساعدك .
- هل ستسقط أمام نظرة الأسى الخفيّ في نفسي ؟ انظر الى جانبيّ وجهي وقل لي إنْ لم يكن أنفي طويلاً قليلاً.
حدّق فيها متأملاً ، وتلك النظرة الخبيثة الساخرة في عينيه اللامعتين ، لكنها نظرة يخالطها ظل ، كشجرة على حافة نهر سقط انعكاسها في الماء ، تعبير عطف فرديّ . فأثار هذا التعبير دموعاً فجائية في عينيّ كيتي .
- هل يجب أن تبقي هنا ؟
- نعم .
ومرا تحت الممر المقوّس زاهي الألوان وهبطا التل . وحينما وصلا الى المجمّع ، رأيا جثة المتسوّل الميت . أخذ يدها ، لكنها أفلتتها . ووقفت ساكنة .
- إنه رهيب ، أليس كذلك ؟
- ما هو ؟ الموت ؟
- نعم ، إنه يجعل كل شيء آخر يبدو تافهاً جداً . إنه لا يبدو إنساناً الأن . حين تنظر اليه ، يصعب أن تقنع نفسك بأنه كان على قيد الحياة في أي وقت من الأوقات . من العسير أن تفكّر في أنه كان منذ سنين عديدة جداً مجرّد صبي صغير يهبط التل جارياً ويطيّر طيارة ورقية .
ولم تستطع أن تغالب النشيج الذي خنقها .

Amly نهضة العرب

XXIX

بعد بضعة أيام ، وبينما كان وادينجتون جالساً مع كيتي وكأس ويسكي وصودا طويلة في يده ، أخذ يتكلّم اليها عن الدير . فقال :

– إن الأم الرئيسة امرأة رائعة . وتقول لي الأخوات الراهبات بأنها تنتمي الى واحدة من أعظم الأسر في فرنسا ، لكنهن يأبين أن يخبرنني أية أسرة هي ، فهن يقلن بأن الأم الرئيسة لا ترغب في الكلام عن هذا .

ابتسمت كيتي :

– لماذا لا تسألها إنْ كان هذا يهمك ؟

– لو كنتِ تعرفينها لأدركتِ أن من المستحيل أن تسأليها سؤالاً طائشاً .

– يقيناً أنها رائعة إنْ هي استطاعت أن تثير في نفسكَ الرهبة .

– إنني أحمل منها رسالة اليك . فقد طلبت مني أن أقول بأنها ستسّر سروراً عظيماً إنْ لم تمانعي في أن تريك الدير ، مع أنك قد لا ترغبين في أن تخاطري في الدخول الى مركز الوباء .

– إنه للطف زائد منها . ما خطر في بالي بأنها دارية بوجودي .

– لقد تكلّمتُ عنك ، فأنا أذهب الى هناك مرتين أو ثلاث مرات في الإسبوع الآن ، لأرى إنْ كان ثمة أي عمل أستطيع القيام به ، وأنا متأكد من أن زوجك قد أخبرهم عنك . ولا بد أن تهيئي نفسك لإن تكتشفي بأنهن يشعرن نحوك بإعجاب لا حد له .

– هل أنتَ كاثوليكي ؟

وتألّقت عيناه الخبيثتان وتغضّن وجهه الصغير الغريب بالضحك .

سألته كيتي :

– لماذا تبتسم لي ؟

– هل يمكن أن يخرج من الجليل شيء صالح ؟ لا ، أنا لستُ كاثوليكياً . إنني أصف نفسي كعضو من كنيسة إنجلترا ، وهي ، كما

Amly نهضة العرب

أظن ، طريقة مؤدبة للقول بأنكَ لا تؤمن في أي شيء كثيراً جداً ... حين حضرت الأم الرئيسة هنا قبل عشر سنوات مضت ، أحضرتْ معها سبع راهبات مُتْنَ كلهن ما عدا ثلاث فقط. أترين ، حتى في أفضل الأوقات ، لا تكون ماي - تان - فو ملجأ صحياً . إنهن يعشن في منتصف المدينة تماماً ، في أفقر منطقة ، وهن يشتغلن بجدٍ مضن ولا يتمتّعن بإجازة .

- لكن ، هناك ثلاث راهبات فقط والأم الرئيسة الآن ؟

- أوه ، لا ، فقد حلّت محلهن راهبات أخريات . هناك ست راهبات الآن . وحين ماتت واحدة في الكوليرا في بداية الوباء ، جاءت راهبتان أخريان من كانتون .

ارتعدت كيتي قليلاً :

- هل تحسّين بالبرد ؟

- لا ، إن شخصاً ما فقط يمشي فوق قبري .

- عندما يغادرن فرنسا ، فإنهن يغادرنها الى الأبد . إنهن لسن كالمبشرين البروتستانت الذين يحصلون على عطلة لمدة سنة من وقت الى آخر . وأنا أرى دائماً بأن ذلك أصعب ما في حياتهن . نحن الإنجليز لا نرتبط ارتباطاً قوياً جداً بالأرض ، فنحن نحس بأننا في وطننا في أي جزء من العالم ، لكنني أرى أن الفرنسيين يرتبطون ببلادهم برباط يكاد يكون مادياً . فهم لا يحسون بالراحة قط حينما يكونون خارجها. ويبدو لي دائماً أن من المؤثر جداً أن تقدم هاته النسوة على تلك التضحية . أظن أنني لو كنت كاثوليكياً لبدا لي الأمر طبيعياً جداً .

نظرت كيتي اليه ببرود . لم تفهم تماماً العاطفة التي يتكلّم بها الرجل الضئيل ، وقد سألت نفسها ما إذا كان هذا موقفاً مصطنعاً . فقد شرب الكثير من الويسكي وربما لم يكن صاحياً تماماً .

قال بإبتسامته المازحة وهويقرأ ما يدور في ذهنها بسرعة :

- تعاليّ وانظري بنفسك . إنه ليس خطراً جداً الى درجة خطورة أكل البندورة .

Amly نهضة العرب

- إنْ لم تكن أنت خائفاً ، فليس ثمة سبب يدعوني لإن أخاف .
- أظن أنها ستسلّيك . إنها قطعة صغيرة من فرنسا .

XL

عبرا النهر في قارب سامپان Sampan صينيّ . وكانت ثمة محفّة في انتظار كيتي عند خشبة الرسو ، فحُمِلَتْ صاعدة التل نحو بوابة الماء . ومن هذه البوابة كان الحمّالون الصينيون يحضرون لجلب الماء من النهر وهم يهرعون في غدو ورواح بدلائهم المتدلية من النير على أكتافهم ، ناثرين الماء على الممر فيتبلل تماماً كأن مطراً غزيراً هطل عليه . وصاح حمّالو كيتي صيحات قصيرة حادة على حمالي الماء حاثينهم على إخلاء الطريق .

قال وادينجتون ، وهو يسير الى جانبها :

- إن كل الأعمال متوقفة الآن طبعاً . لكن في الظروف العادية كان عليك أن تشقي طريقك بالقوة بين حمّالي الماء وهم يحملون حمولاتهم صعوداً وهبوطاً ، متجهين الى السفن الشراعية الصينية .

كان الشارع ضيّقاً ومتعرّجاً حتى أن كيتي فقدت الحس بكل اتجاه كانت تتجه اليه . كانت كثير من الدكاكين مغلقة . وكانت قد اعتادت، في رحلتها الصاعدة نحو الدير ، على قذارة الشارع الصيني ، لكن النفايات والقمامة هنا كانت قد انتشرت منذ أسابيع ، وكانت الرائحة الكريهة مريعة الى درجة أنها اضطرت الى أن تضع منديلها على وجهها . وخلال مرورها في المدن الصينية ، كانت تنزعج من تحديق الجمهور فيها ، لكنها لاحظت الآن بأنه لم تلق عليها أكثر من نظرات سريعة لامبالية . فقد بدا المارون ، المتناثرون بدلاً من تجمعهم كعادتهم ، منهمكين في شؤونهم الخاصة . فقد كانوا خائفين وقلقين . وسمعا ، بين الفينة والفينة وكلما مرّا بمنزل من المنازل ، قَرْعَ أجراس قرصية وصراخ

Amly نهضة العرب

نَدْب مكتوم لأدوات مجهولة . فخلف تلك الأبواب المغلقة كان يرقد ميّت .

قال وادينجتون أخيراً :

- ها نحن وصلنا .

وضعت المحفّة عند فتحة باب صغير ، يعلوه صليب في جدار أبيض طويل ، فنزلت كيتي من المحفّة . ورنّ الجرس .

- لا تتوقعي وجود أي شيء عظيم جداً ، كما تعرفين . فهن فقيرات على نحو بائس .

فتحت الباب فتاة صينية ، وبعد أن خاطبها وادينجتون بكلمة أو كلمتين ، قادتهما الى غرفة على جانب الممر الداخلي . احتوت الغرفة على طاولة كبيرة مغطاة بمشمّع ذي نقوش مربّعة وصفّتْ حول الجدران مجموعة من الكراسي الصلبة . وفي أحد أطراف الغرفة تمثال من الجبس للعذراء المباركة . ودخلت بعد لحظة راهبة قصيرة ومكتنزة ، لها وجه أنيس ووجنتان حمراوان وعينان مرحتان . ودعاها وادينجتون وهو يقدّم كيتي اليها بـ " الأخت القديس جوزيف " .

سألت وهي تشع حيوية .

- هذه زوجة الطبيب ؟ C'est la dame du docteur ?

ثم أضافت بأن الأم الرئيسة ستنضم اليهما على الفور .

لم يكن بوسع الأخت القديس جوزيف أن تتكلّم الإنجليزية ، وكانت فرنسية كيتي عرجاء ، لكن وادينجتون ، بلغته المنطلقة وغير الدقيقة ، واصل إطلاق تعليقه المرح الذي هزّ الراهبة المرحة وأطلق ضحكاتها . وأدهش ضحك الراهبة المنطلق كيتي . فقد كانت لديها فكرة أن المتديّنين صارمون دائماً ، فأثّر عليها هذا المرح العذب الطفولي .

Amly نهضة العرب

XLI

فُتح الباب بطريقة بدت لخيال كيتي غير طبيعية تماماً ، فقد فتح كأنه يتأرجح متراجعاً على مفصّلاته ، ودخلت الأم الرئيسة باب الحجرة وهي تنظر الى الأخت الضاحكة ووجه وادينجتون المتغضّن التهريجي . ثم تقدّمتْ ومدّتْ يدها لكيتي .

قالت بلغة إنجليزية مشوبة بلكنة واضحة جداً ، لكنها سليمة النطق ، ثم انحنت ظل انحناءة .

- السيدة فاين ؟ إنه لسرور عظيم لي أن أتعرّف على زوجة طبيبنا الطيّب الشجاع .

وأحسّت كيتي بأن عينيَ الأم الرئيسة شملتاها بنظرة تقييم طويلة غير مرتبكة . لقد كانت صريحة جداً الى حد لم يتجاوز التهذيب ، لتحس أن أمامك إمرأة مهمتها أن تكوّن فكرة عن الآخرين ، امرأة لم يحدث قط أن كانت ممارسة الخداع عليها ضرورية . وبحفاوة وقور ، أشارت الى زائريَهْا في أن يتخذا لهما كرسيَّيْن ثم جلست هي نفسها . ووقفت الأخت القديس جوزيف الى أحد الجوانب ، لكن الى الخلف قليلاً من الأم الرئيسة ، وهي لا تزال تبتسم ، وإنْ ظلّت صامتة .

قالت الأم الرئيسة :

- إنني أعرف أنكم تحبون الشاي أنتم الإنجليز ، ولقد طلبتُ بعضاً منه . لكنني لا بد أن أقدّم إعتذاراتي إنْ قُدِّمَ على الطريقة الصينية . إنني أعرف بأن السيد وادينجتون يفضّل الويسكي ، لكنني أخشى ألاّ أستطيع تقديمه اليه .

ابتسمت وارتسمت في عينيها الجادتين لمحة من مكر .

- أوه ، هيا يا أمي ma mére ، إنك تتكلمين كما لو كنتُ سكيراً مدمناً .

- ليتك تستطيع القول بأنك لا تشرب أبداً يا سيد ،ادينجتون .

Amly نهضة العرب

– يمكنني أن أقول ، في جميع الأحوال ، أنني لم أشرب إلاّ الى حد الإفراط .

ضحكت الأم الرئيسة وترجمت للأخت القديس جوزيف الملاحظة الوقحة الى اللغة الفرنسية . فنظرت اليه بعينين متكاسلتَيْن ودودتَيْن .

– لا بد أن نلتمس الأعذار للسيد وادينجتون لإنه خفّ الى إنقاذنا مرتين أو ثلاث مرات حين لم يكن لدينا مال إطلاقاً ولم نكن نعرف كيف كنا سنطعم أيتامنا .

دخلت الفتاة الصينية التي فتحت لهما الباب ، ومعها صينية عليها أكواب من الخزف الصينيّ وإبريق شاي وطبق عليه كعك فرنسي يدعى مادلين Madeleines .

قالت الأم الرئيسة :

– لا بد أن تأكلا الـ " مادلين " ، لإن الأخت القديس جوزيف صنعته بنفسها خصيّصاً لكما هذا الصباح .

وتبادلوا الحديث حول أمور عادية عامة . وسألتْ الأم الرئيسة كيتي عن المدة التي قضتها في الصين وعما إذا كانت الرحلة من هونج كونج قد أتعبتها تعباً شديداً . وسألتها إنْ كانت زارت فرنسا وإنْ لم تكن قد وجدت مناخ هونج كونج مرهقاً . كان حديثاً تافهاً ، لكنه ودي ، اكتسب نكهة خاصة من الظروف المحيطة به . كانت الردهة هادئة جداً، حتى أنك ما كنتَ لتصدّق إلاّ بصعوبة أنك كنتَ في وسط مدينة مزدحمة بالسكان . فالسلام يقيم هناك . ومع ذلك ، كان الوباء يعربد في كل مكان ، بينما كبحت جماحَ الناس ، المرتعبين والقلقين ، الإرادةُ القوية لجندي كان أكثر من نصف قاطع طريق . وكانت المصحة داخل جدران الدير مزدحمة بجنود مرضى ومحتضرين ، بينما مات ربع الأيتام الذين كانوا تحت رعاية الراهبات .

ولاحظت كيتي ، وقد تأثرت على نحو لم تكد تدري سببه ، وقارَ السيدة التي طرحت عليها هذه الأسئلة الودية . كانت في رداء أبيض ،

Amly نهضة العرب

وكان اللون الوحيد على ردائها الكهنوتي هو القلب الأحمر الذي يشتعل على صدرها . كانت امرأة في منتصف العمر ، فقد تكون في الأربعين أو الخمسين ، ولم يكن من الممكن تحديد سنها بالضبط ، فلم يكن على وجهها الناعم الشاحب سوى بعض التغضنات ، ولكن إنطباعاً يثار في نفسك بأنها تجاوزت سن الشباب بمدة طويلة ، وذلك بالحكم على وقار مظهرها ورصانتها ومن هزال يديها القويتين الجميلتين . كان وجهها طويلاً ، بفم كبير وواسع ، وأسنان منتظمة ، وكان أنفها دقيقاً وحسّاساً بالرغم من أنه لم يكن صغيراً ، لكن العينين ، تحت حاجبيها الرفيعين السوداوين ، هما اللتان أضفيتا على وجهها طابعه المتوتر المأساوي . لقد كانتا كبيرتين جداً وسوداوين ، مع أنهما لم تكونا باردتين بالضبط، إلاّ أن ثباتهما الهادىء كان يكسبهما قوة تسلّط غريبة . وأول ما يتبادر الى ذهنك من تفكير حين تنظر الى الأم الرئيسة هو أن لا بد أنها كانت جميلة حين كانت فتاة ، لكن ، سرعان ما تدرك بأن هذه إمرأة نما جمالها المعتمد على قوة شخصيتها ، مع مرور السنين . وكان صوتها عميقاً وخافتاً ومتحكّمة به ، وهي تتكلّم بتؤدة إنْ كانت تتكلّم بالفرنسية أو الإنجليزية . لكن أكثر ما يثيرك فيها هو روح السيطرة الذي تلطّفه روح التسامح المسيحية ، فأنت تشعر فيها عادة إلقاء الأوامر . وإطاعتها كانت أمراً طبيعياً بالنسبة اليها ، لكنها كانت تتقبّل الطاعة بتواضع . ولم يكن يفوتك أن ترى بأنها على وعي عميق بسلطة الكنيسة التي تضمها بين جوانحها . لكن كيتي حدست بأنها تواجه الضعف البشري بتسامح بشري، بالرغم من سلوكها المتزمّت حيال هذا الضعف البشري ، وكان من المستحيل أن تنظر الى ابتسامتها الوقور وهي تصغي الى هُراء وادينجتون الجريء الثرثار، دون أن تتأكد من أن لديها إحساساً حيّاً بالفكاهة .

لكن ، كانت فيها خلة أخرى أحسّت بها كيتي على نحو غامض ، خلة لم تستطع إطلاق إسم عليها . كانت خلة جعلت كيتي تحسّ بأنها

Amly نهضة العرب

على مسافة بعيدة منها ، بالرغم من السلوك القلبيّ والرقيق الذي جعل كيتي تحس أمامها كأنها تلميذة مدرسة مرتبكة .

XLII

قالت الأخت القديس جوزيف :

– المسيو لا يأكل شيئاً Monsieur ne mang rien .

فردت الأم الرئيسة :

– لقد أفسد طبخ مانشو شهيةَ المسيو .

ففارقت الإبتسامة وجه الأخت القديس جوزيف ورَسَمَتْ عليه تعبيرَ تَزَمُّت . أخذ وادينجتون ، وقد ارتسمت في عينيه نظرة خبيثة ، كعكةً أخرى . ولم تفهم كيتي مغزى الحديث .

– ولأبرهن لك مدى ظلمك يا أماه ma mére ، فإنني سأفسد العشاء الممتاز الذي ينتظرني .

– إنْ ودتْ مسز فاين أن تتفرّج على الدير ، فإنه سيكون من دواعي سروري أن أريها إياه !

والتفتتْ الأم الرئيسة الى كيتي وقد ارتسمت على وجهها إبتسامة مستنكرة :

– أنا آسفة لإنك سترينه الآن وكل شيء في حالة فوضى . فلدينا الكثير من العمل وعدد غير كاف من الأخوات للقيام به . وقد ألحّ العقيد يو على وضع مصحتنا تحت تصرّف الجنود المرضى ، كما اضطررنا الى أن نحوّل قاعة الطعام réfectoire الى مصحة لأيتامنا .

وقفتْ عند الباب لتسمح لكيتي في أن تمر ، فسارت ، متبوعة بالأخت القديس جوزيف ووادينجتون ،على طول الممرات الباردة البيضاء . دخلوا أولاً غرفةً كبيرة عارية حيث كان عدد من الفتيات الصينيات يقمن بأعمال التطريز الدقيقة . نهضن ووقفن حين دخل الزائرون وأرت

Amly نهضة العرب

الرئيسة كيتي عيّنات من العمل .

- نحن نتابع هذا العمل بالرغم من الوباء ، فهو يشغل بالهن عن الخطر .

ذهبوا الى غرفة ثانية حيث تعمل فتيات أصغر سناً بالخياطة البسيطة، خياطة الحواشي والدرز ، ثم الى غرفة ثالثة حيث يوجد أطفال صغار دقيقو الجسم فقط تحت إشراف إمرأة صينية إعتنقت المسيحية . كانوا يلعبون مثيرين ضجة ، وحين دخلت الأم الرئيسة ، تزاحموا حولها ، مخلوقات في الثانية والثالثة ، بعيونهم الصينية السوداء وشعرهم الأسود ، فأمسكوا بيدها وأخفوا أنفسهم تحت تنورتها الكبيرة . فأدارت إبتسامة فاترة وجهها الوقور ، وداعبتهم ، ورددت كلمات مازحة فهمت كيتي ، بالرغم من جهلها باللغة الصينية ، بأنها كانت كمداعبات . ارتعدتْ قليلاً ، فقد بدوا لها ، بزيّهم الموحّد وأجسامهم النحيلة والقزمية وبأنوفهم المنبسطة ، كأنهم لا يكادون يكونون بشراً . كانوا منفرين . لكن الأم الرئيسة وقفت بينهم كالإحسان نفسه متجسداً . وحين رغبت في أن تغادر الغرفة ، لم يدعوها تخرج ، بل تعلّقوا بها حتى أنها اضطرت ، بتعنيف مبتسم ، أن تستعمل قوة مترفقة لتخليص نفسها . فلم يكونوا ، علي أية حال من الأحوال ، يجدون أي شيء يدعوهم للخوف من هذه السيدة العظيمة .

قالت ، وهم يسيرون في ممر داخلي آخر :

- أنتِ تعرفين بأنهم ليسوا سوى يتامى طبعاً ، بمعنى أن آباءهم رغبوا في التخلّص منهم . ونحن نعطيهم بعض المال عن كل طفل يحضرونه الى هنا ، وإلاّ ما كانوا تجشّموا عناء إحضارهم ، بل لتخلصوا منهم فقط .

والتفتت الى الأخت ، وسألتها :

- هل حضر أي شخص اليوم ؟

- أربعة .

- إنهم الآن ، ومع الكوليرا ، متلهفون أكثر من أي وقت آخر في ألاّ يتحمّلوا عبء بنات لا فائدة منهن .

Amly نهضة العرب

وأرت كيتي المهاجع ثم مروا بباب كتب عليه بالطلاء كلمة " infir-merie " مصحة . سمعت كيتي أنّات وصرخات عالية وأصوات كانت تتألم بالرغم من أنها بدت كأنها ليست آدمية .

قالت الأم الرئيسة بلهجتها الهادئة :

– لن أريك المصحة . هي ليست منظراً يرغب الإنسان في أن يراه .

وخطرت في بالها فكرة :

– إنني أتساءل إنْ كان دكتور فاين هنا ؟

نظرت الى الأخت مستفسرة ، ففتحت الأخت الباب وهي تبتسم إبتسامتها المرحة ، وتسللت من خلاله . انكمشت كيتي مرتدة عندما سمح لها الباب المفتوح في أن تسمع الضجة الداخلية على نحو أكثر إثارة للرعب . عادت الأخت القديس جوزيف :

– لا ، لقد كان هنا ، لكنه لن يعود إلاّ في وقت متأخر .

– ماذا عن رقم ٦ ؟

– الفتى المسكين pauvre garson ، لقد مات .

صلبّت الأم الرئيسة وتحركت شفتاها في صلاة قصيرة وصامتة .

مروا بفناء فوقعت عينا كيتي على شكلَيْن طويلَيْن يتمددان جنباً الى جنب على الأرض وقد غطيا بقطعة قماش قطن أزرق . التفتت الأم الرئيسة الى وادينجتون .

– تنقصنا الأسرّة كثيراً الى حد يضطرنا أن نضع مريضَيْن في سرير واحد ، وحالما يموت مريض فلا بد أن يُلف ويُخرج لكي نفسح مكاناً لمريض آخر .

لكنها رشقت كيتي بابتسامة :

– سنريك الآن كنيستنا . فنحن فخورون جداً بها . وقد أرسل الينا أحد أصدقائنا في فرنسا منذ فترة قصيرة تمثال العذراء المباركة بالحجم الطبيعي .

Amly نهضة العرب

XLIII

لم تكن الكنيسة أكثر من غرفة طويلة منخفضة السقف بجدران بيضاء الطلاء وصفوف من مقاعد مصنوعة من ألواح خشب الصنوبر ، وفي نهاية الكنيسة كان المذبح الذي ينتصب عليه التمثال ، وكان من جبس باريس مطلياً بألوان فجّة ، وكان زاهياً جداً وجديداً ومبهرجاً . وخلفه كانت صورة صلب المسيح بالألوان الزيتية وقد ظهرت عند قاعدة الصليب المريمان : مريم العذراء ومريم المجدلية ، حزينتين حزناً بالغاً . كان الرسم سيئاً وقد لوّنَتْ اللوحةَ بألوان داكنة عينٌ لا تعرف شيئاً عن جمال الألوان . ورسمت على الجدران مراحلَ الصلب نفسُ اليد غير المحظوظة . لقد كانت الكنيسة بشعة ومبتذلة .

ركعت الراهبات بعد أن دخلتا الكنيسة لترددا صلاة ، ثم نهضتا واقفتَيْن ، ثم أخذت الأم الرئيسة بالحديث ثانية الى كيتي :

- كل ما يمكن أن ينكسر فإنه ينكسر حين يصل الى هنا ، لكن التمثال الذي قدّمه الينا مُحسننا وصل الى هنا من باريس دون أن يصاب بأصغر شق . ليس ثمة شك في أن ذلك معجزة .

وتألّقت عينا واد ينجتون الخبيثتان ، لكنه أمسك لسانه .

- لقد رسمتْ نقش المذبح ومراحل الصلب واحدةٌ من أخواتنا ، الأخت القديس آنسيلم Anselme .

ثم صلّبت الأم الرئيسة :

- لقد كانت فنّانة حقيقية . لكنها راحت ضحية الوباء لسوء الحظ . ألا ترَيْ بأنها جميلة جداً ؟

ورددت كيتي متلعثمة بالإيجاب . وكانت على المذبح باقات من أزهار ورقية وكانت الشمعدانات مزخرفة على نحو مذهل .

- إننا نحظى بشرف الإحتفاظ هنا بالقربان المقدّس .

قالت كيتي ، دون أن تفهم قصدها :

Amly نهضة العرب

- نعم ؟
- لقد كان مبعث عزاء لنا خلال هذا الوقت من المتاعب الرهيبة .
غادروا الكنيسة عائدين أدراجهم الى الردهة التي جلسوا فيها في البداية .
- أتودين أن تريّ الأطفال الرضّع الذين وفدوا في هذا الصباح قبل أن تغادري الدير ؟
قالت كيتي :
- أود كثيراً .
قادتهم الأم الرئيسة الى داخل غرفة صغيرة جداً على الجانب الآخر من الممر الداخلي . وكانت على طاولة وتحت قطعة قماش حزمة تتلوى. سحبت الأخت قطعة القماش وكشفت عن أربعة أطفال صغار جداً وعراة. كان لونهم أحمر قانياً ويقومون بحركات متململة مضحكة بأذرعهم وأرجلهم ، وكانت وجوههم الصينية الصغيرة الغريبة تعبس في تقطيبة غريبة . كانوا لا يكادون يبدون بشراً ، بل حيوانات غريبة لأنواع مجهولة ، لكنه كان في منظرهم شيء مؤثّر جداً . نظرت الأم الرئيسة اليهم بابتسامة مبتهجة .
- يبدون مليئين بالحياة جداً . إنهم يأتون أحياناً وهم على وشك الموت. ونحن نعمّدهم طبعاً في لحظة مجيئهم .
قالت الأخت القديس جوزيف :
- سيسر زوج السيدة بهم . أظن أنه يلعب مع الأطفال لساعات . وحين يصرخون ، فإنه ما أن يرفعهم ويريحهم على انحناء ذراعه حتى يضحكوا مسرورين .
ثم وجدت كيتي ووادينجتون نفسيهما عند الباب . فشكرت كيتي الأم الرئيسة على ما تجشمته من عناء . فانحنت الأم الرئيسة بانحناء يوحي بالجلال والود .
- لقد كان من دواعي سروري العظيم . أنتِ لا تعرفين مدى اللطف

Amly نهضة العرب

والعون الذي يقدّمه زوجك لنا . لقد أرسَلَتْه السماء الينا . أنا مسرورة لإنكِ حضرتِ معه . فحين يعود الى البيت ، فلا بد أن يكون مبعثَ راحة عظيمة وجودُك هناك بحبك و - ووجهك الجميل . يجب أن تعتني به ولا تدعيه يجهد نفسه بالعمل . يجب أن تعتني به من أجلنا كلنا .

احمر وجه كيتي . لم تعرف ما يجب أن تقول . فمدّت الأم الرئيسة يدها ، وفيما كانت كيتي تمسك بهذه اليد ، أحست بتينك العينين الباردتين المتأملتَيْن اللتين استقرتا عليها بتجرّد ، وإنْ كان فيهما ما يشبه تفهماً عميقاً .

أغلقت الأخت القديس جوزيف الباب خلفهما ، وركبت كيتي محفتها . عادا راجعَيْن خلال الشوارع الضيّقة المتعرّجة . أبدى وادينجتون ملاحظة عرضية : ولم تجب كيتي . التفت حوله ، لكن الستائر الجانبية للمحفة كانت مسدلة فلم يستطع أن يراها . وتابع السير صامتاً . لكن ، وحين وصلا الى النهر ونزلت من المحفّة ، رأى لدهشته أن عينيها كانتا تفيضان بالدموع .

سأل ، وقد تغضّن وجهه في تعبير يوحي بالفزع :

- ما الأمر ؟

حاولت أن تبتسم :

- لا شيء . مجرّد بلاهة .

XLIV

حاولت كيتي أن ترتّب مشاعرها وقد استقرت وحيدة ، مرة ثانية ، في البهو القذر لكوخ المبشّر الميت ، وهي ممددة على الكرسي الطويل المواجه للنافذة ، وقد أرسلت عينيها الشاردتين الى المعبد الواقع في ضفة النهر الأخرى (الذي أصبح الآن مع اقتراب المساء ثانية أثيرياً وجميلاً) . ما كانت ستصدّق قط أن هذه الزيارة للدير كانت ستؤثر فيها الى هذا

Amly نهضة العرب

الحد . لقد ذهبتُ الى الدير بدافع الفضول . فلم يكن لديها من شيء آخر تفعله وكانت راغبة ، بعد أن نظرت الى المدينة المسوّرة عبر الماء طيلة تلك الأيام الماضية ، في أن تلقي على الأقل نظرة سريعة على شوراعها الغامضة .

لكن ، حالما دخلت الدير ، بدا لها أنها انتقلت الى عالم آخر لا يُحدّده مكان ولا زمان على نحو غريب : فبدت تلك الغرف العارية والممرات البيضاء ، العارية والبسيطة ، تحوي روح شيء بعيدة وغامضة . وكان المعبد الصغير ، ببشاعته وابتذاله على ذلك النحو وفظاظته البالغة ، مثيراً للشجون ، ففيه شيء تفتقر اليه عظمة كاتدارائية بزجاجها الملوّن وصورها : كان معبداً متواضعاً جداً وقد أضفى عليه الإيمان الذي زيّنه والحنان الذي رعاه جمالَ روحٍ رقيق . وأظهرت الطريقة المنهجية التي يَجري حسبها عمل الدير في وسط الوباء رباطةَ جأش في وجه الخطر ، وأدراك عمليّ عميق التأثير في النفس يكاد يكون ساخراً في الحقيقة . وظلّت ترن في أذنيّ كيتي الأصوات المروّعة التي سمعتها حين فتحت الأخت القديس جوزيف باب المصحة للحظة .

كانت الطريقة التي تكلمتا بها عن وولتر غير متوقعة . فأولاً ، تكلّمت الأخت ثم الأم الرئيسة نفسها ، وكانت نغمة صوتها لطيفة جداً حين مدحته . ومن الغريب أنها أحسّت بشيء من الزهو إذ عرفت مدى حسن تقديرهما له . لقد أخبرها واداينجتون أيضاً بشيء عما يفعله وولتر ، لكن الراهبتين لم تطريا كفاءته فقط (لقد عرفت في هونج كونج بأنه يعتبر ذكياً) ، بل تكلمتا عن عمق تفكيره ورقته . إنه يمكنه أن يكون رقيقاً جداً طبعاً . لقد كان في أحسن أحواله حين تكون مريضة ، فهو أذكى من أن يغضب ويثور ، ولمستُه تدخل السرور الى النفس ، باردة ومسرّية . فهو يبدو قادراً بسحر ساحر وبمجرّد وجوده ، على أن يريحك من معاناتك . كانت تعرف بأنها لن ترى ثانية نظرة الحنان في عينيه ، النظرة التي ألفتها في السابق كثيراً حتى أصبحت تجدها مجرّد

Amly نهضة العرب

مثيرة لغيظها . إنها تعرف الآن مدى اتساع قدرته على الحب ، فقد أصبح يصبّها بطريقة غريبة على هؤلاء المرضى التعساء الذين ليس لديهم من أحد سواه ليعتني بهم . لم تشعر بالغيرة، بل أحسّت بشعور من الخواء ، فبدا لها كأن دعماً كانت قد اعتادت على أن تعتمد عليه دون أن تدرك وجوده قد سُحب فجأة منها حتى أنها تمايلت مترنحة في هذا الإتجاه وذاك كشيء ثقيل الرأس .

لم تعد تحس إلاّ بإحتقار نفسها لإنها أحست بإحتقار وولتر في أحد الأيام . لا بد أنه كان يعرف كيف كانت تنظر اليه ، لكنه تقبّل تقديرها له بلا مرارة . لقد كانت بلهاء ، وكان يعرف هذا ، ولم يكن هذا يشكّل فرقاً بالنسبة اليه لإنه كان يحبها . إنها لا تكرهه الآن ، ولا تحس نحوه بالبغضاء ، بل بالخوف والحيرة الى حد ما . لم تكن تستطيع سوى الإقرار بتمتعه بصفات مدهشة ، وقد فكّرت أحياناً بأن فيه عظمة غريبة وغير جذّابة ، وكان من العجيب ألا تستطيع أن تحبه حينذاك ، بل تحب ولا تزال تحب رجلاً كانت تفاهته واضحة جداً لها . وبعد التفكير ، والتفكير خلال تلك الأيام الطويلة ، حدّدتْ قيمة تشارلي تحديداً دقيقاً ، فكان شخصاً عادياً وكانت صفاته من الدرجة الثانية . لو أنها تستطيع فقط أن تنزع من قلبها الحب الذي لا يزال يستقر هناك ! حاولت ألاّ تفكّر فيه .

إنّ وادينجتون يقدّر وولتر عظيم التقدير . هي وحدها العمياء عن صفاته الحسنة . لماذا ؟ لإنه أحبها ولم تحبه . ما الشيء الذي في قلب الإنسان الذي يجعلك تحتقر رجلاً لإنه يحبك ؟ لكن وادينجتون اعترف بأنه لم يحب وولتر . الرجال لا يحبونه . من السهل أن ترى أن لدى تينك الراهبتين شعوراً قريباً جداً من الحنو الشديد . إنه مختلف مع النساء ، ورغم خجله إلاّ أنك تحس فيه رقة متناهية .

Amly نهضة العرب

XLV

لكن الراهبات هن اللواتي كنّ قد أثّرن عليها تأثيراً عميقاً بعد كل هذا. وكانت الأخت القديس جوزيف ، بوجهها المرح ووجنتيها المتوردتين كالتفاح ، واحدة من المجموعة الصغيرة التي جاءت الى الصين مع الأم الرئيسة قبل عشر سنوات ورأت زميلاتها تموت واحدة إثر الأخرى من المرض والحرمان والحنين الى الوطن ، لكنها ظلّت مرحة وسعيدة . ما الذي يبثّ فيها ذلك المزاج الساذج والساحر ؟ والأم الرئيسة . وقفت كيتي، في خيالها ، أمامها ثانية فأحسّت بالضآلة والخجل مرة أخرى . فمع أنها كانت بسيطة وغير متصنّعة ، إلاّ أنها كانت تتمتّع بجلال يوحي بالرهبة ، ولا يمكنك أن تتخيّل أي إنسان يمكنه أن يعاملها بغير احترام . فقد أظهرت الأخت القديس جوزيف من طريقة وقفتها وبكل إشارة أو لهجة إجاباتها ، أظهرت خضوعاً عميقاً تكنّه لها في أعماق نفسها ، كما أظهر وادينجتون المستهتر والوقح وبلهجته بأنه لم يكن مرتاحاً أمامها . رأت كيتي أن من غير الضروري أن يعلموها بأن الأم الرئيسة تنتمي الى إحدى الأسر الفرنسية العظيمة ، فقد كان في هيئتها ما يوحي بعراقة محتدها ، وكانت تتمتّع بنفوذ إنسانة لم تعرف قط أن ثمة إمكانية لعصيانها . وكانت لها كياسة سيدة عظيمة وتواضع قديسة . وكان في وجهها القوي والجميل والمهدّم صرامة كانت عاطفية ، كما كانت تتمتع بدعة ولطف جعلا أولئك الأطفال الصغار يتجمعون حولها مطلقين ضجة دون أن يتملكهم أي خوف، ليعيشوا في طمأنينة حنانها العميق . وحين نظرت الى الأطفال الرضّع الأربعة حديثي الولادة ، كست وجهها إبتسامة عذبة وعميقة في نفس الوقت ؛ كانت كشعاع الشمس على أرض بور مهجورة . وما قالته الأخت القديس جوزيف بلامبلاة عن وولتر أثّر بكيتي تأثيراً غريباً، فهي تعرف بأنه أراد منها في رغبة مستيئسة أن تحمل بطفل ، لكنها لم

Amly نهضة العرب

يساورها أدنى شك بأنه قادر على أن يظهر لطفاً ساحراً ومداعباً نحو طفل رضيع دون أن يبدو عليه الإرتباك وذلك لصمته وتجهمه . وأغلب الرجال سخفاء وخَرِقين مع الأطفال الرضّع . يا لغرابة سلوكه في الدير !

لكن ، الى جانب كل تلك التجارب المؤثّرة ، كان ثمة ظل (خط داكن على أطراف سحابة فضية) ، ملحّ وواضح أزعجها . ففي مرح الأخت القديس جوزيف الرزين وأكثر من هذا كثيراً ، في حفاوة الأم الرئيسية الباهرة ، ، أحسّت بترقّع ضايقها . لقد كانتا ودودتَيْن ومرحبتَيْن ترحيباً قلبياً بها ، وفي نفس الوقت ، كانتا تمسكان عنها شيئاً ، لم تدر كنهه ، حتى أنها أحسّت بأنها لم تكن سوى غريبة عابرة. كان بينها وبينهما ثمة حاجز . فهما تتكلمان بلغة مختلفة ، لا لغة اللسان فقط ، بل لغة القلب . وحين أغلق الباب عليها ، شعرتْ بأنهما وضعتاها خارج ذهنيهما تماماً ، عائدتَيْن الى عملهما المهمل ثانية بلا تأخير ، أي أنها قد تكون بالنسبة اليهما غير موجودة إطلاقاً . وأحسّت بأنها لم تُقْصَ فقط عن ذلك الدير الصغير ، بل عن حديقة الروح الغامضة التي تهفو اليها بجماع نفسها . وأحسّت فجأة بأنها وحيدة كما لم تشعر من قبل . ذلك كان السبب الذي جعلها تبكي .

وتنهدت الآن ، وهي تطرح رأسها الى الخلف في إعياء :

– أوه ، أنا عديمة القيمة .

XLVI

وفي ذلك المساء ، عاد وولتر الى كوخ البنجالو في وقت أبكر من العادة قليلاً . كانت كيتي تستلقي على الكرسي الطويل عند النافذة المفتوحة . وكان الوقت معتماً الى حد ما .

سأل :

– ألا تريدين مصباحاً ؟

Amly نهضة العرب

- سيحضرونه حين يعد العشاء .

كان يتحدّث اليها دائماً حديثاً عابراً تماماً وعن أمور تافهة ، كأنهما كانا شخصَيْن متعارفَيْن ولم يكن في سلوكه أي شيء يوحي بأنه يكنّ لها حقداً في قلبه . ولم يقابل عينيها قط كما لم يبتسم لها إطلاقاً . لقد كان مؤدباً جداً .

سألته :

- وولتر ، ما الذي تقترح أن نفعله إنْ نحن اجتزنا الوباء بسلام ؟

انتظر لحظة قبل أن يجيب . لم تستطع أن ترى وجهه .

- لم أفكّر .

في الأيام الخوالي ، كانت تردد بلا اكتراث ما يخطر في بالها ، فلم يخطر في بالها قط أن تفكّر قبل أن تتكلّم ، لكنها خائفة منه الآن ، فأحسّت بشفتيها ترتعشان وقلبها يخفق بألم .

- لقد ذهبتُ الى الدير بعد ظهر اليوم .

- سمعتُ بهذا .

أجبرتْ نفسها على أن تتكلم بالرغم من أنها لم تكن تكاد تستطيع أن تصيغ كلماتها .

- أكنتَ تريدني أن أموت حقاً حين أحضرتني الى هنا ؟

- لو كنتُ في مكانك لتركت الموضوع يا كيتي . فلستُ أرى أي خير من الكلام عن موضوع يجب أن يكون من المستحسن جداً لنا أن ننساه .

- لكنك لن تنسى ، ولا أنا . ظللت أفكّر كثيراً جداً منذ أن جئتُ الى هنا . ألن تصغي الى ما يجب أن أقوله ؟

- بالتأكيد .

- لقد عاملتكَ معاملة سيئة جداً ، لقد كنتُ غير مخلصة لك .

وقف ساكناً تماماً . كان جموده مرعباً على نحو غريب .

- لا أعرف إنْ كنتَ ستفهم ما أعنيه . إن ذلك النوع من الأمور لن

Amly نهضة العرب

يعني شيئاً كثيراً جداً لأمرأة حين ينتهي. وأنا أظن أن النساء لا يفهمن تماماً قط الموقف الذي يتخذه الرجال .

وتكلّمتْ فجأة بصوت كان من العسير أن تعرف فيه صوتها العادي :

– أنتَ تعرف مَنْ كان تشارلي وأنتَ تعرف ما كان سيفعله . حسناً ، لقد كنتَ على حق تماماً . إنه مخلوق تافه ، أظن أنه ما كان عليّ أن أخدع لو لم أكن أنا تافهة مثله . أنا لا أطلب منك أن تصفح عني . وأنا لا أطلب منك أن تحبني كما اعتدتَ أن تحبني . لكن ، ألا نستطيع أن نكون صديقَيْن ؟ مع كل هؤلاء الذين يموتون بالآلاف حولنا ، ومع تلك الراهبات في ديرهن ...

قاطعها :

– وما هو شأنهن بهذا ؟

– لا أستطيع أن أوضّح تماماً . لقد سيطر عليّ شعور غريب حين ذهبتُ الى هناك اليوم . يبدو أن كل هذا يعني الكثير لي . فكل هذا رهيب وتضحياتهن مدهشة ، فأنا لا أملك إلاّ أن أشعر أن من السخف والخجل ، إنْ أنتَ فهمتَ ما أعني ، أن تضايق نفسك بسبب أن إمرأة بلهاء كانت غير وفيّة لك . أنا أتفه وأقل قيمة بكثير من أن تفكّر فيّ .

لم يجب ، لكنه لم يبتعد أيضاً ، فقد بدا أنه ينتظر أن تواصل الكلام .

– لقد أخبرني السيد وادينجتون والراهبات بأعمال مدهشة عنك . إنني فخورة بك جداً يا وولتر .

– لم تعتادي على أن تكوني كذلك ، كنتِ تشعرين بالإحتقار نحوي . ألا زلتِ تشعرين بهذا ؟

– ألا تعرف بأنني خائفة منك ؟

ولاذ بالصمت ثانية . ثم قال أخيراً :

– أنا لا أفهمك . وأنا لا أعرف ما الذي تريدينه .

– لا شيء لنفسي . إنني أريدك فقط أن تكون أقل تعاسة .

Amly نهضة العرب

أحسّت به يتصلّب ، وكان صوته بارداً جداً حين أجاب .
– أنتِ مخطئة في التفكير بأني تعيس . فلديّ الكثير جداً مما يجب أن أقوم به مما يمنعني من التفكير بك كثيراً جداً .
– لقد تساءلتُ إنْ كانت الراهبات ستسمح لي في الذهاب والعمل في الدير . إن عددهن قليل جداً . ولو كنتُ أي عون لهن فإنني سأكون ممتنه لهن .
– إنه ليس عملاً سهلاً أو عملاً ساراً . وأنا أشك إنْ كان سيسليك لمدة طويلة .
– هل تحتقرني تماما يا وولتر ؟
– لا .
وتردد وكان صوته غريباً حين قال :
– أنا أحتقر نفسي .

XLVII

كان الوقت بعد العشاء . فجلس وولتر كعادته الى جانب المصباح يقرأ . كان يقرأ في كل مساء الى أن تأوي كيتي الى الفراش ثم يدخل مختبراً أعدّه في إحدى غرف كوخ البنجالو الفارغة . ويظلّ يعمل هنا حتى ساعة متأخرة من الليل . وكان ينام قليلاً . لقد كان مشغولاً بتجارب لم تكن تعرفها . فلم يخبرها بأي شيء عن عمله ، لكنه حتى في الأيام الخوالي كان صموتاً فيما يتعلّق بهذا : فهو لم يكن كثير الكلام بطبيعته . فكّرتْ بعمق بما قاله لها : لم يفضِ الحديث الى شيء . لقد كانت على معرفة ضعيفة به حتى أنها لم تكن متأكدة مما إذا كان يقول الحق أم لا . أمن الممكن أنها كفّتْ عن الوجود بالنسبة اليه بينما أصبح هو يملأ الوجود بالنسبة اليها على نحو ينذر بالسوء ؟ قد يكون حديثها ، الذي كان يسليه في وقت ما لإنه كان يحبها ، أصبح مضجراً له بعد أن

Amly نهضة العرب

لم يعد يحبها . وجمّدها هذا .

نظرتُ اليه . وكشف نور المصباح جانبية وجهه كأنه كان حجراً كريماً . لقد كان وجهه بملامحه المنتظمة دقيقة التكوين مميّزاً جداً ، لكنه كان أكثر من صارم ، كان متجهماً : بذلك الجمود الذي هو عليه والذي لا يتحرّك فيه سوى عينيه وهو يتصفّح كل صفحة ، كان مرعباً على نحو هامض . مَنْ كان سيفكّر بأن هذا الوجه القاسي يمكن أن يذوب من العاطفة الى حد رقة التعبير ؟ كانت تعرف هذا وقد أثار فيها رعدة لفور. لقد كان من الغريب أن يكون من المستحيل أن تحبه بالرغم من أنه كان جميل المظهر وصادقاً وشهماً وموهوباً . وكان مما يثير الإرتياح أنها لم تعد مضطرة الى أن تخضع لمداعباته ثانية .

ما كان ليجيب حين سألته إنْ كان قد رغب حقاً في قتلها حين أجبرها على المجيء الى هنا . إن الغموض الذي يكتنفه هذا يسحرها ويرعبها . لقد كان لطيفاً الى حد خارق للعادة ، ولم يكن مما يُصدَّق أن يكون لديه لصد شيطاني كهذا القصد . لا بد أنه اقترح عليها الحضور الى هنا ليخيفها فقط ولينتقم من تشارلي ثانية (وذلك يتماشى مع مزاجه الساخر) ثم ألحّ عليها في أن تصل معه الى هنا لعناده وخشية أن يبدو أبله .

نعم ، لقد قال بأنه يحتقر نفسه . ما الذي يعنيه بذلك ؟ ونظرت كيتي مرة أخرى الى وجهه الجامد الهادىء . قد لا تكون في الغرفة إطلاقاً ، إنه لا يشعر بوجودها .

سألتْ ، وهي لا تكاد تدري بأنها تتكلّم ، كأنها كانت تستأنف دون توقف الحديثَ الذي تبادلاه في وقت مبكّر :

- لماذا تحتقر نفسك ؟

وضع كتابه وتأملها مفكراً . بدا أنه يستجمع أفكاره من مسافة بعيدة :

- لإنني أحببتك .

Amly نهضة العرب

احمر وجهها وأشاحت بوجهها بعيداً . لم تستطع تحمّل تحديقته الباردة الثابتة المقيّمة . لقد فهمت ما عناه . ومرت وهلة وجيزة قبل أن تجيب . قالت :

– أظن أنك تظلمني . ليس من الإنصاف أن تلومني لإنني كنتُ سخيفة ومستهترة ومبتذلة . لقد رُبيت على ذلك النحو . وكل الفتيات اللواتي أعرفهن كذلك ... إنه كتأنيب شخص لا يتمتع بأذن موسيقية لإنه يحس بالملل في حفل موسيقى سيمفونية . أمن الإنصاف أن تلومني لإنك نسبتَ اليّ صفات لم تكن فيّ ؟ إنني لم أحاول قط أن أخدعك بالتظاهر بأنني كنتُ ما لم أكنه . لقد كنتُ جميلة ومرحة فقط . لا تسأل عن عقد لؤلؤ أو معطف من فرو السمّور في كشك في معرض ، إسأل عن طبل صفيح وبالون ألعاب .

– أنا لا ألومك .

كان صوته تعباً . لقد بدأت تحس بنفاذ الصبر قليلاً معه . لماذا لا يستيطع أن يدرك ما أصبح واضحاً تماماً لها فجأة ، بأن علاقتهما ، الى جانب كل رعب الموت الذي يستقران تحت ظله والى جانب رهبة الجمال الذي لمحته لمحة واحدة فقط في ذلك اليوم ، كانت تافهة ؟ ما الذي يهم حقاً إذا أقدمتْ إمرأة سخيفة على اقتراف جريمة الزنا ولماذا لا بد أن يولي زوجها ، وهو يواجه ما هو سام ، هذا الأمر الكثير من التفكير ؟ لقد كان من الغريب ألاّ يتمتع وولتر ، بكل ذكائه ، إلاّ بالقليل من الإحساس بالتوازن . لإنه ألبس دمية رداء فخماً وأسكنها في محراب ليعبدها ، ثم اكتشف بأن تلك الدمية مليئة بنشارة الخشب ، فلم يغفر لنفسه هذا كما لم يغفر لها ذلك أيضاً . كانت روحه ممزقة . فقد كان كل ما عاش عليه وهماً أضفى عليه عنصرَ حقيقة ، وحين حطّمت الحقيقة هذا الوهم ، ظن بأن الواقع نفسه تحطّم . كان من الحقيقي أنه لن يصفح عنها لإنه لم يستطع أن يصفح عن نفسه .

ظنّتْ أنها سمعته يطلق تنهيدة خفيفة ، فألقَتْ عليه نظرة سريعة

Amly نهضة العرب

المصيرة . وخطرت في بالها فكرة فجائية فقطعت أنفاسها . وكبحت انطلاق صرخة منها بصعوبة .

أكان ما يعاني منه هو ما يدعونه – انسحاق الفؤاد ؟

XLVIII

ظلّت كيتي تفكّر في الدير طيلة اليوم التالي ، وفي الصباح التالي وبعد أن غادر وولتر البيت بوقت قصير ، أخذت معها الأمّة لاستئجار محفّتَيْن ، وعبرت النهر . لم يكد النهار يكتمل بعد ، وازدحم القارب المعدّية بالصينيين ، وكان بعضهم يلابس فلاحين قطنية زرقاء وبعضهم الآخر في ملابس مسؤولين سوداء ، وقد ارتسمت على وجوههم النظرة الغريبة المنطبعة على وجوه الموتى الذين يُحملون فوق الماء الى أرض الظل . وحين خطوا على الشاطيء ، وقفوا قليلاً على مكان الرسو مترددين ، كأنهم لا يعرفون تماماً أين سيتوجهون ، قبل أن يأخذوا في التجوّل الى أعلى التل وهم متفرّقون مثنى مثنى وثلاث ثلاث .

كانت شوارع المدينة في تلك الساعة خاوية تماماً ، فبدت أنها إحدى مدن الموتى أكثر من أي وقت آخر . وأحاط بالمارين جو من الشرود حتى أنك كنت تظن تقريباً بأنهم أشباح . كانت السماء خالية من الغيوم بينما صبّت الشمس المبكّرة لطفاً سماوياً على المشهد ، وكان من الصعب أن تتصوّر أن المدينة في هذا الصباح البهيج المنعش والباسم تنطرح لاهثة تحت قبضة الوباء المظلمة كرجل انتزعتْ حياتَه يدا رجل مجنون خنقاً . ولم يكن من الممكن تصديق أن الطبيعة (فزرقة السماء كانت واضحة كقلب طفل) غير مبالية الى هذا الحد والرجال يتلوون في عذاب مبرّح ويسيرون الى حتفهم وهم خائفون . حين أنزلت المحفّتان على الأرض عند باب الدير ، نهض شحاذ عن الأرض وطلب من كيتي صدقة . كان يرتدي خرقاً باهتة اللون عديمة الشكل بدت وكأنه بحث

Amly نهضة العرب

عنها وأخرجها من كومة روث وأوساخ ، وكنتَ ترى من خلال مُزَقها بشرتَه قاسيةً وخشنة ومدبوغة كجلد عنزة ، وكانت ساقاه العاريتان هزيلتين ، ورأسه بكتلة شعره الشائب الخشن (وجنتاه جوفاوان وعيناه وحشيتان) رأس رجل مجنون . ابتعدت عنه مرتعبة ، فصاح حاملو المحفَّتَيْن بصوت خشن طالبين منه الإبتعاد ، لكنه كان ملحّاً ، فأعطته كيتي بعض قطع النقد وهي ترتعد لكي تتخلّص منه .

فتح الباب ، وأوضحتْ الأمَة أن كيتي ترغب في رؤية الأم الرئيسة . وأدخلت مرة أخرى الى الردهة القاتمة التي بدا أنه لم تُفتح فيها أية نافذة قط ، فجلست هناك مدة طويلة جداً الى حد أنها بدأت تظن أن رسالتها لم تُبَلّغ ، وأخيراً دخلت الأم الرئيسة . قالت :

– لا بد أن أطلب منك أن تعذريني لأنني أبقيتك تنتظرين . فلم أكن أتوقّع حضورك ، وكنتُ مشغولة .

– إغفري لي إزعاجي لك . أخشى أنني أتيت في لحظة غير ملائمة تماماً.

ألقت عليها الأم الرئيسة إبتسامة جادة لكنها عذبة ، ورجتها أن تجلس . لكن كيتي رأت أن عينيها كانتا منتفختين . لقد كانت تبكي . فزعت كيتي ، فقد تكوّن لديها إنطباع من الأم الرئيسة أنها إمرأة لم تكن المتاعب الدنيوية قادرة على التأثير عليها .

تلعثمت قائلة :

– أخشى أن يكون قد حدث شيء . أتريدينني أن أذهب ؟ يمكنني الحضور في مرة أخرى .

– لا ، لا . أخبريني ما الذي أستطيع فعله من أجلك . إن الأمر فقط – إحدى أخواتنا ماتت في الليلة الماضية فقط .

وفقد صوتها لهجته السوّية ، واغرورقت عيناها بالدموع .

– إنه لتصرف شرير مني أن أحزن ، فأنا أعرف أن روحها الطيبة والبسيطة طارت مباشرة الى السماء ، لقد كانت قديسة ، لكن من الصعب دائماً أن يسيطر الإنسان على ضعفه . أخشى ألاّ أكون مسؤولة

Amly نهضة العرب

مسؤولية كاملة دائماً .

قالت كيتي :

- أنا أسفة ، أنا أسفة جداً .

ودفع تعاطفها الجاهز دائماً نشيجاً الى صوتها .

- كانت أحدى الأخوات اللواتي سافرن معي من فرنسا قبل عشر سنوات . بقيتْ ثلاث منا فقط الآن . وأذكر أننا وقفنا في مجموعة ليلة عند نهاية السفينة (ماذا تدعونه : القيدوم ؟) ونحن نبحر خارج المرفأ في مرسيليا ورأينا شكل القديسة ماري النعمة Marie le Grace Sainte - ، وتلونا صلاة معاً . لقد كانت أمنيتي الكبرى ، منذ أن دخلتُ الدين ، أن يُسمح لي في أن آتي الى الصين ، لكنني حين رأيت الهابسة تبتعد ، لم أستطع منع نفسي من البكاء . لقد كنتُ رئيستهن ، ولم أكن مثالاً جيداً جداً يُحتذى . فأخذت الأخت القديس فرانسيس كساڤيير St. Fransis Xavier- ذلك هو إسم الأخت التي ماتت في الليلة الماضية - يدي وطلبت مني ألاّ أحزن ، فقد قالت بأننا حيثما نذهب فإن فرنسا ستكون هناك وسيكون الله هناك .

وتشوّه ذلك الوجه القاسي والجميل بالحزن الذي عصرته الطبيعة البشرية منها ، وبالجهد الذي بذلته لمنع تهاطل الدموع التي رفضها عقلها وايمانها . أشاحت كيتي بوجهها . فقد رأت أن من غير الأدب أن تمعن النظر في ذلك الصراع .

- كنت أكتب الى أبيها . فقد كانت ، مثلي أنا ، إبنة أمها الوحيدة . كانوا صيادين في بريتاني وسيكون وقع الخبر عليهم قاسياً . أوه ، متى سيتوقّف هذا الوباء الرهيب ؟ لقد هوجمت فتاتان من فتياتنا هذا الصباح ولن يستطيع أي شيء سوى معجزة أن تنقذهما . ليس لدى هؤلاء الصينيين أية مقاومة . إن خسارة الأخت القديس فرانسيس قاسية جداً . هناك الكثير مما يجب القيام به وأصبح لدينا الآن عدد أقل من الأخوات ليقمن به . لدينا في بيوتنا الأخرى في الصين أخوات متلهفات

Amly نهضة العرب

للحضور ، فأنا أعرف أن كل راهباتنا على استعداد في أن يقدّمن أي شيء في العالم (مع أنهن لا يملكن شيئاً في العالم) للحضور الى هنا ، لكن الحضور الى هنا موت أكيد تقريباً ، وطالما أننا نستطيع تدبير أمورنا مع الأخوات اللواتي لدينا هنا ، فأنا غير راغبة في أن يُضحى بالأخريات .

قالت كيتي :

– ذلك يشجّعني ، يا أمي ma mere ، لديّ إحساس بأنني أتيتُ في لحظة سيئة جداً . لقد قلتِ في اليوم السابق بأن لديكن عملاً يفوق عدد الأخوات اللواتي يمكنهن القيام به ، وقد تساءلت إنْ كنتِ ستسمحين لي في الحضور الى هنا ومساعدتهن ، لن يهمني ما الذي يمكنني أن أفعله إنْ كنتُ أستطيع فقط أن أكون نافعة. سأكون شاكرة لكُنّ إنْ كنتِ سمحت لي في تنظيف أرضيات الدير .

ورشقتها الأم الرئيسة بابتسامة مرحة ، فذهلت كيتي من مزاجها المرن الذي يمكنه التنقّل بسهولة من حال الى حال .

– ليس ثمة حاجة الى تنظيف الأرضيات . فهذا العمل يقمن به اليتيمات بطريقة غير متقنة .

ثم صمتت وألقت على كيتي نظرة رقيقة :

– يا طفلتي العزيزة ، ألا ترين بأنك بذلتِ ما فيه الكفاية في مجيئك مع زوجكِ الى هنا ؟ ذلك يفوق ما قد تجرؤ كثير من الزوجات على أن يفعلنه ، أما بالنسبة الى باقي ما يمكنك فعله ، فكيف يمكنك أن تقومي بعمل أفضل من أن تشغلي نفسك في إدخال الهدوء والطمأنينة في نفسه حين يعود الى البيت اليك بعد يوم عمل ؟ صدقيني ، إنه بحاجة الى كل حبك وكل اهتمامك حينذاك .

لم تستطع كيتي أن تواجه بسهولة عينيها اللتين استقرتا عليها بتحديقة حيادية ورقة ساخرة .

قالت كيتي :

Amly نهضة العرب

- ليس لديّ ما أفعله من الصباح حتى الليل . وأرى أن هناك الكثير جداً مما يمكن فعله ، حتى أنني لا أستطيع تحمّل التفكير في أن أظل خاملة . لا أريد أن أكون مزعجة ، كما أنني أعرف أنه لا يحق لي في أن أتطفّل على لطفكن أو آخذ من وقتكن أيضاً ، لكنني أعني ما أقوله ، كما سيكون إحساناً ما ستقدمينه اليّ إنْ أنتِ سمحتِ لي في أن أكون عوناً لكنّ .

- أنتِ لا تبدين قوية جداً . وحين أدخلتِ السرور الى نفوسنا وحضرتِ لزيارتنا قبل أمس ، بدا لي أنك كنتِ شاحبة الوجة جداً . وظنّت الأخت القديس جوزيف بأنك ربما ستضعين طفلاً .

صاحت كيتي ، وقد تضرّج وجهها محمرّاً حتى جذور شعرها :

- لا ، لا .

أطلقتْ الأم الرئيسة ضحكة صغيرة فضية :

- ليس في هذا ما يخجلك يا طفلتي العزيزة ، وليس في هذا الإفتراض أي شيء غير محتمل . كم مضى على زواجك ؟

- إنني شاحبة جداً لإنني شاحبة شحوباً طبيعياً ، لكنني قوية جداً ، وأعدك ألاّ أخاف من العمل .

أصبحت الأم الرئيسة الآن سيدة نفسها تماماً . واتخذت بلا وعي منها هيئة السلطة التي كانت من طبيعتها ، فألقت على كيتي نظرة متفرّسة تقيّمها . فأحست كيتي بالعصبية الى حد كبير .

- هل تتكلمين الصينية ؟

أجابت كيتي :

- أخشى أنني لا أتكلّمها .

- آه ، ذلك مثير للرثاء . كنت أستطيع أن أعيّنك مسؤولة عن الفتيات الكبيرات . إن هذا صعب جداً الآن ، وأخشى أن يصبحن - ماذا تدعين هذا ؟

ثم أنهت كلامها بصوت متردد :

Amly نهضة العرب

- خارج السيطرة ؟
- ألا أستطيع أن أكون عوناً للأخوات في التمريض ؟ لستُ خائفة من الكوليرا أبداً . يمكنني أن أمرّض الفتيات أو الجنود .

هزّت الأم الرئيسة رأسها دون أن تبتسم الآن ، وقد ارتسمت على وجهها نظرة متأملة :

- أنتِ لا تعرفين ما هي الكوليرا . إنها شيء بشع رؤيته . إن الذين يقومون بالعمل في المصحة هم الجنود ، ونحتاج الى أخت لتشرف على العمل فقط . وفيما يتعلّق بعمل الفتيات ... لا ، لا ، أنا متأكدة من أن زوجك لن يرغب في هذا ، إنه منظر رهيب ومخيف .
- سأعتاد عليه .
- لا ، إنه خارج الموضوع . إنه عملنا وامتيازنا أن نقوم بأعمال كهذه، وليس من داعٍ لإن تقومي بعمل كهذا .
- إنك تجعلينني أشعر أنني بلا فائدة تماماً وعاجزة جداً . يبدو أنه من غير المعقول أنه لا يوجد عمل يمكنني أن أقوم به .
- هل تكلّمتِ مع زوجك عن رغبتك ؟
- نعم .

نظرت اليها الأم الرئيسة كأنها كانت تغوص الى أسرار قلبها ، لكنها ابتسمت حين رأت نظرة كيتي القلقة والمستجدية .

فسألت :

- أنت بروتستانتية طبعاً ؟
- نعم .
- لا يهم . لقد كان دكتور واطسون ، المبشّر الذي مات ، بروتستانتياً، فلم يشكّل هذا أي فرق . وكان بالنسبة الينا كل ما هو أجمل. ونحن مدينون له بدين عميق من العرفان بالجميل .

ومرّتْ على وجه كيتي خفقة إبتسامة الآن ، لكنها لم تقل شيئاً . بدا أن الأم الرئيسة تفكّر . ثم نهضت واقفة على قدميها .

Amly نهضة العرب

– إنه لأمر طيّب جداً منكِ . أظن أنني أستطيع أن أجد عملاً تقومين به . أصبح من المستحيل علينا الآن أن نقوم بالعمل كله وقد أُخِذَتْ منا الأخت القديس فرانسيس . متى ستكونين مستعدة للبدء ؟

– الآن .

– A la bonne heure ساعة مناسبة . يسعدني أن أسمعك تقولين ذلك .

– أعدك أن أبذل قصارى جهدي . إنني ممتنة جداً لك للفرصة التي تتيحيها لي .

فتحت الأم الرئيسة باب قاعة الإستقبال ، لكنها ترددت وهي تخرج . وألقت على كيتي مرة أخرى نظرة طويلة متفحّصة ودارسة . ثم وضعتْ يدها بلطف على ذراعها .

– أنتِ تعرفين يا طفلتي العزيزة أن الإنسان لا يستطيع أن يجد السلام في العلم أو في اللهو ، في الدنيا أو في الدير ، لكنه يجده فقط في نفسه .

أجفلت كيتي قليلاً ، لكن الأم الرئيسة مرّت بها خارجة من الغرفة بخفة .

XLIX

وجدت كيتي العمل منعشاً لروحها . فهي تذهب الى الدير كل صباح بعد شروق الشمس بوقت قصير ولا تعود الى البنجالو إلاّ حين تغمر الشمس المتجهة الى الغرب النهرَ الضيّق وزوارقه المزدحمة فيه بالذهب . ووضعت الأم الرئيسة الأطفال الصغار تحت رعايتها . كانت أم كيتي قد جلبت الى لندن من موطنها ليڤربول إحساساً عملياً بالتدبير المنزلي ، وكانت لدى كيتي دائماً مواهب معيّنة كانت تشير اليها بلهجة مازحة فقط ، بالرغم من جو الإستهتار الذي كان يحيط بها . وهكذا ، كان

يمكنها أن تطبخ على نحو جيّد تماماً وتخيط على نحو جميل . وحين كشفت هي عن هذه الموهبة ، عُيّنت لتشرف على خياطة وتطريز الفتيات الصغيرات . كن يعرفن قليلاً من الفرنسية ، فأخذتْ تلتقط بضع كلمات من اللغة الصينية كل يوم حتى لم يعد من الصعب عليها أن تدبّر أمرها . وكان عليها في أوقات أخرى أن ترى بأن الأطفال الصغار لا يتورطون بأعمال سيئة ، فكان عليها أن تلبسهم ملابسهم وتخلعها لهم وتراعي أن يأخذوا قسطاً من الراحة حين يحتاجون اليها . كان هناك الكثير جداً من الأطفال الرضّع وكان هؤلاء في رعاية الأمّات ، لكنه طلب منها أن تبقيهم تحت مراقبتها . ولم يكن أياً من العملَيْن مهماً ، وكانت تود أن تقوم بعمل يحتاج الى بذل جهد أكبر ، لكن الأم الرئيسة لم تُعر توسلاتها إهتماماً ، فوقفتْ كيتي وهي تحس بالرهبة منها الى حد منعها من الإلحاح عليها .

كان عليها في الأيام القليلة الأولى أن تبذل جهداً للتغلّب على الإشمئزاز الطفيف الذي كانت تحس به نحو هؤلاء الفتيات الصغيرات في بزّاتهن القبيحة ، وشعورهن السوداء المتيبّسة ، ووجوههن الصفراء المدوّرة وعيونهن المحدّقة السوداء الداكنة . لكنها تذكّرتْ النظرة الناعمة التي حوّلت ملامح الأم الرئيسة وأضفت عليها جمالاً حين وقفتْ وقد أحاطتْ بها تلك الأشياء الصغيرة القبيحة عند زيارة كيتي للدير لأول مرة ، فلا تسمح كيتي حينذاك لنفسها في أن تستسلم لغريزتها . والآن وفيما كيتي تأخذ بين ذراعيها واحدة أو أكثر من تلك المخلوقات الدقيقة ، الباكية بسبب سقوطها أو كسر سنها ، وحين وجدت أن بضع كلمات رقيقة ، مع أنها كلمات في لغة لا يستطيع الطفل فهمها ، وأن ضغط ذراعيها ورقة وجنتيها على الوجه الأصفر الباكي ، كان يمكن أن يدخل الراحة والعزاء في نفس هذه المخلوقة ، بدأت كيتي تفقد شعورها بالإستغراب . وأخذ الأطفال الصغار يأتون اليها ، بلا أي خوف منها ، بمتاعبهم الطفولية ، فبثّ اكتسابُها لثقتهم بها سعادة غريبة في نفسها .

Amly نهضة العرب

وكانت الحال كذلك مع الفتيات الأكبر سناً ، اللواتي كانت تعلمهن الخياطة ، فكانت إبتساماتهن المشرقة الذكية وسرورهن الذي كان يمكنها إثارته في نفوسهن بكلمة مديح ، يمسّ شغاف قلبها . أحسّت بأنهن يحببنها ، فأحبّتهن بدورها وقد خامرها شعور بإشباع الغرور والفخر .

لكن ، كانت هناك طفلة واحدة لم تتمكن من التقرّب منها . كانت طفلة صغيرة في السادسة من عمرها ، بلهاء برأس متضخّم بمرض استسقاء الماء ، يتأرجح بتثاقل على جسد قصير ثخين ، ولها عينان خاويتان وفم يتحلّب لعابه ، وتتكلّم بصوت أجش بضع كلمات مدمدمة ، وهي مثيرة للإشمئزاز ومخيفة ، وقد تعلّقت بسبب من الأسباب تعلّقاً أبله بكيتي ، فكانت تتبعها من مكان الى آخر وهي تغيّر مكان وجودها من جزء من الغرفة الكبيرة الى جزء آخر . وتتشبث بتنورتها وتمسح وجهها على ركبتيها . وتبحث عن يديها لتعبث بهما . فترتعش كيتي باشمئزاز . إن كيتي تعرف أنها تتوق الى المداعبات لكنها لم تستطع أن تحمل نفسها على لمسها .

وتكلّمت ذات مرة مع الأخت القديس جوزيف ، وقالت أنه مما يدعو للرثاء أنها على قيد الحياة . فابتسمت الأخت القديس جوزيف ومدّت يدها الى الشيء المشوّه الشكل . فأقبلتْ نحوها وحكّت جبهتها البارزة عليها . قالت الراهبة :

– مخلوق صغير مسكين ، لقد أحضِرَتْ الى هنا وهي تحتضر تقريباً . وكنت عند الباب حين حضرتْ الى هذا المكان ، وكان ذلك رحمة من العناية الإلهية . فرأيت أنه لم يكن هناك أية لحظة نضيّعها ، فعمّدتها على الفور . لن تصدّقي ما واجهناه من متاعب لإبقائها معنا . وخيّل الينا ثلاث أو أربع مرات أن روحها الصغيرة ستهرب الى السماء .

صمتت كيتي . وأخذت الأخت القديس جوزيف تتكلّم بطريقتها الثرثارة عن أمور أخرى . وحين اقتربت منها الطفلة البلهاء في اليوم التالي ولمست يدها ، ضغطتْ كيتي على أعصابها ووضعت يدها على

Amly نهضة العرب

الجمجمة العارية مداعبة إياها . وقسرت شفتيها على الإبتسام . لكن الطفلة تركتها فجأة بحماقة بلهاء ، فقد بدا أنها فقدت الإهتمام بها ، ولم تعرها أي إهتمام في ذلك اليوم ولا في الأيام التالية . لم تعرف كيتي ما فعلته ، فحاولت أن تغريها بالإبتسامات والإشارات ، لكنها ابتعدت عنها وتظاهرت أنها لم ترها .

L

ولإن الراهبات كن مشغولات من الصباح حتى الليل بمئات الواجبات ، كانت كيتي تراهُنَّ نادراً إلاّ عند الصلاة في الأبرشية المتواضعة العارية . وفي يومها الأول ، لمحتها الأم الرئيسة جالسة في المؤخرة خلف الفتيات الجالسات على المقاعد الخشبية الصغيرة حسب أعمارهن ، فوقفت الأم الرئيسة وتكلّمت اليها . قالت :

– يجب ألاّ تفكري أن من الضروري عليكِ أن تحضري الى الأبرشية حين نحضر اليها نحن . فأنتِ بروتستانتية ولك معتقداتك الخاصة .

– لكنني أحب أن آتي يا أمي . فأنا أجد أن هذا يريحني .

ألقت عليها الأم الرئيسة نظرة سريعة للحظة ، ثم أمالت رأسها الوقور قليلاً :

– ستفعلين طبعاً ما تختارينه بالضبط . أردتُ فقط أن أفهمك بأنكِ لستِ ملزمة بأي إلتزام .

لكنها سرعان ما أصبحت تحس مع الأخت القديس جوزيف لا بالود بل ربما بالألفة . وكان اقتصاد الدير تحت مسؤوليتها ، فكانت العناية بأمور الرفاهية المادية لتلك الأسرة الكبيرة تُبقي هذه الأخت قائمة على قدميها طيلة النهار . وقد قالت أن الوقت الوحيد الذي تأخذ فيه قسطاً من الراحة هو الوقت المخصّص للصلاة . لكنها كان يسرها أن تدخل الغرفة والوقت يقترب من المساء حين تكون كيتي مع الفتيات وهن

Amly نهضة العرب

يعملن ، فتجلس لمدة بضع دقائق وتأخذ بالثرثرة والقيل والقال بعد أن تكون قد اقسمتْ بأنها كانت منهكة القوى وأن ليس لديها أية لحظة تضيّعها . فحين لا تكون في حضور الأم الرئيسة تكون مخلوقة ثرثارة ومرحة ومغرقة بالمزاح ولا تكره القليل من الفضائح . ولم تحس كيتي نحوها بأي خوف ، كما لم تمنع هذه العادة الأخت القديس جوزيف من أن تكون إمرأة رائقة المزاج ولطيفة ، فتثرثر معها بمرح . لم تكن تبالي بأن تريها مدى السوء الذي تتكلّم به الفرنسية ، فكانتا تضحكان معاً على أخطاء كيتي . وعلّمتها الأخت كل يوم بضع كلمات صينية مفيدة . كانت إبنة مزارع ، وكانت لا تزال فلاّحة في قلبها . قالت :

– اعتدتُ على رعاية الأبقار حين كنت صغيرة ، كالقديسة جان دارك . لكنني كنتُ شريرة الى حد لا يسمح لي في أن أرى رؤى . أظن أنني كنتُ محظوظة ، لإن والدي كان سيسوطني بالتأكيد لو ظهرتْ لي الرؤى. لقد اعتاد على أن يسوطني كثيراً ، العجوز الطيب ، فقد كنتُ فتاة صغيرة متعجرفة . إنني أخجل أحياناً حين أفكّر الآن بالمقالب التي كنتُ أدبّرها .

ضحكت كيتي من التفكير بأن هذه الراهبة البدينة البالغة منتصف العمر كان يمكن أن تكون طفلة جامحة . ومع ذلك ، فلا زال فيها شيء طفولي مما يجعل قلبك يميل اليها : يبدو أنه يحيط بها عبير المناطق الريفية في الخريف حين تكون أشجار التفّاح محمّلة بالثمار والمحاصيل التي أدخلت وخُزنت بأمان . لم يكن لها قدسية الأم الرئيسة المأساوية والوقور ، بل مرح كان بسيطاً وسعيداً .

سألتها كيتي :

– ألا ترغبين قط في أن تعودي الى الوطن ثانية يا أختي ma soeur ؟

– أوه ، لا . سيكون من الصعب جداً أن أعود . إنني أحب أن أكون هنا ، ولم أكن سعيدة قط كما أنا سعيدة حين أكون بين اليتامى . إنهم طيّبون ، شاكرون جداً . لكنه يستحسن جداً ان تكوني راهبة (on a

Amly نهضة العرب

beau être religieuse) ، فلا يزال للإنسان أم ولا يستطيع الإنسان أن ينسى بأنه رضع من حليب ثديها . إنها عجوز ، أعني أمي ، ومن الصعب الآ أراها ثانية ، لكنها الآن تحب كنّتها ، وأخي طيّب معها . إن إبنه يكبر الآن ، وأظن أنهم سيكونون مسرورين لإنضمام ذراعين قويتين إضافيتَيْن الى المزرعة ، لقد كان طفلاً حين غادرتُ فرنسا ، لكنه يَعِدُ في أن تكون له قبضة يمكنه أن يصرع بها ثوراً .

كان من المستحيل تقريباً في تلك الغرفة الهادئة ، وأنتَ تصغي الى الراهبة ، أن تفطن الى أن الكوليرا تتفشّى في الجانب الآخر من هذه الجدران الأربعة . كانت الأخت القديس جوزيف تتمتّع بشعور من اللامبالاة انتقل الى كيتي .

إنها تتمتع بفضول ساذج حيال العالم وسكّانه . فقد سألتْ كيتي كل أنواع الأسئلة عن لندن وانجلترا ، والتي ظنّت أنها بلاد فيها الضباب كثيف جداً الى درجة أنك لا تستطيع أن ترى يدك في منتصف النهار ، وأرادتْ أن تعرف إنْ كانت كيتي قد ذهبتْ الى المراقص ، وما إذا كانت تعيش في بيت ضخم ، وكم لديها من الأخوان والأخوات . وكثيراً ما تكلّمت عن وولتر . وقد قالت الأم الرئيسة أنه كان مدهشاً وأنهن يصلين من أجله في كل يوم . ويا لمدى حظ كيتي أن يكون لها زوج على هذه الدرجة من الطيبة والشجاعة والذكاء .

LI

لكن الأخت القديس جوزيف كانت لا تفتأ تعود الى موضوع الأم الرئيسة عاجلاً أو آجلاً . وكانت كيتي قد عرفتْ منذ البداية أن شخصية هذه المرأة تسيطر على الدير . وكان كل الذين يقيمون هناك ينظرون اليها نظرة حب وإعجاب على نحو مؤكّد ، لكنه حب وإعجاب تشوبهما رهبة وغير قليل من الروع . وبالرغم من عطفها ، إلاّ أن كيتي نفسها

Amly نهضة العرب

كانت تحس نفسها كتلميذة مدرسة في حضورها . فلم تكن على سجيّتها تماماً أمامها ، فقد كانت مفعمة بعاطفة غريبة الى درجة أنها أربكتها : الإحترام . وقد حدثت الأخت القديس جوزيف كيتي ، تدفعها رغبة ساذجة لكي تؤثّر عليها ، عن مدى عظمة الأسرة التي كانت الأم الرئيسة تنتمي اليها ، فبين أجدادها أشخاص يتمتعون بأهمية تاريخية وأنها كانت على صلة قرابة بعيدة un peu cousine مع نصف الملوك في أوروبا : فألفونسو ملك إسبانيا اصطاد في أملاك أبيها ، ولديهم قصور châteaux في جميع أنحاء فرنسا . ولا بد أنه كان من الصعب ترك فخامة عظيمة كهذه . أصغت كيتي اليها وهي تبتسم ، دون أن تتأثّر حتى ولا قليلاً .

قالت الأخت :

– Du reste ، عليك أن تنظري اليها فقط فترَيْن أن عائلتها ظاهرة عليها comme famille , c'est le dessus du panier .

قالت كيتي :

– لديها أجمل يدين رأيتهما في حياتي .

– آه ، لكنكِ لو عرفتِ كيف تستعملهما . إنها لا تخاف من العمل notre bonne mére ، أمنا الطيبة .

حينما حضرن الى هذه المدينة ، لم يكن فيها أي شيء . فبَنَيْن الدير ، وكانت الأم الرئيسة هي التي خططت وأشرفت على العمل . وفي اللحظة التي وصلن فيها ، بدأن في إنقاذ الفتيات الصغيرات المسكينات غير المرغوب بهن من برج الأطفال وأيدي القابلات القاسية . ولم يكن لديهن في البداية أية أسرّة لينمن عليها ولا زجاج يمنع دخول هواء الليل، (قالت الأخت القديس جوزيف : " لم يكن هناك أي شيء أكثر ضرراً بالصحة ") ، وكثيراً ما كنّ بلا مال ، ليس فقط للدفع للبنّائين ، بل حتى لشراء طعامهن البسيط ، وعشن كفلاحات ، وماذا كانت تقول ؟ إن الفلاحين في فرنسا ، tenez ، الرجال الذين يعملون لدى أبيها ، كانوا

Amly نهضة العرب

سيلقون الطعام الذي كنّ يأكلنه الى الخنازير . ثم كانت الأم الرئيسة تجمع بناتها حولها ، فكنّ يركعن ويصلين ؛ فإذا العذراء المباركة ترسل اليهن المال . فألف فرنك تصل ببريد اليوم التالي أو عن طريق غريب، رجل إنجليزي (بروتستانتي ، إذا سمحتِ) أو حتى أن صينيّاً سيقرع الباب بينما هنّ راكعات حقاً ويحضره لهن هدية . كنّ ذات مرة في ضيق الى حد أنهنّ أقسمن كلهن للعذراء المباركة أن يرددن صلاة neu-vaine تمجيداً لشرفها إنْ هي أنقذتهن، وهل ستصدّقين ؟ حضر مستر وادينجتون المرح ذلك ليزورنا في اليوم التالي قائلاً بأننا نبدو كأننا كلنا بحاجة الى طبق لحم بقر مشوي شهيّ ، ثم أعطانا مائة دولار .

يا له من رجل صغير مضحك ، برأسه الأصلع وبعينيه الصغيرتين الماكرتين (ses petits yeux malins) وبنكاته ، يا إلهي Mon Dieu ، يا للطريقة التي يقتل بها اللغة الفرنسية ، ومع ذلك ، لا تستطيعين منع نفسك من الضحك عليه . لقد كان دائماً في مزاج رائق . وقد قضى طيلة فترة هذا الوباء الرهيب كأنه يستمتع بإجازة . إن له قلباً فرنسياً تماماً وبديهة تجعلك بالكاد تصدّقين أنه رجل إنجليزي . باستثناء لكنته . لكن الأخت القديس جوزيف ظنت أحياناً بأنه يتكلّم بلغة ركيكة عن قصد ليثير ضحكك . إن أخلاقه طبعاً ليست الأخلاق التي يرغب الإنسان في أن تكون عليه ، لكن ذلك شأنه (وبتنهيدة وهزّة كتف وهزّة رأس) وهو أعزب وشاب .

سألت كيتي مبتسمة :

– ما العيب في أخلاقه يا أختي ma soeur ؟

– أمن الممكن أنك لا تعرفين ؟ إنها خطيئة مني أن أخبرك . ليس من شأني أن أقول أشياء كهذه . إنه يعيش مع إمرأة صينية . وهذا يعني ، ليست إمرأة صينية ، بل إمرأة من المانشو . يبدو أنها أميرة ، وهي تحبه الى حد الجنون .

صاحت كيتي :

Amly نهضة العرب

- يبدو ذلك مستحيلاً تماماً .
- لا ، لا ، أقسم لك أن هذا صحيح تماماً . إن هذا لأمر شرير جداً يقدم عليه . فتلك الأفعال لا تُمارس . ألم تسمعي بأنه لم يستطع أن يأكل المادلين madeleines التي صنعتُها أنا وذلك حين حضرتِ الى الدير أول مرة ، حتى أن أمنا الطيبة notre bonne mere قالت إن معدته فسدت من طبخ المانشو ؟ كان ذلك ما عنته ، وكان عليك أن تريّ الإنطباع الذي ارتسم على وجهه . إنها قصة عجيبة إجمالاً . يبدو أنه كان في هانكو Hankow أثناء الثورة حينما كانوا يذبحون المانشو ، وأنقذ وادينجتون الصغير الطيّب هذا حياة إحدى أسرهم الكبيرة ، إنها تمت بصلة قرابة للأسرة الإمبراطورية . فتدلّهت الفتاة بحبه و - حسناً ، يمكنكِ أن تتخيلي باقي القصة . وحين غادر هانكو ، هربت وتبعته وهي الآن تتبعه الى كل مكان ، وقد راض نفسه على أن يبقيها معه ، المسكينة ، ويمكنني أن أقول أنه مولّه بها جداً ، وهن فاتنات تماماً أحياناً، نساء مانشو هؤلاء . لكن ، ما الذي أفكّر فيه ؟ لديّ ألف عمل لا بد أن أقوم به وها أنا أجلس هنا . إنني متديّنة سيئة . إنني خجلة من نفسي .

LII

تملّك كيتي شعور غريب في أنها تتطوّر . فقد صرف الإنشغال المستمر عقلها وأيقظتْ اللمحات التي ألقتها على حياة الآخرين ووجهات نظرهم خيالها . وأخذت تستعيد روحها المعنوية ، فأحسّت بأنها في حال أحسن وأقوى . لقد بدا لها أنها لا يمكنها أن تفعل شيئاً الآن سوى أن تبكي ، لكنها انتبهت الى نفسها بأنها تضحك على هذا وذاك ، الأمر الذي أثار دهشتها وقليلاً من تشوّش ذهنها . وأخذ يبدو أن من الطبيعي جداً أن تعيش في وسط الوباء المروّع . وعرفت أن الناس

Amly نهضة العرب

يموتون عن يمينها ويسارها ، لكنها كفّت تماماً عن التفكير في الموت . وقد منعتها الأم الرئيسة من دخول المصحات وأثارت الأبواب المغلقة فضولها . ودت أن تختلس النظر الى داخل هذه المصحات ، لكنها لم تفعل ذلك دون أن يراها أحد ، ولم تعرف أية عقوبة ستوقعها الأم الرئيسة عليها . فسيكون من المرعب أن يقصوها عن الدير . فقد كرّست نفسها للأطفال الآن وسيفتقدونها إنْ هي ذهبت ، وهي لا تعرف حقاً ما سيفعلونه بدونها .

وفطنت ذات يوم بأنها لم تفكّر بتشارلز تاونسيند ولا حلمت به مدة إسبوع . وخبط قلبها أضلعها فجأة ، لقد شفيت . إنها تستطيع الآن أن تفكر فيه بلامبالاة . لم تعد تحبه . أوه ، الإرتياح والشعور بالتحرر ! كان من الغريب أن تلتفت الى الماضي وتتذكّر مدى العاطفية التي كانت تشتاق بها اليه ، فقد ظنّت أنها كانت ستموت حين يخذلها ، وفكّرتْ أنْ ليس في الحياة من الآن فصاعداً أي شيء لتقدمه اليها سوى البؤس . وها هي الآن تضحك . مخلوق عديم النفع . يا للبلاهة التي أوصلت نفسها اليها ! وفيما هي تفكّر الآن فيه بهدوء ، استغربت متسائلة عما رأته فيه بحق الأرض . كان من حسن الحظ أن وادينجتون لا يعرف شيئاً ، وإلاّ لما كانت تستطيع إحتمال حملقته الخبيثة وغمزاته الساخرة . لقد أصبحت حرّة ، حرّة أخيراً ، حرّة ! ولم تتمالك نفسها من أن تضحك بصوت عالٍ إلاّ بصعوبة .

كان الأطفال يلعبون لعبة صاخبة ، وكانت من عادتها أن تراقبهم بابتسامة متسامحة ، كابحة جماحهم حين يطلقون الكثير جداً من الضجة ، ومراعية ألاّ يتضرر أحد من ضجيجهم ، لكنها الآن ، وهي في روح معنوية عالية وتشعر أنها صغيرة كأي منهم ، انضمت اليهم في اللعبة . استقبلتها الفتيات الصغيرات بسرور . فطاردنها هنا وهناك في الغرفة ، صارخات بأعلى أصواتهن الحادة ، بمرح خيالي وبربريّ تقريباً . واشتد بهن الإنفعال حتى أنهن قفزن في الهواء فرحات . كانت الضجة

Amly نهضة العرب

رهيبة .

فجأة ، فتح الباب ووقفت الأم الرئيسة على العتبة . وخلّصت كيتي ، والخجل يسيطر عليها ، نفسها من قبضات عشرات من البنات الصغيرات، اللواتي أمسكن بها صارخات صرخات عنيفة .

سألت الأم الرئيسة ، وابتسامة على شفتيها :

- هل هذه هي الطريقة التي تحافظين بها على هدوء وحسن سلوك هؤلاء الأطفال ؟

- كنا نلعب لعبة يا أمي . لقد انفعلن . إنها غلطتي ، وقد دفعتهن الى هذا .

تقدّمت الأم الرئيسة منهن ، فتزاحم الأطفال حولها كما هي العادة . فوضعت يديها حول أكتافهن الضيقة وجذبت آذانهن الصفراء الصغيرة مداعبةً . نظرت الى كيتي نظرة طويلة ورقيقة . فتضرّج وجه كيتي محمّراً خجلاً وأطلقت أنفاساً سريعة . وأخذ سائل عينيها يلمع ، بينما تشعّث شعرها الجميل وأصبح في حالة فوضى جميلة أثناء الصراع والضحك .

قالت الأم الرئيسة :

- Que vous êtes belle , ma chere enfant . أنت جميلة ، يا طفلتي العزيزة . إن رؤيتك تثير البهجة في القلب . فلا عجب أن يعبدك هؤلاء الأطفال .

احمر وجه كيتي بعمق وترقرقت الدموع من عينيها فجأة دون أن تعرف السبب . وغطّت وجهها بيديها :

- أوه يا أمي . أنت تخجلينني .

- لا تخجلي ، لا تكوني سخيفة . فالجمال أيضاً هبة من الله ، أحد أندر وأغلى هباته ، وسنكون شاكرين إنْ كنا سعداء سعادة كافية أن يكون لدينا هذا الجمال ، وشاكرين أيضاً أن يتمتّع الآخرون بهذا الجمال لبث السرور في نفوسنا ، إنْ لم نكن نحن نتمتع بهذا الجمال .

Amly نهضة العرب

ابتسمت ثانية كأن كيتي كانت طفلة أيضاً ، فربتت على وجنتها الناعمة برفق شديد ٠

LIII

ومنذ أن أخذت كيتي تعمل في الدير ، صارت ترى وادينجتون أقل من السابق ٠ فقد حضر مرتين أو ثلاث مرات الى ضفة النهر ليقابلها ومشيا صاعدَيْن التل معاً ٠ ودخل البيت ليشرب ويسكي بالصودا ، لكنه نادراً ما كان يبقى للعشاء ٠ ومع ذلك ، وفي يوم أحد ، اقترح أن يتناول الغداء معها ويستقلا محفّتَيْن الى دير بوذيّ ٠ وكان الدير يقع على بعد عشرة أميال من المدينة ويتمتّع بسمعته كمكان للحج ٠ وكانت الأم الرئيسة ، التي تصرّ على أن تأخذ كيتي يوم راحة ، لا تدعها تعمل في أيام الأحد ، بينما ظلّ وولتر مشغولاً حينذاك كما هي العادة طبعاً ٠

انطلقا في ساعة مبكّرة من الصباح حتى يصلا قبل حرارة النهار ، فحُملا على ممر ضيّق بين حقول الأرز ٠ ومرا من وقت الى آخر ببيوت ريفية استكانت بحميمية ودية في غابة من أشجار الخيزران ٠ واستطابت كيتي الخمول ، فقد كان بهيجاً أن ترى ما حولها في الريف الواسع ، بعد أن ظلّت محبوسة في المدينة ، ٠ وصلا الى الدير البوذيّ الذي يعلو مباني خفيضة تنتصب الى جانب النهر تظللها أشجار على نحو جميل ، وقادهما كهنة مبتسمون في أنحاء أفنية خالية خلواً مهيباً ، وأروهما المعابد وما فيها من آلهة مكشّرة٠ وفي المحراب ، جلس بوذا ، بعيداً وحزيناً ، كئيباً ، ذاهلاً ومبتسماً إبتسامة طفيفة ٠ وأحاط بكل شيء إحساس بالكآبة ، وكانت روعة المكان مهلهلة وخَرِبة ، والآلهة مغبّرة ، والأيمان الذي صنعها يحتضر ٠ وبدا أن الرهبان باقون على مضض ، كأنهم ينتظرون إشعاراً بالمغادرة ، وكانت في ابتسامة رئيس الدير ، بأدبه الجم، سخرية استسلام ٠ وفي أحد هذه الأيام ، سيتجوّل الرهبان مبتعدين عن الغابة الظليلة المبهجة ، وستقوّض عواصف هوجاء

Amly نهضة العرب

المباني المنهارة والمهملة ، وتحاصرها الطبيعة المحيطة بها . وستلف النباتات المعرّشة البرية نفسها حول الصور الميّتة وستنمو الأشجار في الأفنية . ثم لن تعود الآلهة تقيم هناك ، بل ستقيم هناك أرواح الظلام الشريرة .

LIV

جلسا على درجات مبنى صغير (أربعة أعمدة مطلية بطلاء لكْ وسقف هال مبلّط ينتصب تحته جرس برونزي كبير) وراقبا النهر يتدفّق متكاسلاً، حيث الكثير من المنعطفات ، متجهاً نحو المدينة الموبوءة . كان يمكنهما أن يريا جدران المبنى بشرفات إطلاق النار فيهما . وتعلّقت الحرارة فوقه كطيلسان . وكان لا يزال في النهر ، الذي يتدفّق ببطء بالرغم من ذلك ، إحساسٌ بالحركة يثير في الإنسان شعور كآبة بسرعة زوال الأشياء . فكل شيء يمضي ، وأي أثر يبقى بعد مضيّه ؟ بدا لكيتي أنهم كلهم ، العنصر البشري ، يشبهون قطرات ماء تتدفّق الى الأمام في ذلك النهر ، وكل قطرة منها لصق الأخرى ومنفصلة عن بعضها في نفس الوقت ، مكوّنة طوفاناً لا إسم له نحو البحر . وحين تستمر كل الأمور لفترة قصيرة من الزمن ، وحين لا يكون هناك أي شيء ذا أهمية كبيرة ، يبدو أنه من المثير للرثاء أن يعلّق الناس أهمية سخيفة على الأمور التافهة ، فيشقون أنفسهم ويشقى أحدهم الآخر الى حد كبير .

سألتْ وادينجتون وإبتسامة ترتسم في عينيها الجميلتين :

- هل تعرف حدائق هارينجتون ؟

- لا ، لماذا ؟

- لا شيء ، إنها بعيدة جداً من هنا ، إنها المنطقة التي يعيش فيها أهلي .

Amly نهضة العرب

- أتفكران بالعودة الى الوطن ؟
- لا .
- أظن أنكما سترحلان عن هنا خلال شهرين . فالوباء يبدو أنه يخفّ وسينهيه الطقس البارد .
- أكاد أظن أنني سآسف على مغادرة هذا المكان .

وفكّرت للحظة من الزمن في المستقبل . لم تعرف ما هي الخطط التي تدور في عقل وولتر . فهو لم يخبرها بشيء . فقد كان بارداً ، ومؤدباً وصامتاً وغامضاً . إنهما نقطتان صغيرتان في ذلك النهر المتدفّق بصمت نحو المجهول ، نقطتان تبدوان لهما وقد اكتسبت كل منهما فردية شديدة التميّز عن الأخرى وتبدوان للمشاهدين جزءاً لا ينفصل عن الماء .

قال وادينجتون بابتسامته الخبيثة :

- إحذري من أن تبدأ الراهبات في تحويلك الى مذهبهن .
- إنهن أكثر إنشغالاً من أن يقمن بهذا . وهن لا يحفلن بهذا . إنهن مدهشات ولطيفات جداً ، ومع ذلك- لا أكاد أعرف كيف أفسّر هذا - ثمة جدار بيني وبينهن . أنا لا أعرف ما هو . كأن لديهن سر سبّب كل الفرق في حياتهن وأنا لستُ جديرة بمشاركتهن فيه . إنه ليس إيماناً، إنه شيء أعمق وأكثر - أكثر أهمية : إنهن يتحركن في عالم يختلف عن عالمنا ، وسنكون دائماً غرباء بالنسبة اليهن . وأنا أحسّ كل يوم حين يغلق الدير أبوابه خلفي ، بأنني كففتُ عن الوجود بالنسبة اليهن .

ردّ عليها هازئاً :

- إنني أفهم إن هذا يشكّل صدمة لغرورك الى حد ما .
- غروري .

هزّت كيتي كتفيها . ثم ابتسمتْ مرة أخرى ، والتفتت اليه بكسل .

- لماذا لم تقل لي قط بأنك تعيش مع أميرة من أسرة مانشو ؟

Amly نهضة العرب

- ما الذي كانت ترويه لك تلك النسوة العجائز الثرثارات ؟ أنا متأكد من أنه من الخطيئة على راهبات أن يخضن في شؤون موظفي الجمارك الخاصة .

- لماذا أنتَ شديد الحساسية الى هذا الحد ؟

غضّ وادينجتون نظره ، ونظر جانباً ، مما أضفى عليه جواً من الخبث . وهزّ كتفيه هزّة خفيفة .

- إنه ليس أمراً للدعاية . ولا أعرف أنه سيضيف إضافة كبيرة لفرص ترقيتي في الخدمة .

- هل أنتَ متيّم بها ؟

رفع نظره الآن ، وارتسمت على وجهه الصغير القبيح نظرة تلميذ مدرسة شقي .

- لقد هجرتْ كل شيء من أجلي ، البيت . الأسرة ، الأمن ، واحترام الذات . لقد مرّت سنين عديدة الآن منذ أن ألقت بكل شيء للرياح لكي تكون معي . لقد أرسلتُ بها بعيداً مرتين أو ثلاث مرات . لكنها كانت تعود دائماً ، وقد هربتُ منها أنا نفسي ، لكنها تبعتني دائماً . وها أنا الآن أتخلى عن هذا كعمل سيء ، وأظن أنني يجب أن أحتملها بقية عمري .

- لا بد أنها تحبك حقاً الى حد الجنون .

أجاب مغضّناً جبهة ترتسم عليها الحيرة :

- إنه إحساس مضحك الى حد ما ، كما تعرفين . ليس لديّ أدنى شك بأنها ستنتحر بالتأكيد إنْ أنا هجرتها حقاً . ولن تنتحر وهي تحسّ بأي شعور سيء نحوي ، بل ستفعل ذلك على نحو طبيعي جداً ، لإنها غير راغبة في أن تعيش بدوني . إنه شعور غريب تثيره في الإنسان معرفته لذلك . ولا يمكن إلاّ أن يعني شيئاً بالنسبة اليك .

- لكن المهم هو أن يحب الإنسان ، وليس أن يكون محبوباً . فالإنسان ليس حتى بمنون للناس الذين يحبونه ، فإن كان الإنسان لا

Amly نهضة العرب

يحبهم ، فإنهم سيثيرون الملل في نفسه .

أجاب :

- ليست لديّ خبرة بالجمع ، فخبرتي هي بالمفرد فقط .

- أهي حقاً أميرة من الأسرة الإمبراطورية ؟

- لا ، فذلك مبالغة رومانسية من الراهبات . إنها تنتمي الى واحدة من الأسر العظيمة للمانشو ، لكن الثورة دمرتهم طبعاً . ومع ذلك ، فهي سيدة عظيمة جداً .

وذكر هذا بلهجة فخر ، فخفقت إبتسامة في عينيّ كيتي .

- هل ستقيم هنا باقي عمرك إذن ؟

- في الصين ؟ نعم . ما الذي سأفعله في مكان آخر ؟ وحين أتقاعد ، سآخذ بيتاً صينياً صغيراً في بكين وأقضي بقية أيامي هناك .

- هل لديك أي أطفال ؟

- لا .

نظرت اليه بفضول . كان من الغريب أن هذا الرجل الصغير أصلع الرأس بوجهه القرديّ أثار في المرأة الغريبة عاطفة مدمّرة كهذه . لم تعرف لماذا أثارت فيها الطريقة التي تكلّم بها عنها ، بالرغم من سلوكه العرضي وتعبيراته المستخفّة ، إنطباعاً بهذه القوة عن وفاء المرأة الشديد والفريد . أزعجها هذا قليلاً. وابتسمت ثم قالت :

- يبدو أن المسافة الى حدائق هارينجتون طويلة جداً .

- لماذا تقولين ذلك ؟

- أنا لا أفهم شيئاً . فالحياة غريبة جداً . أشعر كإنسان عاش طيلة حياته الى جانب بركة بط ثم أُرِيَ البحر فجأة . إن هذا يجعلني منقطعة الأنفاس قليلاً ، ومع ذلك فهو يملأني بالمعنويات العالية . إنني لا أريد أن أموت ، أريد أن أعيش . وقد بدأت أحس بشجاعة جديدة ، إنني أحس كأحد أولئك البحارة القدماء الذين يبحرون بحثاً عن البحار غير المكتشفة ، وأظن أن روحي تتوق توقاً شديداً للمجهول .

Amly نهضة العرب

نظر وادينجتون اليها متأملاً . واستقرّت تحديقتها الشاردة على نعومة النهر . قطرتان صغيرتان تندفعان بصمت ، بصمت نحو البحر الأبدي المظلم .

سألت كيتي فجأة ، وهي ترفع يدها :

– هل أحضر لأرى سيدة المانشو ؟

– إنها لا تستطيع أن تتكلّم كلمة بالإنجليزية .

– لقد كنتَ لطيفاً جداً معي . لقد قمتَ بالكثير من أجلي ، ربما يمكنني أن أريها بأسلوبي الخاص بأنني أكنّ لها شعوراً ودياً .

ابتسم وادينجتون إبتسامة صغيرة هازئة ، لكنه أجاب بمزاج رائق :

– سآتي وآخذك في أحد الأيام ، وستقدّم اليكِ كوب شاي بالياسمين .

لم تكن لتخبره بأن قصة حب غريبة كهذه قد أثارت خيالها على نحو غريب من أول لحظة ، وقد وقفت أميرة المانشو الآن كرمز لشيء يشير اليها بغموض وإلحاح في نفس الوقت . إنها تشير إشارة مبهمة الى أرض سرية للروح .

LV

لكن كيتي اكتشفت إكتشافاً غير متوقّع بعد يوم أو يومين .

فقد ذهبت الى الدير كالعادة وبدأت تقوم بأول أعمالها وهو التأكّد من أن الأطفال كانوا قد اغتسلوا وارتدوا ملابسهم . وحيث أن الراهبات كنّ يعتقدن أن هواء الليل مضر ، فقد كان الجو داخل المهاجع مغلقاً وكريه الرائحة . وكان هذا يجعل كيتي ، بعد انتعاش الصباح ، منزعجة قليلاً ، فتسارع بفتح أكبر عدد من النوافذ التي تستطيع فتحها . لكنها أحسّت اليوم بأعياء شديد فوقفتْ عند النافذة ورأسها يهوّم سابحاً ، محاولةً أن تهدّيء نفسها . لم تكن بمثل هذا السوء من قبل . ثم غلبها الغثيان فتقيأتْ . وأطلقت صرخة فخاف الأطفال ،

Amly نهضة العرب

وأسرعت نحوها الفتاة الكبرى التي كانت تساعدها ، لكنها توقّفت فجأة بعد أن رأت كيتي بيضاء الوجه وترتعد ، وأطلقتْ صيحة إستغراب : كوليرا ! أومضتْ الفكرة متخللة عقلها وسيطر عليها شعور شبيه بالموت، ثم تملّكها رعب ، وكافحت للحظة ضد الليل الذي بدا أنه يتخلل عروقها بسرعة وألم مبرّح ، وأحسّت بالمرض على نحو مرعب ، ثم حلّ الظلام .

حين فتحت عينيها ، لم تعرف في البداية أين كانت . بدا أنها تستلقي على الأرضية وتحرّك رأسها تحريكاً طفيفاً ، وهيء اليها أن تحتها وسادة . لم تستطع أن تتذكّر . كانت الأم الرئيسة تركع الى جانبها ، مقرّبة أملاح النشادر الى أنفها ، بينما وقفتْ الأخت القديس جوزيف ناظرة اليها . ثم عادت : كوليرا ! رأت التجهّم على وجوه الراهبات وبدت الأخت القديس جوزيف هائلة الحجم كما بدت معالمها غبشاء . وسيطر عليها الرعب ثانية . نشجت قائلة :

– أوه ، يا أمي ، يا أمي ، هل سأموت ؟ لا أريد أن أموت .

قالت الأم الرئيسة :

– طبعاً لن تموتي .

كانت هادئة تماماً ، وفي عينيها مرح .

– لكنها الكوليرا . أين وولتر ؟ هل أرسلتم وراءه ؟ أوه يا أمي ، يا أمي .

وانفجرت في فيض من الدموع . مدّت الأم الرئيسة يدها فأمسكتها كيتي كأنها كانت تقبض على الحياة التي كانت تخشى أن تفقدها .

– تشجعي ، تشجعي يا طفلتي العزيزة ، يجب ألاّ تكوني سخيفة . إنها ليست الكوليرا أو أي شيء من هذا القبيل .

– أين وولتر ؟

– إن زوجك مشغول جداً الى حد أننا لن نزعجه . وخلال خمس دقائق ستتحسّن صحتك تماماً .

Amly نهضة العرب

نظرت اليها كيتي بعينين محملقتَيْن تعبتَيْن . لماذا تأخذ الأمر على هذا النحو من الهدوء ؟ إن هذا لقسوة.

قالت الأم الرئيسة :

- إهدأي تماماً لدقيقة . ليس هناك شيء تزعجي نفسك به .

أحسّت كيتي بقلبها يخفق بجنون . فقد اعتادت على التفكير بالكوليرا الى حد أنه بدا أن من غير الممكن أن تصاب بها . أوه ، يا للبله الذي كانت عليه ! لقد عرفت بأنها كانت ستموت . لقد كانت خائفة. أدخلت الفتيات كرسيّ خيزران راتان الى الغرفة ووضعته قرب النافذة .

قالت الأم الرئيسة :

- تشجعي ، لنرفعك ، ستشعرين بالراحة أكثر على كرسي طويل chaise longue ، أتظنين بأنكِ يمكنك أن تقفي ؟

وضعت يديها تحت ذراعيّ كيتي ، وساعدتها الأخت القديس جوزيف لتقف على قدميها . فغطست في الكرسي منهكة القوى .

قالت الأخت القديس جوزيف .

- يحسن أن أغلق النافذة . لا يمكن أن يكون هواء الصباح الباكر مناسباً لها .

قالت كيتي :

- لا ، لا ، أبقيه مفتوحاً من فضلك .

لقد بثّت رؤية السماء الزرقاء الثقة في نفسها . كانت مهتزة ، لكنها بدأت تحسّ بالتحسّن على نحو مؤكد . نظرت الراهبتان اليها للحظة في صمت ، وقالت الأخت القديس جوزيف شيئاً الى الأم الرئيسة لم تستطع هي أن تفهمه . ثم جلست الأم الرئيسة على جانب الكرسي وأمسكت بيدها .

- إسمعي يا طفلتي العزيزة ma chere enfant ...

وسألتها سؤالاً أو سؤالين . فأجابتها كيتي عليهما دون أن تعرف

Amly نهضة العرب

ماذا كانا يعنيان . كانت شفتاها ترتعدان الى حد أنها لم تكن تستطيع صياغة الكلمات إلاّ بصعوبة .

قالت الأخت القديس جوزيف :

- لا شك في هذا . أنا لست التي تُخدع في أمر كهذا .

أطلقت ضحكة بدا أن كيتي تميّز فيها إنفعالاً معيّناً وليس حناناً قليلاً. إبتسمت الأم الرئيسة ، وهي تمسك بيد كيتي ، برقة ناعمة .

- إنّ لدى الأخت القديس جوزيف خبرة في هذه الأمور أكثر مما لديّ يا طفلتي العزيزة ، وقد ذكرت على الفور ما الذي تعانين منه . وهي على حق تماماً على نحو واضح .

قالت كيتي بقلق :

- ماذا تعنين ؟

- إنه لأمر واضح تماماً . ألم يخطر في بالك إطلاقاً إمكانية حدوث أمر كهذا لك ؟ أنت تحملين طفلاً ، يا عزيزتي .

جفلت كيتي الى حد أنها اهتزت من رأسها الى قدميها ، ثم وضعت قدميها على الأرض كأنها كانت ستقف على قدميها .

قالت الأم الرئيسة :

- إهدأي ، إهدأي .

أحسّت كيتي بنفسها تتضرج إحمراراً على نحو عنيف ، ووضعت يديها على نهديها .

- إن هذا مستحيل . إن هذا ليس صحيحاً .

سألت الأخت القديس جوزيف :

- Qu'est - ce qu'elle dit ? ماذا تقول ؟

ترجمت الأم الرئيسة قولها . وكان وجه الأخت القديس جوزيف البسيط العريض يشعّ ، بوجنتيه الحمراوين .

- ليس من الممكن أن تكون هناك أية غلطة . أعدك وعد شرف .

سألت الأم الرئيسة :

Amly نهضة العرب

– كم مضى عليك وأنت متزوجة يا طفلتي ؟ لماذا ، حين تزوجتْ زوجةُ أخي ومضى عليها نفس مدة زواجك ، وضعتْ طفلين .

غطست كيتي في الكرسي ، وتسلل موت الى قلبها .

همست :

– إنني خجلة جداً .

– لإنك ستضعين طفلاً ؟ لماذا ، ما الذي يمكن أن يكون أكثر طبيعية ؟

قالت الأخت القديس سانت جوزيف :

– Quelle joie pour le docteur يا للسرور الذي سينتاب الدكتور؟

– نعم . فكّري بمدى السعادة التي سيحس بها زوجك ، سيسيطر عليه الفرح . سترينه فقط مع الأطفال والنظرة ترتسم على وجهه حين يلعب معهم ، سترين مدى السحر الذي سيسيطر عليه ولديه طفل من صلبه.

ولوهلة قصيرة ، ظلّت كيتي صامتة . نظرت اليها الراهبتان باهتمام رقيق ومسحت الأم الرئيسة على يدها.

قالت كيتي :

– إنه لمن الغباء ألاّ أكون قد شككتُ بهذا من قبل . على كل الأحوال ، إنني مسرورة لإنها ليست الكوليرا . إنني أحسّ بالكثير من التحسّن . سأعود الى عملي .

– لا ، ليس اليوم يا طفلتي العزيزة . لقد أصبت بصدمة . يحسن بك أن تعودي الى البيت وتريحي نفسك.

– لا ، لا ، أفضّل كثيراً أن أبقى هنا وأعمل .

– إنني ألحّ . ما الذي سيقوله لنا طبيبنا الطيّب إنْ تركتك تتهوّرين ؟ تعالي غداً ، إنْ أردتِ ، أو في اليوم التالي ، لكنك يجب أن تهدأي اليوم. سأطلب محفّة . أتودين أن أدع إحدى فتياتنا الصغار تذهب معك ؟

– أوه ، لا ، سأكون على ما يرام وحدي .

Amly نهضة العرب

LVI

· كانت كيتي تستلقي على سريرها ، والمصاريع الخشبية مغلقة · كان الوقت قد تجاوز وجبة الغداء ونام الخدم· وكان ما علمته في ذلك الصباح (وهي الآن متأكدة من أن ذلك حقيقيّ) قد ملأها بالرعب · وقد ظلّت تحاول أن تفكّر بالأمر منذ أن عادت الى البيت ، لكن عقلها كان خاوياً· ولم تستطع أن تجمّع أفكارها· ثم سمعت فجأة خطوة ، كانت القدمان منتعلتين جزمة ، فلا يمكن أن يكون أحد الصبية الخدم ، فأدركت وهي تطلق شهقة رعب بأنه لا يمكن أن يكون سوى زوجها · كان في غرفة الجلوس وسمعت نداء موجهاً اليها · لم تجب ، رانت فترة صمت ثم انطلقت طرقة على بابها ·

– نعم ؟

– هل تسمحين لي في الدخول ؟

نهضت كيتي من سريرها وارتدت مبذلاً :

– نعم ·

دخل · كانت مسرورة لإن المصاريع الخشبية المغلقة أحاطت وجهها بالظل ·

– آمل ألاّ أكون قد أيقظتك · لقد طرقتُ طرقاً خفيفاً جداً جداً ·

– لم أكن نائمة ·

إتجه الى النوافذ وفتح المصاريع · واندفع فيض من نور دافيء الى داخل الغرفة ·

سألت :

– ماذا هناك ؟ لماذا عدتَ مبكراً على هذا النحو ؟

– قالت الأخوات أنك لم تكوني في صحة جيدة جداً · لقدفكّرت أنه يحسن أن أحضر وأرى ما الأمر ·

تخللتها ومضةٌ من غضب ·

Amly نهضة العرب

– ماذا كنتَ ستقول لو كانت كوليرا ؟
– لو كانت كوليرا لما استطعتِ أن تمضي الى البيت هذا الصباح بالتأكيد .

إتجهت الى منضدة الزينة وأمرّت المشط خلال شعرها المقصوص قصّة قصيرة . أرادت أن تكسب الوقت . ثم أشعلت سيجارة بعد أن جلست .

– لم أكن في صحة جيدة هذا الصباح ، وقد فكّرت الأم الرئيسة أن من الأفضل أن أعود الى هنا . لكنني الآن على ما يرام تماماً . سأذهب الى الدير كالعادة غداً .
– ماذا كان بك ؟
– ألم يخبرنك ؟
– لا . قالت الأم الرئيسة أنكِ يجب أن تخبريني أنتِ بنفسك .

وفعل ما يفعله نادراً : تفرّس في وجهها ، كانت غرائزه المهنية أقوى من غرائزه الشخصية . ترددت ، ثم أجبرت نفسها على أن تقابل عينيه .

قالت :

– سأضع طفلاً .

كانت قد اعتادت على عادته في أن يواجه بصمت تصريحاً تتوقع توقّعاً طبيعياً أن يثير استغراباً ، لكن تلك العادة لم تبد لها قط أكثر تدميراً مما هي الآن . لم يقل شيئاً ، لم يقم بأية إشارة ، ولم تدل أية حركة على وجهه ولا تغيير تعبير في عينيه الداكنتين الى أنه سمعها . أحسّت فجأة بميل للبكاء . فلو أن رجلاً يحب زوجته وتحبه زوجته ، لجمعت بينهما عاطفة جارفة في لحظة كهذه . كان الصمت غير محتمل، فقطعته .

– لا أعرف لماذا لم يخطر هذا ببالي من قبل . كان غباء مني ، لكن .. ماذا تكون الحال وشيء يجري هنا وهناك ...

Amly نهضة العرب

- كم مضى عليكِ ... متى تتوقّعين أن تضعي ؟

بدا أن الكلمات تصدر من بين شفتيه بصعوبة . أحسّت أن حلقه كان جافاً كحلقها . كان من المزعج لها أن شفتيها ارتعدتا على ذلك النحو حين تكلّمت ، لو أنه لم يكن حجراً ، لأثارت حالها شفقته .

- أظن أنني كنت على هذه الحال خلال شهرين أو ثلاثة أشهر .

- هل أنا الأب ؟

أطلقت شهقة طفيفة . خيّم ظل طفيف من رجفة في صوتها ، وكان من المرعب أن سيطرته الباردة على نفسه هي التي جعلت الإشارة الصغيرة من الإنفعال مدمراً . لم تعرف السبب الذي جعلها تفكّر فجأة بأداة كانت تُعرض في هونج كونج وعليها إبرة تتذبذب قليلاً ، وقد أعلمت بأن هذه الذبذبة تمثّل هزة أرضية وقعت على بعد ألف ميل ولعل ألف إنسان قد فقدوا حياتهم . نظرت اليه . كان شاحباً شحوباً مريعاً. لقد رأت ذلك الشحوب عليه مرة واحدة ، مرتين من قبل . كان يغض النظر ، وينظر من الجانبين .

- حسناً ؟

قبضت يديها . كانت تعرف بأنها لو كان يمكنها أن تقول نعم ، لعنى له هذا كل شيء في العالم . كان سيصدّقها ، سيصدّقها طبعاً ، لإنه يريد أن يصدّقها ، ثم سيصفح . كانت تعرف مدى عمق حنانه ومدى استعداده في أن يظهر هذا الحنان ، بالرغم من كل خجله . إنها تعرف بأنه لم يكن ميّالاً للإنتقام ، فهو سيصفح عنها لو أنها استطاعت فقط أن تقدّم اليه عذراً ، عذراً يلمس قلبه ، فيغفر لها تماماً . بوسعها أن تعتمد عليه في ألاّ يرمي الماضي في وجهها . قد يكون قاسياً ، بارداً وكئيباً ، لكنه لم يكن دنيئاً ولا حقيراً . لو قالت نعم ، لتغيّر كل شيء .

وكانت في حاجة ملحة الى الحنان . إن معرفتها غير المتوقّعة بأنها حامل قد سيطرت عليها بآمال غريبة ورغبات غير متوقعة . أحسّت بالوهن وبقليل من الخوف ، وهي وحيدة وبعيدة جداً عن أي من

Amly نهضة العرب

أصدقائها . وأحسّت فجأة في ذلك الصباح ، وبالرغم من أنها كانت قليلة الإهتمام بأمها ، بالشوق الى أن تكون معها . كانت في حاجة الى العون والعزاء . إنها لم تحب وولتر ، وكانت تعرف بأنها لن تستطيع قط أن تحبه ، لكنها تاقت في هذه اللحظة ، وبكل قلبها ، الى أن يأخذها بين ذراعيه حتى يمكنها أن تضع رأسها على صدره، وكان يمكنها أن تبكي سعادةً وهي متشبثة به ، وكانت تريد أن تقبّله وتريد أن تلف ذراعيها حول رقبته .

بدأت تبكي . لقد كذبت كثيراً جداً ويمكنها أن تكذب بسهولة جداً. أي فرق يمكن أن تشكّله كذبة حين يمكن أن تكون خيّرة ؟ كذبة ، كذبة ، ما الضرر من كذبة ؟ كان من السهل أن تقول نعم . رأت عينيّ وولتر تذوبان وذراعيه تمتدان نحوها . لا يمكنها أن تردد هذه الكذبة ، إنها لا تعرف لماذا ، إنها لا تعرف فقط . كل تلك الأمور التي مرّت بها خلال هذه الأسابيع المريرة ، تشارلي وقسوته ، الكوليرا وكل هؤلاء الناس الذين يموتون ، الراهبات وحتى ، وعلى نحو يدعو للغرابة تماماً ، ذلك الوالينجتون المضحك السكير الضئيل ، كل هذا بدا أنه غيّرها الى حد أنها لم تعرف نفسها ، بالرغم من أنها كانت قد تأثّرت بعمق شديد ، وبدا كأن شخصاً عابراً في نفسها يراقبها وهو مرتعب ومندهش. كان عليها أن تذكر الحقيقة. ولم يبد أن ترديدها الكذب يستأهل الجهد المبذول . تجوّلت أفكارها تجوالاً غريباً : فقد رأت فجأة الشحّاذ الميّت أسفل السور . لماذ يجب أن تفكّر فيه ؟ لم تنتحب ، بل سالت الدموع على وجهها بسلاسة تامة من عينيها الواسعتين . وأخيراً، أجابت على السؤال . لقد سألها إنْ كان هو أبا الطفل .

قالت :

- لا أعرف .

أطلق شبح قهقهة . فأشاعت الرعدة في كيتي .

- إنه وضع محرج قليلاً ، أليس كذلك ؟

Amly نهضة العرب

كان جوابه يحمل خصائصه الشخصية ، كان بالضبط ما كانت تتوقع منه قوله ، لكنه جعل قلبها يغوص. تساءلتْ مستغربة إنْ كان قد أدرك مدى الصعوبة التي كانت تواجهها لذكر الحقيقة (وأدركت في نفس اللحظة بأنه لم يكن من الصعب إطلاقاً أن تقول الحقيقة ، بل كان حتمياً عليها) وإنْ كان سينصفها عند ذكرها الحقيقة . وتردّد جوابها : *أنا لا أعرف ، لا أعرف* وطرق كمطرقة في رأسها . وكان من المستحيل الآن أن تتراجع عنه . أخرجت منديلها من حقيبتها وجففت عينيها . لم ينبسا بكلمة . كان على الطاولة الى جانب سريرها ممص siphon ، فصبّ لها كأس ماء . جلب اليها الكأس وأمسك بالكأس وهي تشرب . لاحظت مدى هزال يده ، وكانت يداً رقيقة ودقيقة بأصابع طويلة ، لكنها أصبحت الآن لا شيء سوى جلد على عظم ، فارتجفت قليلاً : إنه يستطيع السيطرة على وجهه ، لكن يده خانته .

قالت :

– لا تبال ببكائي . إنه لا شيء حقاً ، إن الأمر فقط هو أنني لا أستطيع منع الدموع من الإندفاع من عينيّ .

شربت الماء ، فأعاد الكأس الى الطاولة . جلس على كرسي وأشعل سيجارة . أطلق تنهيدة صغيرة . لقد سمعته مرة أو مرتين يتنهّد على ذلك النحو وكانت هذه التنهيدة تخز قلبها دائماً . واندهشت الآن وهي تنظر اليه ، فقد كان يحدّق تحديقة ذاهلة الى خارج النافذة ، لأنها لم تلاحظ من قبل مدى نحوله الرهيب الذي بلغه خلال الأسابيع الماضية . كان صدغاه غائرين وظهرت عظام وجهه من خلال جلده . وتعلّقت ملابسه عليه فضفاضة كأنها خيطت لرجل أكبر منه حجماً . ظهر من خلال وجهه الملوّح بالشمس شحوبٌ مخضرّ . بدا منهوك القوى . فقد كان يعمل بجد بالغ ، وينام قليلاً ، ولا يأكل شيئاً . وفي غمره حزنها واضطرابها ، وجدت مجالاً للرثاء له . كان من القسوة أن تفكّر بأنه لم يكن باستطاعتها فعل أي شيء له .

Amly نهضة العرب

وضع يده فوق جبهته ، كأن رأسه كان يؤلمه ، وأحسّت بأن تلك الكلمات كانت تطرق في دماغه أيضاً بجنون كمطرقة: لا *أعرف* ، لا *أعرف* . كان من الغريب أن يحس هذا الرجل متقلّب المزاج والبارد والخجول بحنان طبيعي نحو الأطفال الصغار جداً ، فأغلبية الرجال لا يبالون كثيراً حتى بأطفالهم ، لكن الراهبات تكلمن عن هذا أكثر من مرة وهن متأثرات ومتعجّبات قليلاً . إنْ كان يشعر نحو أولئك الأطفال الصينيين الصغار المضحكين على ذلك النحو ، فماذا سيكون شعوره نحو أطفاله ؟ عضّت كيتي شفتيها لتمنع نفسها من البكاء ثانية .

نظر الى ساعة يده .

- أخشى أنني لا بد أن أعود الى المدينة . لديّ الكثير مما سأفعله اليوم... هل ستكونين بخير ؟

- أوه ، نعم . لا تهتم بي .

- أظن أنه يحسن بكِ ألاّ تنتظريني هذا المساء . قد أتأخر كثيراً ، وقد أتناول بعض الطعام عند العقيد يو .

- حسناً جداً .

نهض .

- لو كنتُ مكانك لما حاولتُ القيام بأي شيء اليوم . يحسن بك أن تأخذي الأمور ببساطة . هل هناك أي شيء تريدينه قبل أن أذهب ؟

- لا ، شكراً . سأكون على ما يرام تماماً .

صمت للحظة ، كأنه كان متردداً ، ثم أخذ قبّعته فجأة دون أن ينظر اليها وخرج من الغرفة . سمعته يسير داخل المجمّع . أحسّت بالوحدة على نحو رهيب . ليس هناك داع لكبح جماح نفسها الآن ، فأطلقت العنان لثورة الدموع .

Amly نهضة العرب

LVII

كان الليل شديد الحرارة والرطوبة ، وظلّت كيتي جالسة عند النافذة ناظرة الى أسطح المعبد الصيني الخيالية المعتمة قبالة أنوار النجوم ، حتى عاد وولتر الى البيت أخيراً . كانت عيناها ثقيلتين بالدموع لكنها كانت هادئة . وبالرغم من كل ما كان يزعجها ، إلاّ أنها أحسّت بالهدوء على نحو غريب ، لعل هذا ناتج عن التعب المنهك الذي تحس به .

قال وولتر حالما دخل البيت :

– ظننت أنكِ ستكونين في السرير .

– لم أكن نعسة . رأيت أنه سيكون أبرد إنْ أنا ظللتُ جالسة هنا . هل تناولتَ أي عشاء ؟

– كلّ ما إريده .

ذرع الغرفة الطويلة ذهاباً وإياباً ، فرأت أن لديه ما يقوله لها . كانت تعرف أنه كان مرتبكاً . وبلا مبالاة ، انتظرتْ أن يستقر على رأي . فبدأ على حين غرة :

– ظللتُ أفكّر فيما أخبرتني به بعد ظهر هذا اليوم . يبدو لي أنه سيكون من الأفضل أن ترحلي . لقد تكلّمتُ مع العقيد يو وسيقدّم الهك مرافقاً . ويمكنك أخذ الأمَة معك . ستكونين آمنة تماماً .

– الى أي مكان يمكنني أن أذهب ؟

– يمكنك الذهاب الى بيت أمك .

– هل تظن أنها ستسر لرؤيتي ؟

صمت للحظة ، متردداً ، كأنه كان يفكّر في الأمر .

– إذن يمكنك الذهاب الى هونج كونج .

– ما الذي سأفعله هناك ؟

– ستحتاجين الى الكثير من العناية والإهتمام . أظن أن من غير الإنصاف أن أطلب منك البقاء هنا .

Amly نهضة العرب

لم تستطع منع نفسها من الإبتسام ، ليس من المرارة فقط بل من الفرحة الصريحة التي عَبَرت وجهها . ألقت عليه نظرة سريعة وكادت أن تضحك.

- لا أعرف السبب الذي يجعلك قلقاً جداً على صحتي .

اقترب من نافذتها ناظراً الى الخارج الى الليل . لم يكن هناك الكثير جداً من النجوم في السماء الخالية من السحب .

- ليس هذا مكان ملائم لإمرأة في وضعك .

نظرت اليه ، وهو أبيض في ملابسه الرقيقة قبالة الظلام ، ارتسم على جانبيّة وجهه الرقيق شيء شرير ، ومن العجيب أن هذا لم يثر فيها أي خوف في هذه اللحظة .

سألت فجأة :

- هل أردتَ أن تقتلني حين ألححتَ عليّ في المجيء الى هنا .

مرّت لحظة طويلة جداً عليه ليجيب حتى أنها فكّرت في أنه رفض أن يسمعها .

- في البداية .

ارتعشت رعشة طفيفة ، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أقرّ فيها بقصده . لكنها لم تحمل له أية ضغينة بسبب هذا . لقد أدهشها شعورها ، فقد كان يخالطه إعجاب معيّن وفرح طفيف . لم تعرف السبب تماماً ، لكنه بدا لها أنه أبله تماماً بعد أن فكّرت فجأة بتشارلي لاونسيند .

أجابت :

- لكنها كانت مخاطرة رهيبة هي التي تعرّض نفسك لها . فأنا أتساءل مستغربة إنْ كنتَ ستغفر لنفسك إنْ أنا متُ ولك ضميرك الحسّاس .

- حسناً ، أنتِ لم تموتي . لقد ازدهرتْ حياتك .

- لم أكن في حال أفضل من حالي الآن .

تملّكها إحساس غريزي في أن ترمي بنفسها تحت رحمة مزاجه .

Amly نهضة العرب

وبعد كل ما مرا به من معاناة ، وفيما هما يعيشان بين مشاهد الرعب والقفر ، بدا أن من غير الملائم ربط الكثير من الأهمية الى فعل الزنا السخيف . وبينما الموت ينتصب متربّصاً حول الركن ، حاصداً الأرواح كبستانيّ يخرج البطاطا من الأرض ، فإن من البلاهة إيلاء أية أهمية للأمور القذرة التي يرتكبها هذا الشخص أو ذاك بجسده . لو أنها استطاعت فقط أن تجعله يدرك مدى ضآلة ما يعنيه تشارلي لها ، حتى أنها تجد الآن صعوبة في استعادة ملامحه في خيالها ، وكيف أن حبه خرج من قلبها تماماً ! ولإنها لا تحسّ بأية عواطف نحو تاونسيند ، فقد فقدت الأفعال التي اقترفتها معه أهميتها . لقد استعادت قلبها ، فبدا أن ما قدّمته من جسدها ليس له أية أهمية . لقد راودتها الرغبة في أن تقول لوولتر : " إسمع ، ألا ترى أننا ظللنا سخفاء الى مدة طويلة كافية؟ لقد كشّرنا في وجوه بعضنا كأطفال . لماذا لا نستطيع أن نقبّل بعضنا بعضاً ونصبح أصدقاء ؟ ليس هناك من سبب يحول بيننا وبين أن نصبح أصدقاء لإننا لسنا عاشقَيْن . "

وقف ساكناً بلا حراك وأحال نور المصباح شحوبَ وجهه الجامد مروّعاً . لم تثق به ، فلو أنها رددت القول الخاطيء لانقضّ عليها بذلك التجهّم الثلجي . إنها تعرف الآن حساسيته المفرطة التي كانت سخريته اللاذعة وقاية لها ، ويا لسرعته في تمكنه في غلق قلبه إنْ أوذيت مشاعره . وأحسّت بغيظ للحظة واحدة من غبائه . ومن المؤكّد أن أكثر ما يزعجه هو الجرح الذي أصاب غروره ، وقد تبيّنت على نحو غامض أن هذا هو أقسى الجروح التي يصعب الشفاء منها . إن من الغريب أن الرجال يضفون الكثير جداً من الأهمية على إخلاص زوجاتهم ، فحين خرجت أول مرة مع تشارلي ، توقّعت أن تحس بأنها مختلفة تماماً ، أنها إمرأة متغيّرة ، لكنها بدت الآن لنفسها بأنها ظلّت كما هي تماماً ، لقد أحسّت بغبطة وحيوية أعظم فقط . لقد تمنّت الآن لو أنها كانت قادرة على أن تخبر وولتر بأن الطفل طفله ، ستعني الكذبة القليل جداً

Amly نهضة العرب

لها ، وسيكون الإطمئنان راحة كبيرة له . وبعد كل هذا ، قد لا تكون هذه كذبة ، ومن المضحك أن شيئاً في قلبها منعها من أن تستغل فائدة الشكّ لصالحها . يا لغباء الرجال ! إن جزءهم المتعلّق بالإنجاب غير مهم جداً بالنسبة اليهم ، فالمرأة هي التي تحمل الطفل خلال أشهر طويلة من القلق وتحمله وهي تحس بالألم ، ومع ذلك فإن الرجل يدّعي تلك الإدعاءات المنافية للطبيعة بسبب إتصاله السريع مع المرأة . لماذا يشكّل هذا أي فرق بالنسبة اليه فيما يتعلّق بمشاعره نحو الطفل ؟ ثم انتقلت أفكار كيتي نحو الطفل الذي ستحمله هي ، لم تفكّر فيه بشغف ولا بعاطفة أمومية ، بل بفضول متكاسل .

قال وولتر ، محطماً الصمت الطويل :

- إنني متأكد من أنك ستعيدين التفكير في الأمر قليلاً .

- أفكّر بماذا ؟

التفت قليلاً كما لو كان مندهشاً .

- بموعد رحيلك .

- لكنني لا أريد أن أرحل .

- لِمَ لا ؟

- إنني أحب عملي في الدير . أظن أنني سأجعل من نفسي ذات نفع . إنني أفضّل أن أبقى طالما بقيتَ أنت .

- أظن أني يجب أن أخبرك بأنكِ في حالتك الحالية أكثر إحتمالاً للتعرّض للإصابة بأية عدوى تقع حولك .

إبتسمت بسخرية :

- أحب الطريقة الحذرة في تصويرك للوضع .

- لن تبقيّ هنا من أجلي ؟

ترددت . كان يعرف قليلاً أن أقوى ما يثيره فيها من عاطفة وأكثرها فجائية هي الشفقة .

- لا . أنتَ لا تحبّني . وكثيراً ما كنت أرى أنني أضجرك .

Amly نهضة العرب

- لم أفكّر أنكِ من الأشخاص الذين يقدّمون خدماتهم لراهبات مملات قليلات العدد وحفنة من الأطفال الصينيين .

وانفرجت شفتاها عن إبتسامة .

- أظن أن من غير الإنصاف أن تحتقرني كثيراً لإنك ارتكبت غلطة كهذه في حكمك عليّ . إن الخطأ ليس خطأي انْ كنتَ حماراً على هذا النحو .

- إنْ كنتِ مصممة على أن تبقيّ ، فأنتِ حرة طبعاً في أن تبقيّ .

- آسفة لإنني لا أستطيع أن أتيح لك فرصة إظهار شهامتك .

لقد وجدتْ أن من الصعب صعوبة غريبة أن تكون جادة معه ، فتابعت :

- أنتَ على حق تماماً في الحقيقة ، فأنا لا أبقى هنا من أجل الأيتام فقط ، فأنتَ ترى أنني في وضع غريب لإنه ليس لديّ أي إنسان في العالم أتجه اليه . إنني لا أعرف أحداً لن يعتبرني مزعجة . ولا أعرف أحداً يهتم أدنى إهتمام إنْ كنتُ حيّة أو ميّتة .

قطّب . لكنه لم يقطّب بغضب . قال :

- لقد قمنا بخلط الأمور خلطاً رهيباً ، أليس كذلك ؟

- ألا زلتَ تريد أن تطلّقني ؟ لا أظن أنني عدت أهتم أدنى اهتمام .

- لا بد أن تعرفي أنني بإحضارك الى هنا فإنني أكون قد غفرتُ الإساءة.

- لا أعرف . فأنتَ تعرف بأنني لم أقم بدراسة الخيانة . ما الذي سنفعله حين نغادر هذا المكان ؟ هل سنستمر في العيش معاً ؟

- أوه ، ألا ترين أننا نستطيع أن ندع المستقبل يعتني بنفسه ؟

وتخلل صوتها وهن الموت .

LVIII

بعد يومين أو ثلاثة أيام ، أخرج وادينجتون كيتي من الدير (فقد أغراها قلقها على أن تستأنف عملها على الفور) وأخذها لتشرب كوب الشاي

الموعود مع عشيقته . وكانت كيتي قد تناولت العشاء في بيت وادينجتون في أكثر من مناسبة . كان المبنى مربعاً وأبيض ومميّزاً ، كالمباني التي تبنيها الجمارك لموظفيها في جميع أنحاء الصين ، وكانت غرفة الطعام التي تناولوا فيها الطعام وغرفة الإستقبال التي جلسا فيه مؤثثتَيْن بأثاث أنيق ومتين . وكان له مظهر مكاتب الى حد ما ومظهر فندق الى حد آخر ، ولم يكن هناك ما هو شبيه بالبيت فيها ، فتدرك إن هذه البيوت كانت مجرّد أماكن إقامة عابرة لشاغليها المتعاقبين . ولم يكن ليخطر في بالك أن في الطابق العلوي غموض وربما رومانسية مغلّفة هناك . صعدا الى مجموعة من الدرج وفتح وادينجتون باباً . دخلت كيتي غرفة كبيرة عارية لها جدران بيضاء معلّقة عليها حصائر تزيينيّة جدارية منقوش عليها خطوط مختلفة . والى طاولة مربّعة جلست سليلة المانشو على كرسيّ صلب ذي ذراعين مصنوع من خشب أسود وعليه نقوش كثيرة . وقفت حين دخلت كيتي ووادينجتون ، لكنها لم تخطُ خطوة الى الأمام .

قال وادينجتون :

– ها هي .

وأضاف شيئاً باللغة الصينية .

صافحتها كيتي . كانت نحيلة في ردائها الطويل المطرّز وأطول قليلاً مما توقّعت كيتي التي اعتادت على الناس الجنوبيين . كانت ترتدي جاكتة حرير خضراء شاحبة بكمّين ضيّقين يبلغان رسغيها ، وعلى شعرها الأسود المصفّف جيداً وضعتْ غطاء الرأس الذي تضعه نساء المانشو . كان وجهها مطلياً بمسحوق بينما كانت وجنتاها ، من العينين حتى الفم ، مطليتَيْن بطبقة ثقيلة من الأحمر ، وكان حاجباها المنتوفان خطّين داكنين رفيعَيْن بينما كان فمها قرمزياً . واشتعلت من تحت هذا القناع عيناها السوداوان قليلتا الميل الواسعتان كبحيرتين من كهرمان أسود سائل . بدت كمعبود أكثر منها إمرأة . كانت حركاتها بطيئة وواثقة . وكوّنت

Amly نهضة العرب

كيتي إنطباعاً بأنها كانت خجلة قليلاً لكنها بالغة الفضول . أومأت برأسها مرتين أو ثلاث مرات وهي تنظر الى كيتي ، بينما كان وادينجتون يتكلّم اليها . لاحظت كيتي يديها ، كانتا طويلتَيْن على نحو غير طبيعي ، ورقيقتَيْن جداً ، لهما لون العاج ، وكانت أظافرها الجميلة مطليّة . فكّرت كيتي أنها لم تر قط شيئاً جميلاً جداً كجمال هاتَيْن اليدين الرقيقتين والرشيقتين . إنهما توحيان بعنايةٍ على مر قرون لا تعد ولا تحصى .

تكلّمت قليلاً بصوت عال كتغريد طيور في بستان ، وقال وادينجتون لكيتي ، مترجماً كلامها ، بأنها مسرورة لرؤيتها ، وكم كان عمرها وكم طفلاً أنجبت ؟ جلسوا على ثلاثة كراس مستقيمة حول الطاولة المربّعة ، وجلب صبي آنية الشاي الشاحب والمعطّر بالياسمين . وناولت سيدة المانشو كيتي علبة خضراء لسجائر القلاع الثلاث Three Castles . لم تحوِ الغرفة إضافة الى الطاولة والكراسي إلاّ القليل من الأثاث ، فقد كان هناك سرير عريض بحشيّة عليه متكأ رأس مطرّز كما كان هناك صندوقان من خشب الصندل .

سألت كيتي :

– ما الذي تفعله طيلة النهار ؟

– ترسم قليلاً وتكتب قصيدة أحياناً . لكنها تظل جالسة في أغلب الأحيان . إنها تدخّن ، لكنها تدخّن باعتدال ، وهذا من حسن الحظ ، فأحد الواجبات الملقاة على عاتقي هو منع تداول الأفيون .

سألت كيتي :

– هل تدخّن أنت ؟

– نادراً . أقول لك الحق ، إنني أفضّل الويسكي أكثر .

فاحت في الغرفة رائحة حريفة قليلاً ، لم تكن مزعجة ، لكنها كانت غريبة وغرائبية .

– أخبرها أنني آسفة لإنني لا أستطيع أن أتكلّم اليها . أنا متأكدة من أن

Amly نهضة العرب

لدى كلينا الكثير من الأمور التي سنقولها الى بعضنا بعضاً .

حين تُرجم هذا الكلام للمانشو ، ألقت على كيتي نظرة سريعة أومضت فيها لمحة إبتسامة . كانت مثيرة للإعجاب وهي تجلس بلا إحساس بالإرتباك ، في ملابسها الجميلة ، ونظرت العينان من تحت الوجه المطليّ نظرة خدرة ، متزنة ، لا يُسبر غورها . كانت غير حقيقية، كصورة ، لكنها كانت محاطة ببهاء جعل كيتي تحسّ بأنها خرقاء . لم تولِ كيتي الصين الذي ألقاها القدر فيها أي إهتمام سوى إهتمام عابر ومحتقِر الى حد ما . فهي لم تخلق على نمطها . وها هي الآن تبدو فجأة وقد راودتها فكرة بعيدة وغامضة . وها هو الشرق ، سحيق القدم وغامض ومبهم . إن معتقدات الغرب وأفكاره تبدو فجّة الى جانب أفكار ومعتقدات بدا أنها تلمح فيها لمحة غريبة في هذا المخلوق المتأنّق . فها هنا حياة مختلفة تعاش على مستوى مختلف . أحسّت كيتي إحساساً غريباً بأن رؤية هذا المعبود بوجهها المطليّ وبعينيها المنحرفتَيْن الحذرتَيْن جعلت كل جهود وآلام عالَم كل يوم ، الذي عرفته ، سخيفاً الى حد ضئيل . فقد بدا ذلك القناع الملوّن يخفي سر خبرة وفيرة وعميقة ومهمة : فتلكما اليدان الطويلتان الدقيقتان بأظافرهما المستدقة تمسكان بمفتاح ألغاز لا يمكن التكهّن بها .

سألت كيتي :

– ما الذي تفكّر فيه طيلة النهار ؟

إبتسم وادينجتون :

– لا شيء .

– إنها مدهشة . قل لها إنني لم أر يدَيْن جميلتَيْن كهاتَيْن قط . وأتساءل عما تراه فيك .

وترجم وادينجتون السؤال وهو يبتسم :

– تقول إنني طيّب .

وقالت كيتي ساخرة :

Amly نهضة العرب

- كأن أي إمرأة أحبتْ في حياتها رجلاً لفضيلته .

وضحكت المانشو مرة واحدة فقط . وكان هذا حين عبرّتْ كيتي ، وهي تبحث عن حديث تتبادله معها ، عن إعجابها بسوار من حجر اليشب كانت تضعه . فخلعته ، لكن كيتي وجدتْ ، وهي تحاول أن تلبسه ، أنه لم يمرّ من عُقَل أصابعها ، بالرغم من أن يديها كانتا صغيرتَيْن تماماً . فانفجرت المانشو في ضحكة طفولية . وقالت شيئاً الى وادينجتون ، واستدعتْ أمَة . ألقت عليها أوامر ، فأحضرت الأمَة بعد لحظة حذاء مانشو جميلاً جداً .

قال وادينجتون :

- تريد أن تعطيك هذا الحذاء إنْ كنتِ تستطيعين إنتعاله . ستجدين بأنه سيكون خُفّاً جيداً لغرفة النوم .

قالت كيتي في رضى :

- إنه يلائمني تماماً .

لكنها لاحظت إبتسامة وقحة على وجه وادينجتون ،

سألته بسرعة :

- هل هو كبير جداً عليها .

- أميال .

ضحكت كيتي ، وحين ترجم وادينجتون هذا ضحكت المانشو والأمَة أيضاً .

وحين أخذت كيتي ووادينجتون يصعدان التل معاً فيما بعد ، التفتت اليه ورشقته بابتسامة ودية .

- لم تخبرني بأنك تكنّ لها حناناً عظيماً .

- ما الذي يجعلك ترين أنني أكنّ لها مثل هذا الحنان ؟

- رأيت هذا في عينيك . إن هذا غريب ، لا بد أنه كحب شبح أو حلم. فالرجال لا يُفهمون ، وقد فكّرت بأنك كأي شخص آخر ، وها أنا أحس الآن أنني لا أعرف أبسط الأمور عنك .

وحالما وصلا الى البنجالو ، سألها فجأة :

– لماذا أردتِ أن تريها ؟

ترددت كيتي للحظة قبل أن تجيب :

– إنني أبحث عن شيء ، وأنا لا أعرف تماماً ما هو . لكنني أعرف أنه مهم جداً لي أن أعرفه ، وإذا أنا عرفته فإن هذا سيؤدي الى تغيير كبير في حياتي . ربما تعرفه الراهبات ، وحين أكون معهن أحس بأنهن يكتمن سراً لن يشاركنني فيه . ولا أعرف لماذا خطر في بالي بأنني إذا رأيتُ امرأة المانشو هذه فإنني سألمح فكرة عما أبحث عنه . ربما كانت ستخبرني ، لو أنها كانت تستطيع .

– ما الذي يجعلك تفكّرين بأنها تعرفه ؟

ألقت عليه كيتي نظرة جانبية سريعة ، لكنها لم تجب . وبدلاً من هذا ، طرحت عليه سؤالاً :

– هل تعرفه ؟

إبتسم وهزّ كتفيه .

– تاو . بعضنا يبحث عن الطريقة في الأفيون ، والبعض يبحث عنها في الله ، وبعضنا في الويسكي وبعضنا في الحب . والطريقة في جميع الحالات واحدة ولا تفضي الى شيء .

LIX

غرقت كيتي ثانية في روتين عملها المريح ، ومع أنها كانت تشعر بتوعك في الصباح الباكر ، إلاّ أنها كانت في حالة نفسية عالية بما يكفي لتمنع هذا الشعور من إزعاجها . كانت مندهشة من الإهتمام الذي تبديه الراهبات نحوها : فالأخوات اللواتي كنّ لا يفعلن شيئاً حين كانت تراهن في الممر سوى أن يتمنين لها صباحاً طيباً ، أخذن الآن يدخلن الغرفة التي تشغلها بذريعة واهية وينظرن اليها ، مثرثرات قليلاً بانفعال عذب

Amly نهضة العرب

طفولي . وكررت الأخت القديس جوزيف القول لها الى حد مثير للملل أحياناً ، كيف أنها كانت تقول لنفسها منذ أيام خلت : " إنني أتساءل" ، أو " أنني لن أندهش " ، ثم وحين أغمي على كيتي : " لا يمكن أن يكون هناك شك ، فالأمر يتضح للعيون " . وقصّت على كيتي قصصاً طويلة عن ولادات زوجة أخيها ، وهي قصص كانت ستسبب لكيتي الكثير من الإنزعاج لولا روح المرح السريع التي تتمتع بها كيتي . وقد جمعت الأخت القديس جوزيف بطريقة سارّة النظرة الواقعية لنشأتها (نهر يتلوى من خلال مروج مزرعة أبيها وأشجار الحور المنتصبة على ضفته تهتز في أوهى نسيم) مع الحميمية الساحرة وأمور دينيه . وأخبرت كيتي في أحد الأيام عن البشارة بمولد المسيح وهي مقتنعة إقتناعاً جازماً بأن الكافر لا يستطيع أن يفهم أموراً كهذه .

وقالت :

– لا يمكنني قط أن أقرأ تلك السطور في الكتاب المقدّس دون أن أبكي. إنني لا أعرف لماذا ، لكن هذا يثير فيّ شعوراً غريباً .

ورددت مقتبسة من الكتاب المقدّس باللغة الفرنسية بكلمات بدت لكيتي غير مألوفة وباردة قليلاً بدقتها :

– وجاءها الملاك وقال : السلام عليكِ يا مريم يا ممتلئة نعمة ، إن الرب معك ، مباركة أنت بين النساء .

وانتشر سرّ الحمل في الدير كهبة ريح طفيفة تلعب بين أزهار بستان بيضاء . وقد أزعج التفكير بأن كيتي كانت تحمل طفلاً تلك النساء العقيمات وأثار إنفعالهن . لقد أخافتهن قليلاً الآن وفتنتهن . ونظرن الى الجانب المادي من حالتها بإحساس عام خشن ، فقد كن بنات فلاحين وصيادي سمك ، لكن رهبة ملأت قلوبهن الشبيهة بقلوب الأطفال . لقد انزعجن من التفكير بحملها ، لكنهن كن سعيدات ومنتشيات نشوة غريبة . وأخبرتها الأخت القديس جوزيف بأنهن يصلين كلهن من أجلها ، وقد قالت لها الأخت القديس مارتن بأن مما

Amly نهضة العرب

يثير الرثاء أنها لم تكن كاثوليكية ، لكن الأخت الرئيسة أنّبتها على هذا ، وقالت أن من الممكن أن تكون إمرأة طيبة – une brave femne إمرأة شجاعة كما قالت – بالرغم من أنها بروتستانتية وأن الله الرحيم le bon Dieu سيتدبّر كل ذلك بطريقة أو بأخرى .

وتأثرت كيتي وأحسّت بالسلوى من الإهتمام الذي أثارته حولها ، لكنها اندهشت الى أقصى حد حين وجدت أن الأخت الرئيسة ، وهي الجامدة في قدسيتها ، أخذتْ تعاملها بلطف جديد . لقد كانت لطيفة دائماً مع كيتي ، لكن ذلك بأسلوب متباعد ، وأخذت تستخدمها الآن برقة يمتزج فيها شيء من الأمومة. وغشت صوتها رنة جديدة ولطيفة ، وارتسمت في عينيها دعابة فجائية كما لو كانت كيتي طفلاً قامت بعمل ذكي مسل . كان هذا مثيراً على نحو غريب . وكانت روحها كبحر رمادي هادىء يندفع بجلال ، مثيراً الرهبة في عظمته الوقور ، ثم حوّله شعاع شمس فجأة الى بحر يقظ وودود ومرح . وغالباً ما كانت تأتي في المساء الآن وتجلس مع كيتي .

قالت ، منتحلة عذراً شفافاً لها :

– يجب أن أحرص على أن لا تتعبي نفسك . mon enfant يا طفلتي.

أو :

– لن يغفر لي دكتور فاين قط . أوه ، يا لرباطة الجأش البريطانية هذه ! إنه مبتهج الى أقصى حد ، لكنك حين تتكلّمين اليه عن هذا يشحب لونه تماماً .

وأخذت يد كيتي وربتت عليها بحنان :

– لقد قال لي دكتور فاين أنه طلب منك الرحيل ، لكنكِ لم توافقي على هذا لإنكِ لن تستطيعي إحتمال أن تتركينا . ذلك لطف منك ، يا طفلتي العزيزة ، وأريد منكِ أن تعرفي أننا نقدّر العون الذي قدمتهِ لنا . لكنني أرى أنكِ لا تريدين أن تتركيه أيضاً ، وذلك أفضل ، فمكانك هو الى جانبه ، وهو يحتاج اليكِ . آه ، لا أعرف ما كان يجب أن نفعله دون

Amly نهضة العرب

ذلك الرجل المدهش .

قالت كيتي :

- إنني مسرورة لإنه كان قادراً على القيام بعمل من أجلكن .

- يجب أن تحبيه من كل قلبك يا عزيزتي . إنه قدّيس .

إبتسمت كيتي لكنها تنهّدت في قلبها . كان هناك أمر واحد يمكنها فعله من أجل وولتر الآن وهي لا تستطيع التفكير كيف تفعله . إنها تريده أن يغفر لها ، ليس من أجلها ، بل من أجله هو نفسه ، فهي تعرف بأن هذا فقط هو ما يمكن أن يدخل السكينة الى عقله . كان من غير المجدي أن تطلب صفحه ، وإذا ساوره أدنى شك بأنها ترغب في هذا الصفح من أجله هو أكثر مما هو من أجلها هي ، لحمَلَهُ غروره العنيد على أن يرفض كل هذا مهما كان الثمن (كان من الغريب أن غروره الآن لم يعد يغيظها ، فقد بدا لها طبيعياً بل جعلها تحس بأسف أشد الآن من أجله) ، وكانت الفرصة الوحيدة هي أن يقع حادث غير متوقّع قد يفقده حذره . لقد خطرت في بالها فكرة أنه سيرحّب بجيشان عواطف ستحرره من كابوس المقت ، لكنه سيقاوم هذا الجيشان حين ينقض عليه بكل قواه وبحماقته الشجيّة .

ألم يكن من المثير للرثاء أن يقوم الناس في تعذيب أنفسهم على هذا النحو ، وهم يعيشون لفترة قصيرة من الوقت في عالم يوجد فيه الكثير من الألم على هذا النحو .

LX

على الرغم من أن الأم الرئيسة لم تتحدّث الى كيتي أكثر من ثلاث أو أربع مرات ، ولمدة لا تزيد عن عشر دقائق مرة أو مرتين ، إلاّ أن الإنطباع الذي أثارته في كيتي كان عميقاً . كانت شخصيتها كبلاد تبدو عند التعرف عليها لأول وهلة عظيمة لكنها غير مضيافة ، لكنك

Amly نهضة العرب

تكتشف فيها على التو قرى صغيرة مبتسمة بين أشجار الفاكهة في ثنايا الجبال الشاهقة ، وأنهاراً تتدفّق بسلاسة خلال المروج بالغة الخضرة . وبالرغم من أن هذه المناظر المريحة قد تدهشك وحتى تطمئنك ، إلاّ أنها لا تشعرك بأنك في بيتك في أرض الإرتفاعات الشامخة والفضاءات المعرّضة لهبوب الريح . كان من المستحيل أن تصبح على علاقة حميمة مع الأم الرئيسة ، فلديها شيء غير شخصي يكتنفها كانت تحس به كيتي مع الراهبات الأخريات ، حتى مع الأخت القدّيس جوزيف طيبة المزاج الثرثارة ، لكن هذا الشيء بالنسبة للأم الرئيسة كان حاجزاً يكاد يكون ملموساً . إن حقيقة أنها تستطيع أن تمشي على نفس الأرض مثلك تماماً، وتُعنى بالشؤون الدنيوية ، ومع ذلك تعيش على مستوى لا يمكنك أن تصل أنت اليه ، حقيقةٌ تثير فيك إحساساً غريباً تماماً ، إحساساً قارس البرودة لكنه مثير للرهبة ، وقد قالت ذات مرة لكيتي :

– ليس كافياً أن تستمر المتديّنة في الصلاة مع المسيح ، بل يجب أن تكون هي نفسها صلاة .

ومع أن حديثها كان مندمجاً أندماجاً نسيجياً مع دينها ، إلاّ أنها لم تبذل أي جهد للتأثير عليها هي الكافرة. وبدا غريباً بالنسبة اليها أن تقنع الأم الرئيسة ، بإحساسها العميق بالخير ، أن تُترك كيتي في حال لا بد أنها تبدو لها جهلاً خاطئاً . إلاّ أن كيتي أحسّت أن هذا طبيعي لها.

وذات مساء ، جلست الإثنتان معاً . وكانت الأيام تجنح الى القصر الآن ، ونور المساء الرقيق يصبح مقبولاً وكئيباً الى حد ما . بدت الأم الرئيسة تعبة جداً . فقد كان وجهها المأساوي مسحوباً وأبيض، وقد فقدت عيناها الداكنتان الجميلتان نارهما . وربما حثّها تعبها الى الأنغماس في مزاج نادر من الثقة .

قالت ، منتزعة نفسها من تأمّل طويل :

– إنه يوم مشهود بالنسبة اليّ يا طفلتي ، فهو اليوم الذي عقدتُ فيه العزم على أن أدخل فيه الدين . فمنذ سنين فكّرت بهذا ، لكنني كنتُ

Amly نهضة العرب

قد عانيتُ مما بدا أنه خوف من هذا النداء ، فقد خشيت أن تعود روح العالم وتأسرني . لكنني في ذلك الصباح وحين تناولتُ القربان ، أقسمت أن أخبر أمي العزيزة برغبتي قبل حلول الليل . وبعد أن تناولتُ القربان المقدّس ، طلبتُ من الله أن يحل سكينة العقل عليّ ، وبدا أن الجواب يأتيني : " ستنالين السكينة فقط إنْ كففتِ عن الرغبة فيها " .

بدت الأم الرئيسة تفقد نفسها في أفكار الماضي .

– في ذلك اليوم ، رحلت إحدى صديقاتنا ، مدام ڤيرنو Madam de Viernot الى كارميل Carmel دون أن تخبر أحداً من أقاربها . فقد كانت تعرف بأنهم كانوا سيعارضون خطوتها ، لكنها كانت أرملة وظنّت أن لديها الحق في أن تفعل ما تشاء لإنها أرملة . وقد كانت إحدى بنات عمي قد ذهبت لتودّع الهاربة العزيزة ولم تعد إلاّ في المساء . كانت قد تأثّرت كثيراً . ولم أكن قد تكلّمتُ الى أمي ، وقد أصابتني رعشة عند التفكير بإخبارها بما يخطر في بالي ، لكنني رغبتُ في أن أحتفظ بالقرار الذي اتخذته عند القربان المقدّس . وطرحت على إبنة عمي كل أنواع الأسئلة . ولم تفت أمي ، التي بدت منهمكة في التطريز ، أية كلمة . وفيما كنت أتكلّم ، قلت لنفسي : إنْ أردتُ أن أتكلّم اليوم فليس لديّ أي دقيقة لأضيّعها .

من الغريب مدى الحيوية التي أتذكّر فيها المشهد . فقد كنا نجلس حول الطاولة ، طاولة مستديرة مغطاة بغطاء أحمر ، ونعمل تحت نور مصباح له ظل أخضر . كانت إبنتا عمي تقيمان معنا وكنا كلنا نعمل في التطريز لإعادة تغطية الكراسي في غرفة الإستقبال . تخيّلي ، لم تُعَدْ تغطيتها منذ أيام لويس الرابع عشر ، حين اشتريَتْ ، وكانت كراس رقّة وباهتة ، وقد قالت أمي إن هذا فضيحة .

حاولت صياغة الكلمات ، لكن شفتيّ لم تتحركا ، ثم وفجأة ، وبعد بضع دقائق صمت ، قالت أمي لي : " لا أستطيع أن أفهم سلوك صديقتك

Amly نهضة العرب

حقاً . إنني لا أحب رحيلها هذا بلا توجيه أية كلمة الى كل اؤلئك الذين يعزّونها كثيراً الى ذلك الحد . إن حركتها مسرحية وتعتدي على ذوقي
إن امرأة حسنة التربية لا تُقدم على عمل يثير كلام الناس ضدها .
آمل إنْ أنتِ سببتِ لنا عظيم الحزن بتركنا ، ألا تهربي كأنك ترتكبين جريمة .

كانت لحظة الكلام ، لكن ضعفي وصل الى درجة أنني لم أستطع أن أقول سوى : " آه ، إطمأني يا أميmaman ، لن تكون لديّ القوة للإقدام على هذا " .

لم تحر أمي جواباً ، وندمتُ لإنني لم أجرؤ على أن أوضّح ما بنفسي. وبدا لي أنني أسمع كلمة الرب الى القديس بطرس : " بطرس ، هل تحبّني ؟ " أوه ، يا له من ضعف ، يا لجحودي من جحود ! إنني أحببت راحتي ، أسلوب حياتي ، عائلتي ومسرّاتي . كنت مستغرقة في هذه الأفكار المريرة حين قالت لي أمي بعد فترة قصيرة ، كأن الحديث لم يُقاطع : " مع ذلك يا أوديتي Odette ، لا أظن أنك ستموتين دون أن تقومي بفعل سيبقى بعدك " .

كنت لا أزال ضائعة في قلقي وتأملاتي ، بينما استمرّت إبنتا عمي تعملان بهدوء دون أن تعرفا بخفق قلبي ، حين قالت أمي فجأة بعد أن تركت نسيجها يسقط وهي تنظر اليّ بانتباه : " آه ، يا طفلتي العزيزة ، أنا متأكدة من أنك ستنتهين الى أن تصبحي متديّنة " .

أجبتها : " هل تتكلّمين بجد يا أمي الطيبة ؟ أنتِ تعرّين أعماق تفكيري ورغبة قلبي " .

صاحت إبنتا عمي دون أن تتيحا لي الفرصة لإنهاء كلامي : " لكن ، نعم Mais , oui . فمنذ سنتين ، لم تفكّر أوديت بأي شيء آخر . لكنكِ لن تعطيها الإذن يا عمتي ma tante ، يجب ألاّ تعطيها الإذن ."

فقالت أمي : " لكن ، بأي حق يا طفلتيّ العزيزتين نرفض هذا ، إنْ كان هذا إرادة الله ؟ "

فسألتني إبنتا عمي حينذاك ، وهما ترغبان في السخرية من الحديث، عما نويت أن أفعله بالتوافة التي تخصّني وتشاجرتا مازحتَيْن حول مَنْ ستسحوذ على هذا الشيء ومن ستستحوذ على ذلك . لكن لحظات المرح الأولى هذه استمرّت لوهلة قصيرة جداً ثم بدأنا نبكي . ثم سمعتُ أبي يرتقي الدرج .

صمتت الأم الرئيسة للحظة ثم تنهّدت .

– كان الأمر قاسياً على أبي . فقد كنت إبنته الوحيدة ، وغالباً ما يكنّ الرجال لبناتهم شعوراً أعمق من الشعور الذي يكنونه لأبنائهم .

قالت كيتي وهي تبتسم :

– إنه لسوء حظ عظيم أن يكون للإنسان قلب .

– إنه لحظ عظيم جداً أن يكرّس الإنسان ذلك القلب لحب يسوع المسيح .

وفي تلك اللحظة ، تقدّمتْ فتاة صغيرة من الأم الرئيسة ، وأرتها لعبة طريفة وقعت في يدها بطريقة من الطرق ، وهي واثقة من اهتمام الأم بها . فأحاطت الأم الرئيسة يدها الجميلة الدقيقة كتف الطفلة واستكانت الطفلة لها . لقد تأثّرت كيتي حين لاحظت مدى عذوبة إبتسامتها ومدى بُعدها الشخصي في نفس الوقت .

قالت :

– إن من المدهش رؤية ما يكنّه كل أيتامك من حب لك يا أمي . أظن أنني يجب أن أفخر فخراً شديداً لو أنني استطعت أن أثير إخلاصاً عظيماً كهذا .

ورشقت الأم الرئيسة إبتسامتها من علٍ مرة أخرى والتي كانت جميلة مع ذلك .

– هناك طريقة واحدة لكسب القلوب وهي أن تجعلي نفسك شبيهةً بأولئك الذين سيكنون لك الحب .

LXI

لم يعد وولتر الى العشاء في ذلك المساء . فانتظرته كيتي قليلاً ، فهو يدبّر أمره دائماً حين يتأخّر في المدينة فيرسل اليها كلمة ، لكنها جلست الى المائدة . لم تفعل شيئاً أكثر من التظاهر بأكل دورات الطعام العديدة التي وضعها الطبّاخ الصيني أمامها كالعادة دون تغيير ، مراعياً آداب المائدة دون إعتبار للوباء وصعوبة التموين ، ثم أسلمت نفسها الى الليلة المرصّعة بالنجوم بعد أن غرقت في كرسي خيزران الراتان الطويل قرب النافذة المفتوحة . وادخل السكون الراحةَ الى نفسها .

لم تحاول أن تقرأ . وطفت أفكارها على سطح عقلها كسحب بيضاء ، صغيرة منعكسة على بحيرة ساكنة. كانت أكثر تعباً مما يمكنها أن تمسك بفكرة واحدة منها ، ثم تتابعها وتغرق نفسها في قطارها المصاحب لها . تساءلت بغموض عما يكون قد ثار لديها من إنطباعات متنوعة خلّفتها لديها أحاديثها مع الراهبات . وكان من الغريب أنه بالرغم من أن طريقتهن في الحياة أثّرت فيها تأثيراً عميقاً جداً ، إلاّ أن الإيمان الذي يحدد طريقتهن هذه لم يؤثّر فيها . ولم تستطع أن تتصوّر إحتمال أن يأسرها حماس الإيمان في أي وقت من الأوقات . أطلقت تنهيدة طفيفة : ربما سيصبح كل شيء أسهل ، إنْ أنار ذلك النور الأبيض العظيم روحها . وراودتها الرغبة مرة أو مرتين في أن تخبر الأم الرئيسة عن تعاستها وسببها ، لكنها لم تجرؤ على ذلك : فهي لن تستطيع أن تتحمّل أن تفكّر هذه المرأة المتزمتة بها تفكيراً سيئاً . فما فعلته سيبدو لها خطيئة فاحشة طبعاً . والغريب في الأمر أنها لا تستطيع هي نفسها أن تعتبر ما فعلته شريراً قدر كونه غبياً وقبيحاً .

ربما كان نتيجة لتبلّد فيها أنها نظرت الى علاقتها مع تاونسيند كتصرّف مثير للندم وحتى للصدمة ، لكنها علاقة يجب أن تُنسى بدلاً من أن يتحسّر عليها الإنسان . كانت كارتكاب الإنسان لهفوة في

Amly نهضة العرب

حفلة، فليس هناك من شيء يمكن القيام به لإصلاحها ، كانت مميتة على نحو رهيب ، لكنه من الإفتقار الى الإحساس أن توليها كثيراً جداً من الأهمية . وارتعشت حين فكّرت بتشارلي بهيكله الكبير المكسو كسوة جيدة ، وغموض فكه وطريقة وقفته وقد دفع صدره الى الأمام حتى لا يبدو أن له كرشاً . ويظهر طبعة الدموي في العروق الصغيرة الحمراء التي سرعان ما ترتسم على شكل شبكة على وجنتيه المتوردتين. لقد أحبّت حاجبيّ عينيه الكثّين ؛ ففيهما الآن شيء حيوانيّ ومنفر لها .

والمستقبل ؟ كان غريباً مدى اللامبالاة التي تركها فيها ، إنها لم تستطع أن تستشف منه شيئاً على الإطلاق . ربما ستموت حين يولد الطفل . لقد كانت أختها دوريس أقوى منها كثيراً جداً دائماً ، وكادت دوريس أن تموت . (لقد قامت بواجبها وأنجبتْ وريثاً للبارونية الجديدة، وابتسمت كيتي وهي تفكّر برضى بأمها) . وإذا كان المستقبل غامضاً الى هذا الحد ، فإن هذا ربما يعني بأنه قُدّر عليها ألاّ تراه قط . من المحتمل أن يطلب وولتر من أمها أن تعتني بالطفل - إنْ ظلّ الطفل على قيد الحياة ، وهي تعرفه معرفة كافية تجعلها تتأكّد من أنه سيعامله بلطف ، مهما كان شكه بأبوته . فيمكن الثقة بأن وولتر سيسلك سلوكاً مثيراً للإعجاب تحت أية ظروف . كان مما يثير الرثاء أنه غير محبوب الى هذا الحد ، بالرغم من صفاته العظيمة ، وأريحيته وشرفه ، وذكائه وحساسيته . لم تكن خائفة منه الآن إطلاقاً ، بل آسفة من أجله ، ولا تستطيع منع نفسها في نفس الوقت من التفكير به كشخص سخيف قليلاً . فعمق عاطفته جعلته غير حصين ، وساورها شك بأنها ستستطيع ، بطريقة ما وفي وقت من الأوقات ، أن تغريه بالصفح عنها . وخطر في بالها الآن بأنها بإدخال السكينة الى نفسه بهذه الطريقة ، فإنها تقدّم اليه التعويضات المحتملة الوحيدة عن الألم المبرّح الذي سببته له . إن مما يثير الرثاء أنه يتمتّع بالقليل من روح المرح الى هذا الحد ؛ إن بوسعها أن تراه يضحك هو وهي معاً في أحد الأيام على

Amly نهضة العرب

الطريقة التي عذّبا بها نفسيهما .

كانت تعبة . فأخذت المصباح الى داخل غرفتها وخلعت ملابسها . وأوت الى السرير واستغرقت في النوم على الفور .

LXII

لكن طرقات عالية أيقظتها . لم تستطع في البداية أن تربط الصوت بالواقع لإنه كان متداخلاً مع الحلم الذي أيقظَتْ منه . تواصل الطرق وعرفت أنه لا بد أن يكون على بوّابة المجمّع . كان الظلام حالكاً . كانت لديها ساعة يد فسفورية العقارب ، فرأت أن الساعة كانت الثانية والنصف . لا بد أنه وولتر وقد عاد - كم هو متأخر - ولم يستطع أن يوقظ الصبي . وتواصل الطرق ، بصوت أعلى فأعلى ، وكان في سكون الليل مزعجاً قليلاً حقاً . توقّف الطرق ، ثم سمعتْ سحب المزلاج الثقيل. لم يعد وولتر متأخراً الى هذه الدرجة في أي وقت من الأوقات . يا للشيء المسكين ، لا بد أنه منهك القوى ! أملت أن يكون على قدر كاف من التعقّل ليأوي مباشرة الى السرير بدلاً من العمل كالعادة في مختبره ذلك .

كانت هناك أصوات ، ودخل ناس المجمّع. كان ذلك غريباً ، فوولتر يتجشّم العناء ليكون هادئاً ، حين يعود متأخراً حتى لا يزعجها . جرى شخصان أو ثلاثة أشخاص بخفة مرتقين درجاً خشبياً ، ودخلوا الغرفة المجاورة . خافت كيتي قليلاً . ففي مؤخرة رأسها استقر دائماً خوف من شَغَب ضد الأجانب . هل حدث شيء ؟ وبدأ قلبها يخفق بسرعة . لكن ، وقبل أن يتسع وقتها لتشكّل رعبها الغامض على شكل محدد ، مشى أحدهم مقترباً من غرفتها وطرق بابها .

- مسز فاين .

ميّزت صوت وادينجتون .

Amly نهضة العرب

- نعم . ما الأمر ؟
- هلاّ نهضتِ على الفور ؟ لديّ ما أقوله لك .
نهضتْ وارتدت مبذلاً . أدارت المفتاح وفتحت الباب . فوقع نظرها على وادينجتون في بنطال صينيّ ومعطف من قماش البُنجي pongee ، وكان صبيّ الدار يحمل مصباح إعصار ، ووقف ثلاثة جنود صينيين في ملابس خاكي على مسافة قصيرة منه . جفلت حين رأت تجهّماً على وجه وادينجتون ، وكان رأسه أشعث الشعر كأنه قفز خارجاً من السرير في هذه اللحظة تماماً .
شهقت :
- ما الأمر ؟
- يجب أن تحتفظي بهدوئك . ليس أمامنا أية لحظة لنضيّعها . إرتدي ملابسك على الفور وتعاليّ معي .
- لكن ، ما الأمر ؟ هل حدث شيء في المدينة ؟
وأوحى اليها منظر الجنود بأن ثورة انطلقت وأنهم حضروا لحمايتها .
- نُقل زوجك وهو مريض . نريدك أن تأتي على الفور .
صاحت :
- وولتر ؟
- يجب ألاّ تنزعجي . إنني لا أعرف بالضبط ما الأمر . لقد إتصل العقيد يو . وطلب مني أن أحضرك الى يامين Yamen على الفور .
حدّقت كيتي فيه للحظة ، وأحسّت ببرودة فجائية في قلبها ، ثم استدارت .
- سأستعد خلال دقيقتين .
أجاب :
- جئتُ كما كنتُ تماماً . كنتُ نائماً وارتديتُ معطفاً وانتعلت حذاء .
لم تسمع ما قاله . ولبست على نور النجوم ، متناولة أول الملابس التي وقعتْ يداها عليها ، وأصبحت أصابعها خرقاء فجأة الى حد أنه بدا

Amly نهضة العرب

أنها ستستغرق دهراً لتعثر على المشابك الصغيرة التي تغلق فستانها .
ولفّتْ كتفيها بالشال الكانتوني Cantonese الذي ترتديه في المساء .
- لم أعتمر قبعة . ليس ثمة حاجة الى هذا ، أليس كذلك ؟
- لا .

رفع الصبي القنديل أمامهم فأسرعوا هابطين الدرج وخرجوا من بوابة المجمع .

قال وادينجتون :

- إحذري من أن تقعي على الأرض . يحسن بك أن تتعلّقي بذراعي .

تبعهما الجنود وساروا خلفهما مباشرة .

- أرسل العقيد يو محفّات . إنهم ينتظرون على الجانب الآخر من النهر .

هبطا مسرعين التل . لم تستطع كيتي حمل نفسها على نطق السؤال الذي كان يرتجف على نحو رهيب على شفتيها . كانت خائفة من الجواب خوفاً مهلكاً . وصلوا الى ضفة النهر ، وكان هناك قارب سامبان sampan ينتظرهم وعند مقدّمته خيط من نور .

قالت حينذاك :

- هل هي الكوليرا ؟
- أخشى أن تكون كذلك .

أطلقت صرخة صغيرة ثم توقّفت فجأة .

- أظن أن عليكِ أن تسرعي قدر ما تستطيعين .

مدّ اليها يده ليساعدها على أن تركب القارب . كان الممر قصيراً والنهر آسناً تقريباً ، فوقفوا مكوّنين مجموعة متراصة عند مقدّمة القارب ، بينما دفعت امرأة تربط طفلاً الى ردفها القاربَ عبر النهر بمجذاف .

قال وادينجتون :

- لقد نُقل وهو مصاب بالمرض بعد ظهر اليوم ، أعني بعد ظهر أمس .
- لماذا لم استدعَ على الفور ؟

Amly نهضة العرب

وبالرغم من عدم وجود سبب لكلامهما همساً ، إلاّ أنهما تبادلا الحديث هامسَيْن . وفي الظلام ، أحسّت كيتي فقط بمدى شدة قلق صاحبها .

– أراد العقيد يو أن يستدعيكِ ، لكن وولتر لم يسمح له بذلك . لقد ظلّ العقيد يو معه طيلة الوقت .

– كان يجب أن يستدعيني مع ذلك ، إن هذا قسوة .

– إن زوجك يعرف أنك لم تريَ أي إنسان مصاباً بالكوليرا . إنه منظر رهيب ومقزز . لم يرد أن تري هذا المنظر .

قالت في صوت مختنق :

– بعد كل هذا ، إنه زوجي .

لم يحر وادينجتون جواباً .

– لماذا سمح لي الآن في الحضور ؟

وضع وادينجتون يده على ذراعها .

– عزيزتي ، يجب أن تتشجّعي . يجب أن تستعدي للأسوأ .

فأطلقت عويلَ ألم مبرّح وأشاحت بوجهها قليلاً ، فقد رأت أن الجنود الصينيين الثلاثة ينظرون اليها . لمحت فجأة نظرة فجائية سريعة غريبة لبياض عيونهم .

– هل هو يحتضر ؟

– أنا أعرف فقط الرسالة التي أرسلها العقيد يو الى هذا الضابط الذي حضر وأحضرني . وقدر ما أستطيع الحكم عليه ، فإن الإنهيار كان قد بدأ .

– ألا يوجد أي أمل قط ؟

– أنا آسف جداً ، وأخشى أننا لن نجده على قيد الحياة إنْ نحن لم نصل الى هناك بسرعة .

ارتعدت . وبدأت الدموع تسيل على خدّيها .

– أنتِ ترين هذا ، لقد ظل يفرط في العمل ، لم تكن لديه قوة مقاومة .

Amly نهضة العرب

انسحبت من ضغط ذراعه بحركة غيظ . فقدا أزعجها أنه كان يجب أن يتكلّم في ذلك الصوت الواطيء المتألّم ألماً مبرحاً .

بلغوا جانب النهر الآخر ، فساعدها حمّالان صينيان يقفان على ضفة النهر لتخطو على الشاطيء . كانت المحفّات في انتظارهم . وحالما ركبت كيتي محفّتها قال وادينجتون لها :

– حاولي أن تمسكي أعصابك . فستحتاجين الى كل سيطرتك على أعصابك .

– قل للحمالين أن يسرعوا .

– لقد تلقوا الأوامر بأن يسرعوا قدر الإمكان .

مرّ بها الضابط الذي كان جالساً في محفّته ، وحالما مرّ ، صاح بحمّالي كيتي . فرفعا المحفّة برشاقة ، وثبّتا أعمدة المحفة على أكتافهما ، وانطلقا بخطى سريعة . وتبعها وادينجتون خلفها مباشرة . وصعدوا التل جرياً ، ورجل يحمل قنديلاً يسير أمام كل محفّة ، وعند بوّابة الماء كان حارس البوّابة يقف حاملاً مشعلاً . صاح به الضابط حالما تقدّموا ، ففتح جانباً من البوابة ليسمح لهم بالمرور منها . ونطق بنوع من أعتراض حالما مرّوا ، وردد الحمالون ما قاله الى الذين خلفهم . وفي بهيم الليل ، بدت تلك الأصوات الحلقية بلغة غريبة غامضةً ومزعجة . انسابوا صاعدين حصى الزقاق المبلل الزلق ، تعثّر أحد حاملي محفّة الضابط ، فسمعت كيتي صوت العقيد يرتفع غاضباً ، وردّ حامل المحفّة بصوت حاد ثم تابعت المحفّة في المقدّمة في الإندفاع . كانت الشوارع ضيّقة وملتوية . وكان الليل هنا في المدينة حالكاً . لقد كانت مدينة الموتى . أسرعوا على طول زقاق ضيّق ، وداروا حول ركن ، ثم ارتقوا مجموعة درج جرياً ، وأخذ حاملو المحفّات ينفخون لاهثين بجهد الآن ، فقد ساروا بخطوات طويلة سريعة ، وهم صامتون ، وأخرج أحدهم منديلاً رثاً ومسح به العرق الذي انحدر الى داخل عينيه من جبهته وهو يتابع السير ، وراحوا ينعطفون مع هذا الطريق وذاك حتى بدا أنهم

Amly نهضة العرب

ينطلقون مسرعين خلال متاهة شبكة طرق معقّدة ، وفي ظل الدكاكين مقفلة المصاريع ، بدا أن شكلاً يستلقي هناك أحياناً ، لكنكَ لم تكن تعرف إنْ كان الشكل رجلاً نام ليستيقظ عند الفجر أو رجلاً لن يستيقظ إطلاقاً ، وكانت الشوارع الضيّقة شبحية في خوائها الصامت ، وحين كان كلب ينبح بصوت عال فجأة ، كان يثير صدمة رعب في أعصاب كيتي المعذّبة · لم تعرف أين كانوا يذهبون · فقد بدا الطريق بلا نهاية · ألا يستطيعون السير بأسرع من ذلك ؟ أسرع · أسرع · فالوقت يمضي ، وقد تكون أية لحظة سبباً في فوات الأوان ·

LXIII

فجأة ، وبينما هم يسيرون على طول جدار أبيض طويل ، وصلوا الى بوّابة تنتصب على جانبيها أكشاك حراسة ، فأنزل حاملو المحفّات محفّاتهم · أسرع وادينجتون نحو كيتي · وكانت قد قفزت خارجة من المحفّة · وطرق الضابط بعنف على الباب وصاح · فُتح باب جانبيّ ، فدخلوا الى الفناء · كان فناء كبيراً ومربّعاً · كان الجنود منكمشين على أنفسهم لصق الجدران تحت أفاريز بروز الأسطح وقد التفوا ببطانياتهم ، مستلقين في مجموعات متلاصقة · فوقفوا للحظة بينما تكلّم الضابط الى رجل قد يكون رقيباً في نوبة حراسة · استدار وقال شيئاً لوادينجتون ·

فقال وادينجتون بصوت خفيض :

– لا يزال حيّاً · إنتبهي حين تمشين ·

وفيما كان الرجال حاملو القناديل يتقدمونهم ، ساروا عبر الفناء ، وارتقوا بعض الدرجات ودخلوا من فتحة باب ، ثم هبطوا الى داخل فناء آخر واسع · وانتصبت على أحد جوانب هذا الفناء غرفة طويلة فيها أنوار ، وألقت الأنوار الداخلية المتلألئة من خلال ورق الأرز ظلال نموذج العليّة التفصيلي · وقادهم حاملو القناديل عبر الفناء نحو هذه الغرفة ،

Amly نهضة العرب

وطَرَق الضابط على بابها . فتح الباب على الفور ثم خطا الضابط الى الخلف بعد أن ألقى نظرة سريعة على كيتي .

قال وادينجتون :

- هلاّ دخلت .

كانت غرفة واطئة طويلة ، وقد حوّلت المصابيح المدّخنة التي تضيء الغرفة الكآبةَ الى جوٍ نذيرٍ بشؤم . وقف ثلاثة أو أربعة ممرّضين في الغرفة . وتمدد رجل على حشيّة لصق الجدار مقابل الباب منكمشاً على نفسه تحت بطانية . ووقف ضابط بلا حراك عند أسفل الحشيّة .

أسرعت كيتي فمالت فوق الحشيّة . تمدد وولتر وعيناه مغمضتان ، وتلوّن وجهه تحت ذلك النور الكئيب بلون الموت الرمادي . كان ساكناً ساكناً سكوناً رهيباً .

شهقتْ بصوت خفيض ورنة ء وت مرتعبة :

- وولتر ، وولتر .

ندت عن الجسد حركة طفيفة ، أو ظل حركة ، وكانت طفيفة جداً الى حد أنها كانت كهبة هواء لا يمكنك أن تحس بها ، لكنها تموّج للحظةٍ من الزمن سطحَ ماءٍ ساكن .

- وولتر ، وولتر ، تكلّم اليّ .

انفتحت العينان ببطء ، كأن جهداً لانهائياً قد بُذل لرفع تلكما الجفنَيْن الثقيلَيْن ، لكنه لم ينظر ، بل حدّق في الجدار على بُعد بضع بوصات من وجهه . تكلّم ، وغشيت صوتَه الخفيض والضعيف لمحةُ إبتسامة فيه . قال :

- إن هذا إبريق سمك جميل .

لم تجرؤ كيتي على أن تتنفّس . لم يُصدِر أي صوت آخر ، ولا حتى بداية حركة ، لكن عينيه ، تلكما العينين الداكنتين الباردتين (أية أسرار تراهما هاتان العينان الآن ؟) حدّقتا في الجدار المبيّض . استوت كيتي على قدميها ، وواجهت الرجل الواقف هناك بتحديقة تعبة .

Amly نهضة العرب

– من المؤكد أنه يمكن فعل شيء . لن تقف هناك دون أن تفعل شيئاً .

تماسكت يداها . وتكلّم وادينجتون الى الضابط الواقف عند طرف الفراش .

– أخشى أنهم قاموا بكل ما كان ممكناً . لقد واصل جرّاح الفوج العسكري معالجته . فقد درّبه زوجك ، وقام بكل ما كان يمكن لزوجك أن يقوم به بنفسه .

– هل ذلك هو الجرّاح ؟

– لا ، ذلك هو العقيد يو . إنه لم يفارق جانب زوجك قط .

وألقت كيتي عليه نظرة سريعة وهي ذاهلة . كان رجلاً طويلاً الى حد ما ، لكنه قوي البنيان ، وقد بدا قلقاً في بزّته الخاكية . كان ينظر الى وولتر ، ورأت أن عينيه كانتا مغرورقتَيْن بالدموع . وآثار هذا في نفسها ألماً واخزاً . لماذا تغرورق عينا ذلك الرجل ذي الوجه الأصفر المنبسط بالدموع ؟ لقد أسخطها هذا .

– إنه لأمر رهيب ألاّ تكون قادراً على فعل أي شيء .

قال وادينجتون :

– لم يعد يحس بالألم على الأقل .

وانحنت مرة أخرى على زوجها . ظلّت عيناه المروّعتان تلكما تحدّقان بخواء أمامه . لم تكن تستطع أن تعرف إنْ كان يبصر بهما . ولم تعرف إنْ كان قد سمع ما قيل . فألصقت شفتيها على أذنيه .

– وولتر ، أليس ثمة ما يمكننا فعله ؟

فكّرت أنه لا بد أن يكون هناك دواء يمكنهم أن يعطوه له فيمنع إنحسار حياته الرهيب هذا . وبعد أن اعتادت عيناها الآن أكثر على العتمة ، رأت ، والرعب يسيطر عليها ، أن وجهه تهدّل ساقطاً . وكانت لا تكاد تتعرّف عليه . لم يكن من الممكن التفكير بأنه سيبدو خلال بضع ساعات قصيرة شبيهاً برجل آخر ، فهو لا يكاد يبدو كإنسان على الإطلاق ، لقد كان يشبه الموت .

Amly نهضة العرب

ظنّت أنه كان يبذل جهداً للكلام . ألصقت أذنها به .

– لا تقلقوا ! لقد واجهتُ طريقاً وعراً ، لكنني على ما يرام الآن .

إنتظرت كيتي للحظة ، لكنه أخلد الى الصمت . ومزّق سكونه قلبها بألم مبرّح ، كان من المرعب أن يظل ساكناً على هذا النحو . بدا أنه مستعد لسكون القبر . تقدّم أحدهم ، الجرّاح أو ممرض ، وأبعدها جانباً بحركة منه ، وانحنى على الرجل المحتضر وبلل شفتيه بخرقة قذرة . نهضت كيتي واقفة مرة أخرى والتفتت الى وادينجتون وقد سيطر عليها اليأس .

همست :

– ألا يوجد أي أمل قط ؟

هزّ رأسه .

– الى متى سيظل على قيد الحياة ؟

– لا أحد يعرف . ساعة ، ربما .

جالت كيتي بنظرها حولها في الحجرة العارية واستقرت عيناها للحظة على شكل العقيد يو القوي .

سألت :

– هل يمكن أن أترك وحيدة معه لوهلة وجيزة ؟ لمدة دقيقة واحدة فقط .

– بالتأكيد ، إنْ شئتِ هذا .

خطا وادينجتون نحو العقيد وتكلّم اليه . انحنى العقيد إنحناءة طفيفة ثم أصدر أمراً بصوت خفيض .

قال وادينجتون وهم يخرجون :

– سننتظر على الدرجات . ما عليك سوى أن تنادي .

وبعد أن سيطر على وعيها الآن الوضع الذي لا يُصدّق ، كدواء يتخلل عروقها ، وبعدما أدركت أن وولتر سيموت ، لم يعد يشغل ذهنها سوى تفكير واحد وذلك هو أن تسهّل نهايته عليه بأن تستلّ من روحه الغلّ الذي سمّم تلك الروح . بدا لها أنه إذا مات وهو على وئام معها هي ،

Amly نهضة العرب

فإنه سيموت وهو على وئام مع نفسه. لم تفكّر الآن بنفسها إطلاقاً ، بل فكّرت به فقط .

قالت ، منحنية عليه . لكنها حرصت على ألاّ تلمسه خشية ألا يستطيع إحتمال الضغط .

– وولتر ، أناشدك أن تصفح عني . أنا آسفة أشد الأسف لما ارتكبته من خطأ في حقك . إنني نادمة على هذا ندماً مريراً جداً .

لم يقل شيئاً . لم يبد أنه سمعها . كانت مضطرة الى أن تلحّ عليه. بدا لها على نحو غريب أن روحة كانت فراشةً مرفرفة وأجنحتها ثقيلة بالكراهية .

– حبيبي .

ومرّ ظل على وجهه الذابل والغائر . كانت أقل من حركة ، لكنها أعطت تأثيرَ تشنّج مرعب . لم تكن قد وجّهت تلك الكلمة اليه من قبل. ربما مرّت في دماغه المحتضر فكرة ، مشوّشة ولا تُفهم إلاّ بصعوبة، بأنه لم يسمعها تردد هذه الكلمة ، وهي كلمة مبتذلة في مفرداتها ، إلا للكلاب والأطفال والسيارات . ثم حدث شيء مرعب . قبضت على يديها ، محاولة بكل قوتها أن تسيطر على نفسها ، فقد رأت دمعتين تجريان ببطء على وجنتيه المهزولتين .

– أوه ، يا حبيبي الغالي ، يا عزيزي ، لو أنك أحببتني – أعرف أنك أحببتني وكنتُ كريهة – أرجوك أن تغفر لي . ليس أمامي فرصة الآن في أن أبيّن لك ندمي . إرحمني ، أناشدك أن تغفر لي .

كفّت عن الكلام . ثم نظرت اليه ، حابسة أنفاسها تماماً ، منتظرة بلهفة جواباً . رأت أنه حاول أن يتكلّم . خفق قلبها خفقة شديدة . بدا لها أنها لو استطاعت في هذه اللحظة الأخيرة من أن تخلّصه من ذلك الحمل من المرارة ، فإن هذا سيكون إصلاحاً للمعاناة التي سببتها له بأسلوب من الأساليب . تحرّكت شفتاه. لم ينظر اليها . حدّقت العينان اللتان لا تبصران في الجدار المبيّض . فانحنت فوقه حتى تتمكّن من أن

Amly نهضة العرب

تسمع . لكنه تكلّم بوضوح تام .
- الكلب هو الذي مات .
ظلّت ساكنة كما كانت ، كأنها تحوّلت الى حجر . لم تستطع أن تفهم ، وحدّقت فيه في ارتباك مرتعب. كان ما قاله بلا معنى . هذيان. إنه لم يفهم كلمة مما قالته .
كان من المستحيل أن يكون ساكناً على هذا النحو وهو حيّ في نفس الوقت . حدّقت . كانت عيناه مفتوحتين. لم تستطع أن تتبيّن إنْ كان يتنفّس . بدأت تحس بالخوف .
همست :
- وولتر . وولتر .
أخيراً ، وفجأة ، رفعت نفسها . فقد سيطر عليها خوف فجائي . استدارت واتجهت الى الباب .
- هلاّ دخلتم من فضلكم . لا بد وأنه ...
خطوا داخلين . اقترب الجرّاح الصينيّ من الفراش . كان يحمل مصباحاً يدوياً كهربائياً بيده ، فأشعله ونظر في عينيّ وولتر . ثم أغمضهما . قال شيئاً باللغة الصينية . فأحاط وادينجتون كيتي بذراعه.
- أخشى أنه مات .
أطلقت كيتي تنهيدة عميقة . وسقطت بضع دمعات من عينيها . أحسّت بالذهول أكثر مما أحسّت بالقهر. وقف الصينيون في الغرفة حول الفراش ، عاجزين كأنهم لم يعرفوا تماماً ما سيفعلونه بعدئذ . كان وداينجتون صامتاً . وبدأ الصينيون يتكلّمون بصوت واطيء النغمة بينهم بعد دقيقة .
قال وادينجتون :
- يحسن أن تسمحي لي في أن أعود بك الى البنجالو . سيجلبونه الى هناك .
أمرّت كيتي يدها في أعياء على جبهتها . اقتربت من فراش الخشيّة

Amly نهضة العرب

وانحنت فوقها · قبّلت وولتر برقة على شفتيه · لم تعد تبكي الآن ·
– أنا آسفة لإنني كبدتكم هذا العناء الشديد ·
حيّاها الضابطان تحية عسكرية حينما مرّت بهما وانحنت هي إنحناءة رزينة · سارا عائدين عبر الفناء وركبا محفتيهما · رأت وادينجتون يشعل سيجارة · ضاع قليل من الدخان في الهواء ، تلك كانت حياة الإنسان ·

LXIV

كان الفجر يبزغ الآن ، وأخذ صينيّ هنا وهناك يُنزل مصاريع دكّانه · وفي تجاويف المكان المعتمة ، راحت إمرأة تغسل يديها ووجهها على نور ذبالة مستدقة · وفي دار شاي في أحد الأركان ، كانت مجموعة من رجال يتناولون وجبة مبكّرة · وتسلل نور النهار البازغ الرمادي والبارد على طول أزقة ضيّقة كلص · وحط ضباب شاحب على النهر ، فلاحت صاريات المراكب المتجمّعة فيه من خلال الضباب كرماح جيش أشباح · كان الجو بارداً وهما يعبران النهر ، وانكمشت كيتي على نفسها في شالها الملوّن الزاهي · صعدا التل ، وسرعان ما اعتليا الضباب · تألّقت الشمس من سماء منقشعة الغيوم · تألّقت كأن هذا اليوم كان شبيهاً بيوم آخر ولم يحدث أي شيء ليميّزه عن سواه من الأيام ·

قال وادينجتون حين دخلا البنجالو :

– ألا تودّين أن تنامي قليلاً ·

– لا · سأجلس عند النافذة ·

فخلال الأسابيع التي مضت جلست عند النافذة مراراً عديدة ولمدة طويلة جداً الى حد أن عينيها ألفتا الآن المعبد الخيالي المبهرج الجميل الغامض المقام على قلعته العظيمة مما بثّ الراحة في نفسها · كان لاواقعياً الى حد أنه كان يسحبها بعيداً عن واقعية الحياة حتى في منتصف

Amly نهضة العرب

النهار تماماً
- سآمر الصبيّ أن يعد لكِ شاياً . أخشى أنه سيكون من الضروري دفنه هذا الصباح . سأقوم بكل الترتيبات .
- شكراً .

LXV

دفنوه بعد ثلاث ساعات . بدا من المرعب لكيتي أنهم لا بد أن يضعوه داخل تابوت صينيّ ، كأنه كان يجب أن يستريح متململاً في سرير غريب كهذا ، لكنه لم يكن ثمة مناص من هذا . وأرسلت الراهبات ، وقد عرفن بموت وولتر كما يعرفن كل ما يحدث في المدينة ، صليباً من الأصاليا ، صلباً ورصين الشكل ، لكنه بدا كأن يديّ بائع زهور خبيرتين صنعته ، وبدا الصليب ، وهو وحيد على التابوت الصيني ، بشعاً وفي غير مكانه . وحين أعدّ كل شيء ، كان عليهم أن ينتظروا العقيد يو الذي أرسل الى وادينجتون قائلاً أنه يرغب في حضور الجنازة . وحضر مصحوباً بأحد معاونيه . صعدوا التل ، وقد حمل التابوت ستة خدم صينيين ، الى بقعة أرض صغيرة حيث دُفن طبيب الإرسالية الذي حلّ وولتر محله . كان وادينجتون قد وجد بين موجودات الطبيب كتاب صلاة باللغة الإنجليزية ، فأخذ الآن يقرأ قدّاس الدفن بصوت خافت مرتبك كان غير عاديّ بالنسبة اليه . ربما حلّق التفكير في عقله ، وهو يردد تلك الكلمات المهيبة والرهيبة في نفس الوقت ، بأنه إذا سقط بدوره ضحية للوباء فلن يكون هناك أي شخص ليردد هذا القدّاس عليه. أنزل التابوت الى داخل القبر ، وأخذ حفارو القبر في إهالة التراب عليه.

اعتمر العقيد يو قبعته بعد أن كان يقف حاسر الرأس الى جانب القبر ، ثم أدّى التحية لكيتي بحزن ، وقال كلمة أو كلمتين لوادينجتون وابتعد متبوعاً بمعاونه . تسكّع الخدم مكوّنين مجموعات متناثرة هنا

Amly نهضة العرب

وهناك وقد دفعهم الفضول لمراقبة طقوس دفن مسيحية ، ثم تسللوا مبتعدين وقد حملوا بأيديهم قضبان محفّاتهم وهي تجرجر على الأرض .
انتظرت كيتي ووادينجتون الى أن مليء القبر بالتراب ، ووضع على الكومة العابقة برائحة الأرض الطازجة صليبُ الراهبات الجميل المصنوع من الأضاليا . لم تكن قد بكت ، لكنها أحسّت بخبطة في قلبها عندما قرقع أول ملء رفش من التراب وهو يسقط على التابوت .
رأت أن وادينجتون كان ينتظر أن تأتي اليه .
سألت :
– هل أنت مستعجل ؟ إنني لا أريد أن أعود الى البنجالو الآن .
– ليس لديّ ما أفعله . أنا رهن إشارتك تماماً .

LXVI

سارا الهوينى على الممر الى أن وصلا الى قمة التل التي تنتصب عليها الممر القوسيّ ، نصب ذكرى أرملة فاضلة ، احتل جزءاً كبيراً من انطباع كيتي عن المكان . كان رمزاً ، لكنها لم تكن تكاد تعرف الشيء الذي يرمز اليه ، ولم تستطع أن تفهم سبب حمله لنغمة سخرية لاذعة كهذه.
– هلاّ جلسنا قليلاً ؟ لم نجلس هنا منذ عصور طويلة .
امتد السهل أمامها واسعاً ، وكان هادئاً وجليلاً في نور الصباح .
– مضى عليّ هنا بضعة أسابيع فقط ، لكنه يبدو لي كأنه عمر كامل .
لم يجب ، وسمحت هي لأفكارها أن تهوّم لوهلة . وأطلقت تنهيدة.
سألت :
– هل ترى أن الروح خالدة ؟
لم يبدُ مندهشاً من السؤال .
– كيف لي أن أعرف ؟
– منذ برهة ، وحين غسلوا وولتر قبل أن يضعوه في التابوت ، نظرت

Amly نهضة العرب

اليه . بدا أنه في شرخ الشباب . أصغر سناً من أن يموت . أتذكر ذلك المتسوّل الذي رأيناه في أول مرة أخذتني فيها لنتمشّى ؟ لم أخف لإنه كان ميّتاً ، بل لإنه بدا كأنه لم يكن مخلوقاً بشرياً في أي وقت من الأوقات . كان مجرّد حيوان ميّت . والأمر يتكرر الآن ، مع وولتر ، فقد بدا تماماً كأنه آلة تحطمت . ذلك هو المخيف الى هذه الدرجة . فإنْ كان مجرّد آلة ، فيا لعبث كل هذه المعاناة وآلام القلب والشقاء .

لم يجب ، لكن عينيه تنقّلتا فوق المنظر الممتد تحت أقدامهما . فالإتساع الشاسع في ذلك الصباح المرح المشمس يملأ القلب بالبهجة الشديدة . وامتدت حقول الأرز الصغيرة المزركشة الى أقصى مدى تراه العين ، وكان الفلاحون ، المرتدون الملابس الزرقاء ومع ثيرانهم ، يعملون بجد في كثير من هذه الحقول . كان مشهداً وادعاً وهنيئاً . وقطعت كيتي حبل الصمت .

- لا يمكنني أن أصف لك مدى عمق تأثّري بكل ما رأيته في الدير . إنهن مدهشات ، تلك الراهبات ، إنهن يشعرنني بأنني لا قيمة لي أبداً . فهن قد تخلين عن كل شيء ، عن بيوتهن ، وبلادهن ، وحبهن وأطفالهن وحريتهن ، وعن كل الأمور الصغيرة التي أرى أحياناً بأنها لا بد أن يكون من الصعب على الإنسان أن يتخلّى عنها : الأزهار ، والحقول الخضراء ، والتمشّي في يوم خريفي ، الكتب والموسيقى ، الراحة ، وكل شيء يتخلين عنه ، كل شيء . ويفعلن هذا حتى يتمكّن من تكريس أنفسهن لحياة تضحية وفقر ، وطاعة ، وعمل قاتل وصلاة . فهذا العالم بالنسبة اليهن كلهن منفى حقيقي وواقعي . إن الحياة صليب يحملنه عن طيب خاطر ، لكن في قلوبهن ، وطيلة الوقت ، تنغرس رغبة - أوه ، إنها أقوى من رغبة بكثير ، إنه حنين ، حنين متلهّف وعاطفي الى موتهن الذي سيقودهن الى حياة دائمة وإلى الأبد .

شبكت كيتي يديها ونظرتْ اليه وقد سيطر عليها ألم مبرّح :

- حسناً ؟

Amly نهضة العرب

– ولنفرض أن ليس هناك حياة أبدية ؟ فكّر فيما يعني هذا إذا كان الموت هو نهاية كل الأشياء حقاً . إنهن يتخلين عن كل شيء مقابل لا شيء . لقد خُدعن . إنهن مغبونات .

وفكّر وادينجتون لوهلة وجيزة :

– إنني أتساءل . أتساءل إنْ كان مهمّاً أن يكون ما هدفن اليه وهم . فحياتهن في ذاتها جميلة . إن لديّ فكرة عن الشيء الوحيد الذي يجعل من الممكن أن تنظري الى هذا العالم الذي نعيش به بلا اشمئزاز ، هو الجمال الذي يستخرجه الرجالُ من وقت الى آخر من بين الفوضى . الصور التي يرسمونها ، الموسيقى التي يؤلفونها ، الكتب التي يكتبونها ، والحياة التي يحيونها . فأغنى الأشياء جمالاً ، من هذه الأشياء ، هي الحياة الجميلة . ذلك هو العمل الفني المتقن .

تنهدت كيتي . فما قاله بدا قاسياً . إنها تريد المزيد .

تابع :

– هل حضرتِ يوماً حفلة موسيقى سيمفونية ؟

إبتسمت :

– نعم ، إنني لا أعرف شيئاً عن الموسيقى ، لكنني شغوفة بها الى حد ما .

– إن كل عازف في الأوركسترا يعزف على آلته الصغيرة ، وما الذي تظنين أنه يعرف عن التناسقات harmonies المعقّدة التي تنفلت منطلقة في الجو اللامبالي ؟ أنه معنيّ فقط بنصيبه الصغير فقط . لكنه يعرف أن السيمفونية رائعة ، وهي تظل رائعة مع أنه لا يسمع شيئاً منها ، وهو قانع بعزف دوره .

قالت كيتي بعد فترة صمت :

– لقد تكلّمت عن تاو Tao قبل بضعة أيام . قل لي ، ما هو .

ألقى عليها وادينجتون نظرة قصيرة ، وتردد للحظة ، ثم أجاب وقد ارتسمت على وجهه الهزليّ إبتسامة طفيفة :

Amly نهضة العرب

- إنه السبيل والسائرون عليه . إنه الطريق الخالد الذي تسلكه كل المخلوقات ، لكن أحداً من المخلوقات لم يشقّ هذا الطريق ، لإنه هو نفسه مخلوق . إنه كل شيء ولا شيء ، فمنه تنبع كل الأشياء ، وكل الأشياء تتلاءم معه ، واليه تعود كل الأشياء أخيراً . إنه مربّع بلا زوايا ، صوت لا تستطيع الآذان أن تسمعه ، وصوره بلا شكل . إنه شبكة واسعة ، وبالرغم من أن خيوط هذه الشبكة واسعة إتساع البحر إلاّ أنه لا يسمح لأي شيء في أن يتخللها . إنه الملاذ الذي تجد كل الأشياء ملجأ لها فيه . إنه غير محدّد المكان ، لكنك قد ترينه دون أن تنظري الى خارج النافذة . إنه رغبة في ألاّ ترغب ، إنه يعلّم ويدع كل الأشياء تأخذ مسارها . فذلك الشخص الذي يتواضع سيُصان الى الأبد . وذلك الذي ينحني سيقوّم . إن الفشل هو أساس النجاح والنجاح هو مكمن الفشل ، لكن ، منذا الذي يحدد متى ستظهر نقطة الدوران ؟ إن الذي يعمل جاهداً من أجل الرقة يمكنه أن يصبح حتى كطفل صغير . اللطف يجلب النصر الى الذي يهاجِم ، والأمان الى الذي يدافع . وقوي هو الذي يتغلّب على نفسه .

- هل هذا يعني أي شيء ؟

- أحياناً ، فعندما أكون قد شربت نصف دزينة من كؤوس الويسكي وانظر الى النجوم ، أرى أنه قد يكون لهذا معنى .

ران عليهما سكون ، وحين تحطّم ، كانت كيتي هي التي تكلّمت :

- قل لي ، هل عبارة : " الكلب هو الذي مات " إقتباس من أي كتاب ؟

وأوجزت شفتا واديجتون رسم إبتسامة ، واستعد بإجابته . لكن مداركه ربما كانت مرهفة الى نحو غير عادي في تلك اللحظة . لم تكن كيتي تنظر اليه ، لكن عبارتها كانت محاطة بشيء جعله يغيّر رأيه .

أجاب بحذر :

- إنْ كان إقتباساً ، فأنا لا أعرف . لماذا ؟

- لا شيء . خطر ببالي . إن له رنيناً مألوفاً .

Amly نهضة العرب

وران صمت آخر :

وما لبث أن قال وادينجتون :

– حين كنتِ وحيدة مع زوجك ، تبادلتُ حديثاً مع جرّاح الفوج . لقد فكّرتُ في أننا يجب أن نلمّ ببعض التفاصيل .

– حسناً ؟

– لقد كان في حالة هستيرية بالغة . ولم أستطع أن أفهم تماماً ما الذي عناه . وقدر ما استطعت استخلاصه من معلومات ، فإن زوجك أصيب بالعدوى خلال إجرائه دورة تجارب .

– لقد كان دائماً يجري تجارب . لم يكن في الواقع طبيباً ، لقد كان عالم باكتيريا ، لذلك السبب كان متلهفاً الى هذا الحد للمجيء الى هنا .

– لكنني لم أستطع أن أستخلص تماماً من تصريحات الجرّاح فيما إذا كان قد أصيب بالعدوى صدفةً أو أنه كان يجري على نفسه تجارب فعلاً .

شحبت كيتي شحوباً شديداً . وأثارت الفكرة الرعدة في جسدها . أمسك وادينجتون بيدها .

قال بلطف :

– إغفري لي حديثي عن هذا ثانية ، لكنني ظننتُ أن هذا قد يريحك – فأنا أعرف كم هو صعب جداً أن يردد الإنسان في هذه المناسبات أقوالاً ليس فيها إلاّ أقل جدوى – ظننتُ أنه قد يعني اليك شيئاً أن يكون وولتر مات شهيد العلم وشهيد واجبه .

هزّت كيتي كتفيها وقد سيطر عليها شك بنفاذ الصبر .

قالت :

– لقد مات وولتر لتحطيم قلبه .

لم يجب وادينجتون . التفتت ونظرت اليه ببطء . كان وجهها أبيض وجامد .

– ما الذي عناه بقوله : الكلب هو الذي مات ؟ ماذا عناه ؟

– إنه أخر بيت شعر في " مرثية " جولد سميث .

Amly نهضة العرب

LXVII

في الصباح التالي ، ذهبت كيتي الى الدير . بدت الفتاة التي فتحت الباب مندهشة إذ رأتها ، وحين مضت على كيتي بضع دقائق وهي تقوم بعملها ، دخلت الأم الرئيسة . تقدّمت من كيتي وأمسكت بيدها .

– أنا مسرورة أن أراك يا طفلتي العزيزة . لقد أظهرتِ شجاعة نادرة في عودتك الى هنا بعد حزنك الشديد ، وهذه حكمة منك ، فأنا متأكدة من أن قليلاً من العمل سيشغلك عن التفكير .

غضّت كيتي طرفها ، محمّرة قليلاً ، فهي لا تريد أن ترى الأمُ الرئيسة ما في قلبها :

– لستُ بحاجة الى أن أخبرك عن مدى صدق تعاطفنا كلنا هنا معك .

همست كيتي :

– أنتن رقيقات جداً .

– كلنا نصلّي من أجلك باستمرار ، ومن أجل روح ذلك الذي فقدته .

لم تحر كيتي جواباً . أفلتت الأمُ الرئيسة يدها ، ثم أوكلت اليها مهمات مختلفة برنة صوتها الباردة والآمرة . ربتت على رؤوس طفلتين أو ثلاث طفلات ، وألقت عليهن إبتسامة من علٍ لكنها كانت إبتسامة فاتنة ، ثم التفتت الى أمورها الأكثر إلحاحاً .

LXVIII

انقضى أسبوع . كانت كيتي تقوم بأعمال خياطة . دخلت الأم الرئيسة الغرفة وجلست الى جانبها . ألقت على عمل كيتي نظرة سريعة مدقّقة :

– أنتِ تخيطين على نحو جيّد جداً يا عزيزتي . إنه إنجاز نادر بالنسبة الى امرأة شابة من عالمك في هذه الأيام .

Amly نهضة العرب

- إنني أدين بهذا لأمي .
- أنا متأكدة من أن أمك ستسر سروراً عظيماً لرؤيتها لك ثانية .
رفعت كيتي عينيها . كان في سلوك الأم الرئيسة ما منع أخذها الملاحظة كمجاملة عرضية . وتابعت الكلام الآن :
- لقد سمحتُ لك في أن تحضري الى هنا بعد موت زوجك العزيز لإنني رأيتُ أن انشغالك سيصرف عقلك عن التفكير . فأنا لم أر أنك ستكونين مستعدة في تلك اللحظة على أن تقومي بالرحلة الطويلة الى هونج كونج لوحدك ، كما لم أرغب في أن تبقيّ وحيدة في بيتك وليس لديك ما تفعلينه سوى تذكّر خسارتك . لكن ثمانية أيام قد انقضت الآن . وها قد حان الوقت لترحلي :
- أنا لا أريد أن أرحل يا أمي . أريد أن أبقى هنا .
- ليس لديك ما تبقين من أجله . فقد جئتِ الى هنا لتقيمي مع زوجك . وزوجك مات . وأنتِ في وضع ستحتاجين فيه ، بعد وقت قصير ، الى رعاية واهتمام ، ومن المستحيل عليك أن تحصلي على هذا هنا . إن واجبك ، يا طفلتي العزيزة ، هو أن تبذلي قصارى جهدك لصالح المخلوق الذي أودعه الله ليكون تحت رعايتك .
صمتت كيتي للحظة . وغضّت نظرها .
- كنتُ أظن أنني ذات نفع هنا . كان من دواعي سروري العظيم أن أرى أنني كنتِ كذلك ، وآمل أن تسمحي لي في أن أتابع العمل الى أن يصل الوباء الى نهايته .
أجابت الأم الرئيسة وقد ارتسمت على شفتيها إبتسامة طفيفة :
- نحن شاكرات جداً لما قمتِ به من أجلنا ، لكن ، والآن وبعد أن أخذ خطر وصول الوباء الى هنا يخفّ ولم يعد خطراً كبيراً جداً ، فأنا أتوقع أن تحضر أختان من كانتون Canton . ستحلان هنا خلال وقت قصير جداً، وحينما تصلان ، فإنني لا أظن بأنني سأكون قادرة على الإستفادة من خدماتك .

Amly نهضة العرب

غاص قلب كيتي . لم تسمح لهجة الأم الرئيسة بأي جواب ، فكيتي تعرفها معرفة كافية لتقنعها بأنها ستعير توسلها أذناً صماء . وقد أضفت معرفتها ضرورةَ مناقشة كيتي مناقشة منطقية ، أضفت على صوتها نبرة ، إنْ لم تكن نبرة غضب ، فإنها على الأقل نبرة جزم قد يؤدي الى هذا الغضب .

– لقد تكرّم مستر وادينجتون وطلب مشورتي .

قاطعتها كيتي :

– أتمنى لو أنه اهتم بعمله الخاص .

وقالت الأم الرئيسة بلطف :

– لو أنه لم يطلب مشورتي لكنتُ أحسستُ بنفس الإلتزام لتقديمها اليه. إن مكانك في اللحظة الراهنة ليس هنا ، بل مع أمك . لقد قام مستر وادينجتون بالترتيبات مع العقيد يو لتقديم حراسة قوية حتى تكوني آمنة كل الأمان في رحلتك ، كما دبّر أمر الحمّالين والخدم . ستذهب الأمَة معك وستوضع الترتيبات في المدن التي ستمرّين خلالها . وفي الحقيقة ، لقد تم تنفيذ كل شيء ممكن من أجل راحتك .

زُمّت شفتا كيتي . رأت أنه كان عليهم أن يستشيروها على الأقل في أمر يعنيها هي نفسها . كان يمكنها أن تمارس بعض ضبط النفس حتى لا تجيب بحدّة :

– ومتى سأنطلق ؟

بقيت الأم الرئيسة هادئة تماماً .

– كلما استطعتِ العودة الى هونج كونج بسرعة ثم الإبحار الى إنجلترا ، كلما كان هذا أفضل ، يا طفلتي العزيزة . رأينا أنك ستودين الإنطلاق عند فجر بعد الغد .

– بهذه السرعة ؟

أحسّت كيتي بميل طفيف في أن تبكي . لكن هذا كان صحيحاً تماماً، فلم يكن لديها مكان هناك .

Amly نهضة العرب

ثم قالت بخشونة :

- يبدو أنكم كلكم متعجّلون في التخلّص مني .

أحسّت كيتي بتراخ في سلوك الأم الرئيسة . فقد رأت أن كيتي كانت مستعدة للإذعان ، فاتخذت بلا وعي لهجة أكثر لطفاً . كانت روح كيتي مرهفة ، ولمعت عيناها وهي تفكّر أن القديسين أنفسهم يحبون أن يسلكوا طريقهم الخاص بهم .

- لا تظني أنني لا أقدّر طيبة قلبك يا طفلتي العزيزة ولطفك النادر الذي يجعلك غير راغبة في التخلّي عن واجباتك التي فرضتِها على نفسك .

حدّقت كيتي أمامها مباشرة . وهزّت كتفيها هزّة خفيفة . كانت تعرف أنها لا يمكنها أن تعزي الى نفسها فضائل مجيدة كهذه . لقد أرادت أن تبقي هنا لإنه ليس لديها أي مكان تتجه اليه . لقد كان هذا إحساساً عجيباً ألاّ يكون في العالم أي شخص يهتم أدنى إهتمام إنْ كانت حيّة أو ميّتة .

واستطردت الأم الرئيسة قائلة بود :

- لا أفهم كيف تنفرين من العودة الى الوطن . في هذه البلاد العديد من الأجانب الذين سيقدّمون الكثير في سبيل أن تتاح لهم فرصتك !

- لكن ، لستِ أنتِ يا أمي ؟ !

- أوه ، إن الوضع مختلف بالنسبة الينا يا طفلتي العزيزة . فحين نأتي الى هنا ، فإننا نعرف أننا نترك بيوتنا الى الأبد .

ومن مشاعر كيتي الجريحة برزت الرغبة في عقلها ، التي ربما تكون خبيثة ، رغبة في البحث عن الوصلة في درع الإيمان الذي يحوّل الراهبات ويجعلهن محصّنات على هذا النحو المتعالي أمام كل المشاعر الطبيعية . وأرادت أن ترى ما إذا كان قد بقي في نفس الأم الرئيسة أي أثر من الضعف البشري .

- لا بد أنني فكّرتُ أنّ من الصعب أحياناً ألاّ تريّ ثانيةً أولئك الذين هم عزيزين على قلبك والمشاهد التي نشأتِ بينها .

Amly نهضة العرب

ترددت الأم الرئيسة للحظة ، لكن كيتي لم تستطع أن ترى ، وهي تراقبها ، أي تغيير في رصانة وجهها الجميل والصارم .

– إن هذا صعب على أمي العجوز الآن ، فأنا إبنتها الوحيدة ، وهي تود بتوق أن تراني مرة أخرى قبل أن تموت . أرغب في أن أتمكّن من أقدّم اليها تلك الفرحة . لكن هذا لا يمكن تحقيقة ، وسننتظر حتى نستطيع أن نلتقي في الجنة .

– الأمر سواء ، فحين يفكّر الإنسان في أولئك الناس الذين هو عزيز عليهم كثيراً ، فلا بد أن يكون من الصعب ألاّ يسأل الإنسان نفسه إنْ كان على حق في قَطع نفسه عنهم .

– هل تسألينني إنْ كنتُ قد ندمتُ في أي وقت من الأوقات على الخطوة التي خطوتها ؟

فجأة ، أشرق وجه الأم الرئيسة . وتابعت :

– أبداً ، أبداً ، لقد استبدلتُ حياة كانت تافهة ولامجدية مقابل حياة التضحية والصلاة .

ران صمت قصير ثم ابتسمت الأم الرئيسة ، سالكة سلوكاً ألطف :

– سأطلب منك أن تأخذي صرة صغيرة وترسليها لي بالبريد حين تصلين الى مرسيليا . لا أرغب في أن أعهد بها الى مكتب البريد الصينيّ . سأحضرها على الفور .

قالت كيتي :

– يمكنك إعطائي إياها غداً .

– ستكونين منشغلة جداً الى حد أنك لن تحضري الى هنا غداً يا عزيزتي. سيكون من الملائم أكثر لك أن تودّعينا الليلة .

نهضت واقفة وغادرت الغرفة بوقار غير متكلّف لم يستطع رداء الراهبة الفضفاض أن يخفيه . ودخلت الأخت القديس جوزيف الغرفة بعد لحظة . لقد حضرت لتودّعها . لقد أملت أن تقوم برحلة ميمونة ، وقالت لها أنها ستكون آمنة تماماً ، فالعقيد يو سيرسل حراسة قوية

Amly نهضة العرب

معها، وقد قامت الأخوات بالرحلة باستمرار لوحدهن ولم يصبهن أي أذى . وهل هي تحب البحر ؟ يا إلهي Mon Dieu ، يا للمرض الذي أصابها حين هبّت عاصفة في المحيط الهندي ، وقالت أن المدام Madam أمها ستسر حين ترى إبنتها ، ويجب أن تعتني بنفسها ، فبعد كل هذا ، فإن لديها روحاً صغيرة أخرى تحت رعايتها الآن ، وسيصلّون كلهم من أجلها ، وهي ستصلّي في استمرار من أجله ومن أجل الطفل الصغير العزيز ، ومن أجل روح الطبيب المسكين الشجاع . كانت ذلقة اللسان، رقيقة الحاشية وحنوناً ، لكن كيتي كانت على وعي عميق بأنها لم تعد بالنسبة الى الأخت القدّيس جوزيف (وتحديقها مثبّت على الأبدية) إلاّ مجرّد طيف بلا جسد أو مادة . وتملّكتها رغبة جامحة في أن تمسك بالراهبة المكتنزة الطيّبة من كتفيها وتهزّها صائحة : " ألا تعرفين أنني مخلوق بشري ، وتعيسة ووحيدة ، وإنني أنشد الراحة والعطف والتشجيع ، أوه ، ألا تستطيعين أن تتحوّلي للحظة عن الله وتسبغي عليّ قليلاً من الحنان ، ليس الحنان المسيحي الذي تكنينه لكل المعذّبين ، بل مجرّد حنان بشري لي ؟ " وأثار التفكيرُ إبتسامةً على شفتيّ كيتي : يا لمدى الدهشة العظيمة التي ستنتاب الأخت القديس جوزيف ! يقيناً أنها ستقتنع بما تشك فيه الآن فقط . وهو أن كل الشعب الإنجليزي مجانين .

أجابت كيتي :

– من حسن الحظ أنني بحّار جيد جداً . فلم أصب قط بدوار البحر .

عادت الأم الرئيسة بصرّة صغيرة مرتبة .

قالت :

– إنهامناديل صنعتُها بنفسي لمناسبة عيد تسميه أمي . لقد طرّزتْ فتياتنا الصغيرات الأحرفَ الأولى من إسمها .

أشارت الأخت القدّيس جوزيف الى أن كيتي تود أن ترى مدى الجمال الذي أنجز به الشغل ، فحلّت الأم الرئيسة الصرّة وهي تبتسم إبتسامة متسامحة وموبّخة . كانت المناديل من شاش ناعم وقد طرّزت

Amly نهضة العرب

الأحرف الأولى بحروف متشابكة يعلوها تاج من أوراق التوت . وحين أطرت كيتي الشغل إطراء مناسباً ، لفّت المناديل ثانية وسلّمت الصرة اليها . وبعد أن قالت الأخت القديس جوزيف : " حسناً يا سيدتي ، سأنصرف Eh bien , Madame , je vous quitte "، وكررت لها تحياتها المؤدبة واللاشخصية ، خرجتْ من الغرفة . وأدركت كيتي أن هذه هي اللحظة التي ستستأذن فيها من الأم الرئيسة . فشكرتها للطفها معها . ثم سارتا معاً على طول الممرات الداخلية العارية المبيّضة .

قالت الأم الرئيسة :

– هل سأكلّفك أكثر من اللازم إنْ طلبتُ منك أن تسجّلي الصرّة حين تصلين الي مرسيليا ؟

قالت كيتي :

– سأفعل ذلك طبعاً .

ألقت نظرة سريعة على العنوان .بدا الإسم فخماً جداً ، لكن المكان المذكور لفت إنتباهها .

– لكن ذلك أحد القصور chateaux التي رأيتها . كنتُ أسافر بالسيارة مع أصدقاء في فرنسا .

قالت الأم الرئيسة :

– إنه محتمل جداً . فمسموح للغرباء في أن يشاهدوه خلال يومين في الإسبوع .

– أظن أنني لو أقمت في مكان جميل كهذا ، لما وجدتُ الشجاعة لتركه.

– إنه نصب تاريخي طبعاً . لكنه لا يكاد يكون حميماً . إذا شعرتُ بالندم على أي شيء فلن يكون ذلك المكان هو الذي سأندم عليه ، بل القصر chateau الصغير الذي عشنا فيه حين كنتُ طفلة . كان هذا في البيرينيز Pyrenees . لقد ولدتُ على مسمع من البحر . إنني لا أنكر أنني أرغب أحياناً في أن أسمع الأمواج تلطم الصخور .

Amly نهضة العرب

خطرت في بال كيتي أن الأم الرئيسة ، وهي تخمّن ما يدور في ذهنها من أفكار بسبب ملاحظاتها ، تسخر منها بخبث . لكنهما وصلتا الى باب الدير الصغير المتواضع . ولدهشة كيتي ، أخذتها الأم الرئيسة بين ذراعيها وقبّلتها . كان ضغط شفتيها الشاحبتين على وجنتيّ كيتي مفاجئاً لها الى حد أنها احمرت وأثار فيها ميل لإن تبكي ، فقد قبلتها الأم على جانب ثم قبّلتها على الجانب الآخر .

– مع السلامة ، ليكن الله معك يا طفلتي العزيزة .

وأمسكت بها للحظة بين ذراعيها :

– تذكّري أن أداءك واجبك ليس شيئاً عظيماً ، فهو مطلوب منك ولا يستحق المكافأة أكثر مما يستحق غسلك ليديك حينما تكونان قذرتين ، إن الشيء الوحيد المهم هو حب الواجب ، وحين يكون الحب والواجب شيئاً واحداً ، فإن البركة تحل في نفسك وتستمتعين بسعادة تفوق كل إدراك .

وأغلق باب الدير لآخر مرة خلفها .

LXIX

سار وادينجتون مع كيتي صاعدَيْن التل ثم استدارا جانباً للحظة لينظرا الى قبر وولتر ، وعند القوس التذكاري ودّعها ، وبعد أن نظرت الى القوس لآخر مرة ، أحسّت بأنها يمكنها أن تجيب على السخرية الألغازية لمظهر هذا النصب بسخرية مماثلة من طرفها . وخطت راكبة محفّتها .

ومرّ يوم وراء الآخر . وبدت مناظر جانب الطريق كخلفية لأفكارها . ورأتها كأنها صورة طبق الأصل ، مدوّرة كأنها تظهرمن خلال منظار مجسّم ، وقد زادت أهميتها لإنه أضيف الى كل ما رأته ذكرى ما كانت قد رأته حين كانت تقوم بنفس الرحلة قبل بضعة أسابيع خلت في الإتجاه المضاد . تناثر الخدم الصينيون مع أحمالهم في غير نظام ، حيث

Amly نهضة العرب

يسير إثنان إثنان أو ثلاثة ثلاثة منهم معاً . ثم خادم واحد وحيد يسير خلفهم على بعد مائة ياردة ، ثم خادمان أو ثلاثة خدم آخرون ، أما جنود الحراسة فقد راحوا يسيرون مجرجرين أقدامهم بخطوات خرقاء قاطعين خمسة وعشرين ميلاً في اليوم ، وقد حمل الأمَةَ حمّالان بينما حمل محفّة كيتي أربعة حمّالين ، لا لإنها كانت أثقل منها ، بل من قبيل الفخامة . ومن وقت الى آخر ، قابلوا خيطاً من الخدم يمشون الهوينى في خط واحد وهم يحملون أعباءهم ، كما ظهر من حين الى آخر موظف صينيّ على محفّته ، فينظر الى المرأة البيضاء بعينين مستفسرتَيْن ، ومرّوا الآن بفلاّحين يعتمرون قبعات زرقاء باهتة وضخمة وهم في طريقهم الى السوق بينما مرّوا بامرأة شابة أو عجوز تسير مترنحة الى الأمام على قدمَيْن مقيّدتَيْن . وصعدوا تلالاً صغيرة وهبطوا منها وقد حفّت بها حقول أرز حسنة الترتيب وبيوت ريفيه تستكين بدعة في أحراش شجر الخيزران ، وعبروا قرى فقيرة ومدناً آهلة بالسكّان محاطة بأسوار كالمدن في كتاب قدّاس . كانت شمس الخريف الباكر رائعة ، وإذا ظهرت عند بزوغ النهار ، حين يضفي الفجر المومض على الحقول المرئية سحر حكاية جنّيات ، يكون الطقس بارداً لكي يصبح الدفء فيما بعد رائعاً . فيفعم كيتي إحساس من سعادة لم تبذل أي جهد في مقاومتها .

كانت المناظر الحيّة بلونها البهيج وتباينها غير المتوقع وغرابتها ، كستار مزركش مثّلتْ أطياف خيال كيتي أمامه كأنها أشكال غامضة وظلّية . بدت المناظر غير واقعية تماماً . وكانت ماي - تان - فو بسورها المحصّن بشرفات إطلاق النار كلوحة من القنّب الملوّنة الموضوعة على خشبة المسرح في مسرحية قديمة لتمثّل مدينة . وكانت الراهبات ووادينجتون وامرأة المانشو التي أحبته شخصيات خيالية بأقنعة، بينما كانت بقية الشخصيات ، الناس الذين ينسلون سائرين في شوراع ضيّقة ملتوية وأولئك الذين ماتوا شخصيات عظيمة بلا أسماء . ومن الطبيعي أن لهذه المسرحية ولكل هذه الشخصيات أهمية من نوع ما ،

Amly نهضة العرب

لكن ، ما هي هذه الأهمية ؟ كانوا كأنهم يقومون برقص طقسي ، متقن وقديم ، فتعرف أن لتلك الإجراءات المعقّدة معنى ، من المهم أن تعرفه ، ومع ذلك فإنك لا تستطيع أن ترى فيه أي مفتاح لحل لغزه ، ولا أي مفتاح .

بدا أن كيتي لا تصدّق (كانت امرأة عجوز تمر على طول الممر ، مرتدية ملابس زرقاء وكان اللون الأزرق تحت أشعة الشمس كاللون اللازوردي ، وكان وجهها بغضونه الألف الصغيرة كقناع من عاج قديم ، وقد مالت وهي تمشي على قدميها الدقيقتين على عصا سوداء طويلة) بدا أن كيتي لا تصدّق أنها وولتر اشتركا في ذلك الرقص الغريب وغير الواقعي . وكانا قد لعبا دورَيْن مهمَّيْنْ أيضاً . كان يمكن أن تفقد حياتها بسهولة ؛ ولقد فقد هو حياته . هل كان هذا نكتة ؟ ربما كان هذا لا شيء سوى حلم ستستيقظ منه مع تنهيدة ارتياح . بدا أنه حدث منذ وقت طويل في مكان بعيد جداً . بدا غريباً مدى عمق الظل المحيط بأشخاص تلك المسرحية مقابل خلفية حياة واقعية مغمورة بالشمس . وبدت الآن لكيتي كقصة كانت تقرأها ، وكانت مفزعة قليلاً حتى أنها بدت تعني لها القليل الى هذه الدرجة . لقد اكتشفت أنها لم تستطع أن تستعيد بدقة وجه وادينجتون الذي كان مألوفاً الى هذا الحد لها .

سيصلون هذا المساء الى المدينة الواقعة على النهر الغربي الذي ستأخذ منه الباخرة . ومن هناك ستبلغ هونج كونج خلال سفر ليلة واحدة فقط .

LXX

أحسّت كيتي بالخجل في البداية لإنها لم تبكِ حين مات وولتر . بدا هذا قسوة رهيبة . لماذا ، لقد اغرورقت عينا الضابط الصينيّ العقيد يو بالدموع . لقد أذهلها موت زوجها . كان من الصعب أن تفهم أنه لن يدخل البنجالو مرة أخرى ، وأنها لن تسمعه يستحم في حوض سوتشاو Suchow حين تنهض هي في الصباح . كان حيّاً وها هو الآن ميّت .

Amly نهضة العرب

واستغربت الأخوات استسلامها المسيحي ، وأعجبت بالشجاعة التي احتملت بها خسارتها . لكن وادينجتون كان أريباً . فبالرغم من كل تعاطفه الحزين ، إلاّ أنها أحسّت بشعور - كيف تصيغ هذا ؟ - أن لسانه في شدقه . كان موت، وولتر صدمة لها طبعاً . ما كانت تريده أن يموت . لكنها لم تحبه بالرغم من كل شيء ، ولم تحبه أبداً ، كان من اللائق أن تحتمل حزناً مناسباً ، وسيكون من القبيح والمبتذل حتى أن تسمح لأي شخص في أن يرى ما في قلبها ، لكنها كابدت الكثير مما يمنعها أن تخدع نفسها بالتظاهرات الزائفة . فقد بدا لها أن هذه الأسابيع القليلة الماضية على الأقل قد علّمتها أنه إنْ كان هناك ضرورة في بعض الأحيان أن تكذب على الآخرين فإنه سيكون من المخزي دائماً أن تكذب على نفسها . لقد أسفت على موت وولتر بذلك الأسلوب التراجيدي ، لكنها حزنت عليه حزناً بشرياً خالصاً كالحزن الذي ستشعر به لو كان الميت أحد معارفها . إنها تعترف أن لوولتر خصائص مثيرة للإعجاب ، لكن الذي حدث أنها لم تمل اليه ، فقد كان يثير الملل في نفسها دائماً . ولم تكن لتقر بأن موته أشعرها بالإرتياح ، فهي يمكنها القول بصدق بأنها ، إنْ كانت تستطيع أن تعيده الى الحياة بكلمة تنطقها ، فإنها ستنطق هذه الكلمة ، لكنها لم تستطع مقاومة الشعور بأن موته جعل طريقها أسهل قليلاً الى حد ما . ما كانا سيكونان سعيدَيْن معاً ، لكن فراقهما سيكون صعباً الى حد رهيب . وقد أفزعها أن تحسّ بما أحسّت به ، وافترضت أن الناس سيرَوْن أنها عديمة القلب وقاسية إنْ عرفوا هذا . حسناً ، يجب ألاّ يعرفوا . وتساءلت إنْ كان لدى كل زميلاتها ، في أعماق قلوبهن ، أسرار مخزية يقضين أوقاتهن وهن يصنّها من النظرات الفضولية .

نظرت الى المستقبل قليلاً جداً ، ولم تضع خططاً . وكان الشيء الوحيد الذي أرادت أن تفعله هو المكوث في هونج كونج أقصر مدة ممكنة . وتطلّعت الى الوصول الى هناك بهلع . وبدا لها أنها تود أن

Amly نهضة العرب

تتجوّل الى الأبد في تلك البلاد الباسمة الودود وهي في محفّة الراتان ، وأن تمضي كل ليلة تحت سقف مختلف ، فتكون مشاهِدةً لامبالية لأوهام الحياة الكابوسية المرعبة الى الأبد . لكن ، لا بد من مواجهة المستقبل القريب طبعاً، ستذهب الى الفندق حين تصل الى هونج كونج ، وتعمل على التخلّص من البيت وبيع الأثاث ، وليس ثمة حاجة الى أن ترى تاونسيند . سيكون لديه من الكيّاسة ما يجعله يبتعد عنها . وهي تود، مع ذلك ، أن تراه مرة أخرى لتخبره عن مدى اعتبارها له كمخلوق حقير.

لكن ، ما الذي يهمها في تشارلز تاونسيند ؟

وكلحن يُعزف على قيثارة harp يرن في إيقاع منتشٍ متعاقب سريع في تناسقات harmonies سمفونية معادة ، كانت فكرة واحدة تخفق في قلبها بإلحاح . كانت هذه الفكرة هي التي أضفت على حقول الأرز جمالها الغريب ، مما أدى الى انفراج شفتيها الشاحبتين بابتسامة حالما انفتل ماراً بها فتى أحمر الوجه في طريقه الى بلدة السوق ، منتشياً في عربته والتهوّر يطلّ من عينيه ، مما أسبغ سحر الحياة الضاجّة على المدن التي سارت خلالها . كانت مدينة الوباء سجناً هربت منه ، ولم تعرف من قبل قط كم كانت جميلة زرقة السماء وأي فرح يشعر به الإنسان داخل أيكات أشجار الخيزران المائلة بروعة فاتنة على ممر الطريق. الحرية ! تلك كانت الفكرة التي غنّت في قلبها الى درجة أن المستقبل أصبح متألقاً مثل الضباب فوق النهر الذي تسقط عليه الشمس بالرغم من أن هذا المستقبل كان معتماً . الحرية ! ليست حرية فقط من بركة ماء عكرة ، ولا من صحبةٍ أثارت الكآبة في نفسها ، ليست حرية فقط من الموت الذي هدّدها ، بل حرية من الحب الذي حطّ من نفسها ، حرية من كل الروابط الروحية ، الحرّية من روح مجرّدة من الجسد ، ومع الحرية شجاعة وجسارة غير مكترثة بأي شيء ستأتي به الأيام .

Amly نهضة العرب

LXXI

عندما رست السفينة في هونج كونج ، دخلت كيتي التي كانت تقف على سطح السفينة لتنظر الى حركة النهر الملوّنة والرمادية والنشيطة ، دخلت الى قمرتها لتتأكد من أن الأمَة لم تترك شيئاً خلفها . ألقت على نفسها نظرة في المرآة . كانت ترتدي السواد ، فقد كانت الراهبات قد صبغن فستاناً لها ، لكنه لم يكن فستان حداد ، وخطر ببالها أن أول شيء يجب أن تفعله هو أن تلتفت الى هذا . لم يكن باستطاعة ملابس الكرب عمل أي شيء سوى تقديم خدمةِ تخفّي مؤثّر لمشاعرها غير المتوقّعة . وسمعت طرقاً على باب قمرتها . ففتحت الأمة .

– مسز فاين .

استدارت كيتي ورأت وجهاً لم تميّزه في الوهلة الأولى . ثم خفق قلبها خفقة فجائية سريعة واحمرّ وجهها . كانت دوروثي تاونسيند . كان توقّع كيتي أن تراها قليلاً جداً الى درجة أنها لم تعرف ما تفعله ولا ما تقوله . لكن السيدة تاونسيند دخلت القمرة واحتضنت كيتي بين ذراعيها بحركة سريعة .

– أوه عزيزتي . أنا آسفة جداً من أجلك .

سمحت لها كيتي في أن تقبّلها . دهشتْ قليلاً من هذا الإندفاع العاطفي من امرأة ظنّت دائماً أنها باردة وبعيدة .

همهمت كيتي :

– إن هذا لطف زائد منك .

– لنصعد الى سطح السفينة . فالأمَة ستعتني بمتاعك كما أن خدمي هنا .

أمسكت بيد كيتي ، فلاحظت كيتي ، وقد تركتْ نفسها تقاد ، أن وجهها الطيّب والذي لوّحه الطقس يحمل تعبير اهتمام حقيقي .

قالت السيدة تاونسيند :

– وصلت سفينتك في وقت مبكّر . كدت ألاّ أصل الى هنا في الوقت

Amly نهضة العرب

المناسب . ما كنت سأحتمل هذا لو أنني لم أستقبلك .

قالت كيتي باستغراب :

- لكنك لم تحضري لاستقبالي ؟

- حضرتُ لذلك طبعاً .

- لكن ، كيف عرفتِ أنني قادمة ؟

- لقد أبرق اليّ مستر وادينجتون .

أشاحت كيتي بوجهها . وكانت في حلقها غصّة . كان من السخف أن تؤثّر عليها على هذا النحو رقةٌ طفيفة غير متوقعة . لم ترد أن تبكي، وتمنّت أن تنصرف تاونسيند عنها . لكن دوروثي أمسكت باليد التي كانت تتدلّى الى جنب كيتي وضغطت عليها . وأربك كيتي أن تكون هذه المرأة الخجولة معبّرة عن عواطفها الى هذا الحد .

- أريد منكِ أن تسدي اليّ معروفاً كبيراً . فتشارلي وأنا نريدك أن تأتي وتقيمي معنا طيلة بقائك في هونج كونج .

نزعت كيتي يدها بعنف .

- إن هذا لطف عظيم منكما . لا يمكنني هذا .

- لكنكِ يجب أن تأتي . فأنتِ لا تستطيعين أن تذهبي وتقيمي في بيتك وحدك تماماً . سيكون هذا رهيباً عليك. لقد أعددتُ كل شيء .ستكون لك غرفة جلوس خاصة بك . وستتناولين وجباتك هناك إنْ لم يهمك أن تتناوليها معنا . فنحن كلانا نريدك أن تأتي .

- لم أكن أفكّر بالذهاب الى البيت . كنت سآخذ لنفسي غرفة في فندق هونج كونج . فما كان الممكن أن أجشمكما الكثير من العناء .

كان العرض قد أخذها على حين غرة . فارتبكت وانزعجت . لو كان لدى تشارلي أي إحساس بالحشمة لما سمح لزوجته في تقديم الدعوة اليها . فهي لا تريد أن يكون لأي منهما فضل عليها .

- أوه ، لكنني لا أستطيع أن أحتمل فكرة إقامتك في فندق . وستكرهين فندق هونج كونج منذ الآن . بكل أولئك الناس المتنقّلين في أرجائه وفرقة

Amly نهضة العرب

الموسيقى تعزف موسيقى الجاز طيلة الوقت . أرجو أن تقولي أنك ستحضرين الينا . أعدك ألاّ أزعجك ، لا أنا ولا تشارلي .

قالت وقد أخذتْ تنقصها الأعذار ، فلم تستطع أن تحمل نفسها على أن تنطق بكلمة : لا ، حازمة وجازمة :

- لا أدري سبب لطفكما الزائد معي . أخشى ألاّ أكون صحبة جيدة جداً بين الغرباء الآن .

- لكن ، أيمكن أن نكون غرباء بالنسبة اليك ؟ أوه ، لا أريد أن أكون غريبة ، أريدك أن تسمحي لي في أن أكون صديقتك .

شبكت دوروثي يديها ، وكان صوتها ، صوتها البارد المتأني والمميّز، مرتعشاً بالدموع .

- أريدك أن تأتي بالحاح . أنتِ تَرَيْن ، إنني أريد أن أصلح ذات البين.

لم تفهم كيتي . فهي لم تعرف ما هي الإصلاحات التي تدين بها زوجة تشارلي لها .

- أخشى أنني لم أمل اليك كثيراً في البداية . فقد ظننتُ أنك مستهترة الى حد ما . فأنتِ تَرَيْن بأنني امرأة قديمة الطراز وأظنني غير متسامحة.

ألقت عليها كيتي نظرة عابرة . ما عنته كان أنها رأتْ كيتي مبتذلة في البداية . وبالرغم من أن كيتي لم تسمح بأي ظل من هذا يبدو على وجهها ، فإنها ضحكت في قلبها . أصبحتْ تهتم الآن كثيراً بما يفكّر أي إنسان فيها !

- وحين سمعتُ أنكِ رحلت مع زوجك الى فكيّ الموت ، وبلا أدنى تردد ، أحسستُ بأنني نذلة الى حد كبير. أحسست بالإذلال الشديد . لقد كنتِ مدهشة جداً ، وكنتِ شجاعة جداً ، لقد جعلتِ بقيتنا كلنا نبدو رخيصات ومبتذلات الى حد رهيب .

وكانت الدموع تنسكب على وجهها الطيب الوادع :

- لا يمكنني أن أخبرك عن مدى إعجابي واحترامي اللذين أكنهما لك . إنني أعرف أنني لا أستطيع فعل شيء لأعوّضك عن خسارتك الكبيرة ،

Amly نهضة العرب

لكنني أريدك أن تعرفي مدى عمق شعوري نحوك ومدى إخلاصي لك . وإن أنتِ سمحتِ لي فقط في أن أقدّم اليك شيئاً قليلاً فإن هذا سيكون منّة منك . لا تحملي لي أية ضغينة لإنني أسأتُ الحكم عليك . فأنتِ امرأة بطلة وأنا مجرّد امرأة بلهاء سخيفة .

غضّت كيتي الطرف ناظرة الى سطح السفينة . كانت شاحبة جداً . ورغبت في أن لا تظهر دوروثي مثل ذلك الإنفعال غير المسيطرَ عليه . لقد تأثّرت بهذا ، هذا صحيح ، لكنها لم تستطع منع نفسها من أن تشعر بشعور طفيف من نفاذ الصبر بأن هذه المخلوقة البسيطة تصدّق أكاذيب كهذه .

تنهّدت :

- إن كنتِ تعنين حقاً بأنك ترغبين في أن تستقبليني في بيتك ، فسيسرّني طبعاً أن آتي .

LXXII

كانت امرأة تاونسيند تقيم في القمة في بيت يطل على منظر شاسع من البحر ، ولم تكن من عادة تشارلي الحضور لتناول الغداء ، لكن دوروثي أخبرت كيتي في يوم وصولها (فقد أصبحتا تتخاطبان باسم كيتي وباسم دوروثي الآن) بأنه سيحضر ويرحّب بها إنْ هي رغبتْ في أن تراه . فكّرت كيتي في أنها إنْ كانت لا بد أن تراه فإنه يحسن أن تراه على الفور ، وراحت تتطلّع بسرور مقيت الى الإرتباك الذي لا بد أن تسببه له. لقد أدركت تماماً بأن دعوتها للإقامة قد نبتت في خيال زوجته وأنه بادر بالموافقة عليها بالرغم من مشاعره التي ثارت في نفسه. فكيتي تعرف مدى رغبته العظيمة دائماً في أن يتصرّف تصرّفاً سليماً ، وكان من الواضح جداً أن إكرام وفادتها هو التصرّف السليم . لكنه لم يكن ليستطيع أن يتذكّر لقاءهما الأخير دون أن يحسّ بالخزي ؛ فلا بد أن

Amly نهضة العرب

موقفاً كهذا سيكون بالنسبة الى رجل مغرور الى حد كبير كتاونسيند مثيراً للسخط كقرحة لا يمكن الشفاء منها . لقد أملت أن تكون قد آذته قدر ما آذاها . لا بد أنه يكرهها الآن . وكان من دواعي سرورها أن ترى أنها لا تكرهه ، بل تحتقره فقط . وأثار فيها رضى ساخراً أنها رأتْ بأنه سيضطر الى إكرام وفادتها مهما كانت المشاعر التي يكنّها لها . فحين تركت مكتبه بعد ظهر ذلك اليوم ، لا بد أنه أمل من كل قلبه ألاّ تقع عيناه عليها ثانية بعد ذلك .

والآن وبينما هي تجلس مع دوروثي ، أخذت تنتظر وصوله . كانت على علم بالسرور الذي يسري في نفسها وهي في جو فخامة غرفة الإستقبال الرزينة . فجلست في كرسي مريح ، وكانت هنا وهناك أزهار جميلة ، وصور رائعة على الجدران ، وكانت الغرفة مظللة وباردة ، وتوحي بالود والإحساس بالأمان . وتذكّرتْ ، وهي ترتعش رعشة طفيفة ، ردهة بنجالو طبيب الإرسالية الفارغة ، وكراسي الراتان وطاولة المطبخ بغطائها القطني ، والأرفف الملطّخة بكل طبعات الروايات الرخيصة، والستائر الصغيرة الهزيلة الحمراء التي تغطّيها طبقة من التراب. أوه ، لقد كان بنجالو غير مريح الى تلك الدرجة ! لقد افترضت أن دوروثي لم تفكّر بذلك قط .

وسمعت محرّك سيارة تصعد ، وخطا تشارلي الى داخل الغرفة .

– هل تأخّرت ؟ آمل ألاّ أكون قد أبقيتكما تنتظران . كان لا بد أن أرى الحاكم ، ولم أستطع ببساطة أن أفر.

واقترب من كيتي وأمسك بيديها كليهما .

– إنني مسرور جداً جداً لمجيئك الى هنا . أعرف أن دوروثي أخبرتك أننا نود أن تقيمي هنا قدر ما تشائين، وأننا نريدك أن تعتبري بيتنا كبيتك . لكنني أريد أن أخبرك أنا نفسي بهذا أيضاً . لو أن هناك أي شيء في العالم يمكنني القيام به ، فإنني سأكون بالغ السرور للقيام به .

كانت عيناه تعبيراً فاتناً من الإخلاص ، وقد تساءلت في نفسها إنْ

Amly نهضة العرب

كان قد رأى السخرية في عينيها .

– إنني غبي جداً في قول بعض الأقوال ، وأنا لا أريد أن أبدو أبله أخرق التصرّف ، لكنني أريدك أن تعرفي مدى عمق تعاطفي معك لوفاة زوجك. فقد كان شاباً طيّباً نشيطاً . وسيفتقدونه هنا أكثر مما يمكنني التعبير عن هذا .

قالت زوجته :

– كفى يا تشارلي . أنا متأكدة من أن كيتي تفهم ... ها هي كؤوس الكوكتيل .

وتبعاً لعادة الأجانب المرفهة في الصين ، دخل صبيان خادمان في بزتهما الخاصة. وهما يحملان المقبّلات وكؤوس الكوكتيل . رفضت كيتي أن تشرب .

إلحّ تاونسيند بطريقته اللطيفة :

– أوه ، لا بد أن تتناولي كأساً . سوف تفيدك ، وأنا متأكد من أنك لم تتناولي شيئاً كالكوكتيل منذ أن غادرتِ هونج كونج . إلا إذا أخطأتُ الظن بأنكم لم تكونوا تستطيعون الحصول على ثلج في ماي – تان –فو.

قالت كيتي :

– أنتَ لم تخطيء .

وللحظة ، ارتسمت أمام عينيّ ذهنها صورة ذلك المتسوّل مشعّث الشعر مرتدي الأسمال البالية الزرقاء التي ترى فيها أطرافه الهزيلة والذي استلقى ميّتاً عند سور مجمّع السكن .

LXXIII

دخلوا غرفة الطعام للغداء . وتولى تشارلي ، الذي جلس على رأس طاولته ، مسؤولية إدارة الحديث بسهولة . وبعد تلك الكلمات الأولى من التعاطف ، لم يعامل كيتي كأنها عانت من تجربة مدّمرة بل كأنها

Amly نهضة العرب

عادت من شنغهاي للتغيير بعد إجراء عملية الزائدة الدودية . وكانت بحاجة الى رفع روحها المعنوية وكان هو مستعداً لرفع روحها المعنوية . وكانت أفضل طريقة لجعلها تحس بأنها في بيتها هي أن يعاملها كواحدة من الأسرة . لقد كان رجلاً لبقاً . وشرع يتكلّم عن سباق خيل الخريف ولعبة البولو - يا إلهي ، إن عليه أن يكفّ عن لعب البولو إنْ هو لم يستطع أن يخفف وزنه - وعن حديث تبادله مع الحاكم في ذلك الصباح وخلال بضع دقائق . وتكلّم عن الحفلة التي ذهبوا اليها وأقيمت في بارجة الأميرال القائمة بشؤون الدولة في كانتون ، والإتصالات في لوشان Lushan . أحسّت كيتي خلال بضع دقائق كأنها لم تغب عن هونج كونج لمدة تتجاوز عطلة نهاية إسبوع . وكان من غير المصدّق أن رجالاً ونساء وأطفالاً هناك ، في الريف ، وعلى بُعد ستمائة ميل فقط (المسافة بين لندن وأدنبره ، أليس كذلك ؟) يموتون كالذباب . وسرعان ما وجدت نفسها تسأل عن هذا وذاك ممن كسروا عظمة ياقة في لعبة بولو ، وعما إذا كانت السيدة هذه قد عادت الى الوطن أو أن السيدة تلك تلعب في دورة التنس ، وراح تشارلي يلقي نكاته الصغيرة فابتسمتْ لها . وراحت دوروثي بجو تعاليها الطفيف (وقد ضم الآن كيتي فلم تعد هجومية ، فصار رباطَ توحيد بينهما الى حد ما) تسخر سخرية لطيفة بأشخاص مختلفين في المستعمرة ، فتزايد حذر كيتي .

قال تشارلي لزوجته :

- ياه ، أصبحتْ تبدو في حال أفضل . لقد كانت شديدة الشحوب قبل الغداء الى حد أنني فزعت تماماً ، لقد سَرَى بعض اللون في وجنتيها الآن .

لكن ، وبينما هي تشارك في الحديث ، وإنْ كان ذلك بلا مرح من طرفها (فقد أحسّت أن لا دوروثي ولا تشارلي بحسن ذوقه المثير للإعجاب سيوافقان على ذلك المرح) بل بروح معنوية عالية على الأقل ،

Amly نهضة العرب

أمعنت كيتي النظر في مضيفها . فطيلة تلك الأسابيع التي انشغل فيها خيالها به على نحو انتقامي ، طبعتْ في ذهنها إنطباعاً حيّاً جداً عنه . كانت خصلات شعره الكثيف أطول من اللازم قليلاً ، وممشوطاً بالفرشاة بحرص شديد جداً ، وذلك لكي يخفي حقيقة أن الشيب كان يخطه . كما كان عليه الكثير من الزيت ، وكان وجهه شديد الإحمرار بشبكة عروقه الخُبّازية اللون على وجنتيه ، وكان فكه الأسفل أضخم من اللازم ؛ وحين لا يرفع رأسه الى الأعلى ليخفيه فإنك ترى أن له ذقناً مضاعفة ، وكان في حاجبيه الكثّين الضاربين الى اللون الرمادي شيء شبيه بالقرد مما أثار تقززها على نحو غامض . وكان ثقيلاً في حركاته ، ولم يمنعه كل الحرص الذي أبداه في حميّته عن الأكل ، ولا كل التمارين التي كان يقوم بها ، من أن يصبح سميناً ، وكانت عظامه مغطاة بكثير جداً من اللحم بينما تعاني مفاصله من تصلّب رجل في منتصف العمر . كانت ملابسه ضيّقة عليه وأكثر شباباً قليلاً أيضاً.

لكنه وحين دخل غرفة الإستقبال قبل الغداء ، أصيبت كيتي بصدمة (ربما لهذا السبب لوحظ شحوبها على ذلك النحو) ، فقد اكتشفت أن خيالها خدعها خدعة عجيبة ؛ إنه لا يبدو قط كما كانت صوّرته . ما كانت تستطيع أن تمنع نفسها من الضحك على نفسها إلاّ بصعوبة . لم يكن شعره شائباً قط ، أوه ، هناك بعض الشعرات البيضاء القليلة على فوديه ، لكنها كانت تناسبه ، ولم يكن وجهه أحمر بل ملوّحاً بالشمس، وكان رأسه مثبّتاً على رقبته على نحو جيد جداً ، ولم يكن مكتنزاً ولا عجوزاً ؛ فهو في الحقيقة يكاد يكون نحيلاً وكان قوامه مدهشاً – أيمكنك أن تلوميه إنْ كان مغروراً بهذا قليلاً ؟ – ربما كان يمكنه أن يكون شاباً. وهو يعرف كيف يرتدي ملابسه طبعاً ، ومن السخف إنكار ذلك ، إنه يبدو مرتباً ونظيفاً وأنيقاً . ما الذي استحوذ عليها وجعلها تفكّر فيه على هذا النحو وذاك ؟ كان رجلاً أنيقاً جداً . من حسن حظها أنها عرفت مدى تفاهته . لقد أقرّت دائماً بأن لصوته

Amly نهضة العرب

خاصية فاتنة طبعاً ، وكان صوته كما تذكّرته بالضبط ؛ وقد أحال هذا الصوتُ زيفَ كل كلمة قالها أكثرَ إثارة للسخط ، فغنَى نغمته ودفئها ترن في أذنها الآن بنفاق ، وتساءلت مستغربة كيف خُدعتْ به في أي وقت من الأوقات . كانت عيناه جميلتين ؛ هناك يكمن سحره ، فلهما لمعان رقيق أزرق وكانتا تطبعان تعبيراً مثيراً للبهجة الى حد بعيد حين يتكلّم هراء ، وكان من المستحيل تقريباً ألاّ تتأثر بهما .

وأحضرت القهوة أخيراً ، فأشعل تشارلي سيجار الشيروت . نظر الى ساعة يده ونهض واقفاً من الطاولة :

– حسناً ، لا بد أن أترككما أيتها الشابتان لشؤونكما . فقد حلّ وقت عودتي الى المكتب .

صمت ثم قال وعيناه الودودتان الساحرتان تحطّان على كيتي .

– لن أزعجك ليوم أو يومين الى أن تستريحي ، وبعدئذ سأتبادل معك حديث عمل .

– معي ؟

– لا بد أن نقوم بترتيبات تتعلّق ببيتك ، كما تعرفين ، وهناك الأثاث .

– أوه ، لكنني أستطيع الذهاب الى محام . ليس ثمة داع لأزعجك بذلك.

– لا تفكّري حتى للحظة في أنني سأدعك تضيّعين مالك على نفقات قانونية ، سأهتم بكل شيء . فأنت تعرفين أن من حقك تقاضي راتب تقاعد ؛ سأتكلّم مع سيادته حول هذا وأعمل على حصول مبلغ إضافي لك إذا قدّمتِ طلبات الى الدائرة المختصة . ضعي نفسك بين يديّ . لكن ، لا تزعجي نفسك بأي شيء حتى تلك اللحظة . كل ما نريدك أن تفعليه هو أن تستريحي وتتحسّن صحتك ؛ أليس الأمر كذلك يا دوروثي ؟

– طبعاً .

وأومأ لكيتي إيماءة طفيفة ثم أخذ يد زوجته وقبّلها وهو يمر بها . يبدو أن أغلب الرجال الإنجليز بلهاء حين يقبّلون يد امرأة ، لكنه فعل

Amly نهضة العرب

هذا بطبيعة رشيقة .

LXXIV

لم تكتشف كيتي أنها كانت منهكة القوى إلاّ بعد أن استقرّت تقريباً مع أسرة تاونسيند . ووضعت الراحة وأسبابها غير المعتادة لهذه الحياة حداً للإجهاد الذي كانت تعيش فيه . فقد كانت قد نسيت مدى السرور الذي ينبع في نفس الإنسان حين يعيش حياة الدعة ، ومدى السكينة التي يعيش فيها وهو محاط بأشياء جميلة ، ومدى الطمأنينة التي يحس بها الإنسان وهو موضع الإهتمام . وغرقت في وجود الشرق المترف الوديع وهي تطلق تنهيدة ارتياح . ولم يكن مما يثير الإزعاج أن تحس أنها موضع إهتمام متعاطف بطريقة حكيمة ومهذّبة . وكانت فجيعتها حديثة مما جعل من المستحيل أن تُقدّم اليها الدعوات لحضور حفلات ، لكن نساء ذات حيثية في المستعمرة (زوجة سيادته ، وزوجة الأميرال وزوجة رئيس المحكمة) حضرن لشرب فنجان شاي معها . وقد قالت زوجة سيادته أن سيادته متلهف جداً لرؤيتها ، وأنه سيكون من اللطيف جداً لو أنها أتت بهدوء تام لتناول الغداء في دار الحكومة (" ليست حفلة طبعاً ، نحن فقط وزوجات المعاونين ") . وعاملت هذه السيدات كيتي كأنها قطعة خزف صينيّ سهلة الكسر قدر ما هي ثمينة. لم يسعها إلاّ أن ترى أنهن ينظرن اليها كبطلة صغيرة ، وكانت تتحلّى بما يكفي من روح المرح لتقوم بالدور بتواضع وحكمة . وتمنّت أحياناً أن يكون وادينجتون موجوداً هناك ، ، لكان سيرى بمكره الخبيث سخافةَ الوضع ، وحين ينفردان فإنهما سيضحكان معاً على هذا الوضع من كل قلبيهما . كانت دوروثي قد تلقّت رسالة منه ، أخبرها فيها عن كل الأمور المتعلّقة بعملها التي قامت به في الدير ، وعن شجاعتها ورباطة جأشها . لقد كان يجرّ أرجلهن بمهارة طبعاً ، الكلب القذر .

Amly نهضة العرب

LXXV

لم تعرف كيتي إنْ كان عدم إنفرادها للحظة واحدة مع تشارلي صدفةً أو قصداً . فأسلوبه كان رائعاً . فقد ظلّ لطيفاً ومتعاطفاً وبهيجاً وودّياً . لم يكن باستطاعة أحد أن يحزر أنهما كانا أكثر من شخصين متعارفين فقط . لكنه مرّ بها بعد ظهر أحد الأيام واتجه الى الشرفة حين كانت تستلقي على صوفا خارج غرفتها وهي تقرأ ، فتوقّف :

سأل :

– ما الذي تقرأينه ؟

– كتاب .

نظرت اليه ساخرة . فابتسم :

– لقد ذهبت دوروثي الى حفلة حديقة في دار الحكومة .

– أعرف . لماذا لم تذهب أنت أيضاً ؟

– لم أشعر بأنني أستطيع تحمّلها كما أنني فكّرتُ في أن أعود وأظل بصحبتك . إن السيارة في الخارج ، هل تودين أن تخرجي في نزهة بالسيارة في أرجاء الجزيرة ؟

– لا ، شكراً .

جلس على طرف الصوفا السفلي التي تستلقي عليها :

– لم تتح لنا فرصة تبادل حديث وحدنا منذ أن وصلتِ الى هنا .

نظرت في عينيه مباشرة بوقاحة باردة :

– هل ترى أن لدينا شيئاً نقوله لبعضنا بعضاً ؟

– الكثير .

حركت قدميها بعيداً حتى لا تلمسه .

سأل ، وظل إبتسامة على شفتيه ، وعيناه تذوبان :

– هل لا زلتِ غاضبة مني ؟

ضحكت :

Amly نهضة العرب

– أبداً .
– لا أظن أنك ستضحكين لو لم تكوني غاضبة .
– أنت مخطىء ، إنني أحتقرك كثيراً ، كثيراً جداً الى حد يمنعني من أن أغضب منك .
كان هادئاً .
– أظن أنك قاسية الى حد ما عليّ . وبالنظر الى الماضي بهدوء الآن ، ألا ترين صدقاً أنني كنتُ على حق ؟
– من وجهة نظرك .
– الآن وبعد أن عرفتِ دوروثي ، فلا بد أن تقرّي بأنها لطيفة الى حد ما؟
– طبعاً ، وسأظل ممتنة دائماً للطفها العظيم نحوي .
– إن هذا اللطف صفة من ألف صفة . ما كنت سأعيش لحظة هدوء ، لو هربنا معاً . لكنا خدعناها خدعة نتنة . بعد كل هذا ، كان عليّ أن أفكّر في أولادي ، لكان الهرب عائقاً رهيباً لهم .
وظلّت تثبّت عليه تحديقتها المتأملة لمدة دقيقة . لقد أحسّت أنها سيدة الموقف بالكامل .
– لقد راقبتكَ بدقة شديدة خلال الإسبوع الذي أقمتُ فيه هنا . وقد توصّلتُ الى الإستنتاج بأنك مغرم بدوروثي حقاً . ما كنتُ أظن أنك قادر على مثل هذا الغرام .
– لقد أخبرتك بأنني شغوف بها . ولن أقوم بأي شيء سيسبب لها أية لحظة إزعاج . إنها أفضل زوجة يمكن للإنسان أن يحظى بها .
– هل فكّرتَ في يوم من الأيام بأنك مدين لها بالوفاء ؟
إبتسم :
– إن ما لا تراه العين لا يحزن عليه القلب .
هزّت كتفيها :
– أنتَ حقير .

Amly نهضة العرب

- أنا إنسان . أنا لا أعرف لماذا ترَيْن بأنني وغد لإنني غرقتُ في حبك حتى أذنيّ . لم أرد أن أحبك على نحو خاص ، كما تعرفين .

وشدَ سماعها لقوله ذلك أوتارَ قلبها قليلاً ؛

فأجابت بمرارة :

- كنتُ لعبة جميلة .

- من الطبيعي أنني لم أتنبأ أننا كنا سنقع في ورطة شيطانية كهذه .

- وعلى أية حال ، كانت تدور في ذهنك فكرة خبيثة بأنه إنْ كان سيعاني أحدنا من هذه الورطة ، فإنكَ لن تكون أنتَ الذي سيعاني .

- أظن أن هذا غير معقول قليلاً . بعد كل هذا ، انتهى كل شيء ، ولا بد أنك ترين بأنني تصرّفتُ لصالحنا معاً . لقد فقدتِ عقلكِ ، ويجب أن تسرّي عظيم السرور في أنني احتفظتُ بعقلي . أتظنين بأنني كنت سأنجح لو أنني فعلتُ ما أردتهِ مني ؟ لقد دُفعنا على نحو مزعج الى داخل مقلاة ، لكننا كنا سنكون في حال أسوأ كثيراً في النار . كما لم يصبكِ أي ضرر . لماذا لا نقبّل بعضنا ونصبح أصدقاء ؟

كادت تضحك :

- لا يمكن أن تتوقع مني أن أنسى أنك أرسلتني الى موت محقق تقريباً بلا ظلّ من وخز ضمير ؟

- أوه ، يا له من هراء ! لقد أخبرتكِ بأنه لن يكون هناك أية مخاطرة لو أنكِ أخذتِ الإحتياطات المعقولة . هل تظنين أنني كنتُ سأدعكِ تذهبين للحظة لو لم أكن مقتنعاً تماماً بذلك ؟

- كنتَ مقتنعاً لإنكَ أردتَ أن تكون مقتنعاً . فأنتَ واحد من أولئك الجبناء الذين يفكّرون فيما هو مجزٍ لهم فقط .

- حسناً ، البرهان على حسن مذاق الزلابية هو أكلها . لقد عدتِ ، وإنْ أنتِ لن تمانعي في قولي قولاً موضوعياً تماماً ، فإنني أقول إنكِ عدتِ أجمل من السابق .

- وولتر ؟

Amly نهضة العرب

لم يستطع أن يقاوم الجواب المرح الذي خطر في باله . إبتسم تشارلي .

– لا يناسبك أي لون كما يناسبك الأسود .

حدّقت فيه للحظة . وترقرقت الدموع في عينيها وبدأت تبكي . فشوّه الحزن وجهها . لم تحاول أن تخفي هذا ، بل استلقت على ظهرها ويداها على جنبيها .

– من أجل الله ، لا تبكي على ذلك النحو . لم أقصد أن أقول أي كلام قاس . كان هذا مجرّد نكتة . فأنت تعرفين مدى صدق شعوري نحوك في محنتك .

– أوه ، إمسك لسانك الغبي .

– إنني سأقدّم أي شيء لكي يعود وولتر ثانية .

– لقد مات بسببك وسببي .

أمسك بيدها ، لكنها نزعتها بشدة منه .

نشجت :

– من فضلك : إذهب . ذلك هو الشيء الوحيد الذي يمكنك أن تفعله من أجلي الآن . إنني أكرهك وأحتقرك . كان وولتر يساوي عشرة من أمثالك ، وكنت بلهاء جداً الى حد أنني لم أر هذا . إنصرف . إنصرف .

رأتْ أنه كان سيتكلّم ثانية ، فنهضتْ على قدميها ودخلت غرفتها . تبعها ، ودخل بحذر غريزي ثم أغلق المصاريع الخشبية فأصبحا في ظلام تقريباً .

قال محيطاً إياها بذراعيه :

– لا يمكنني تركك على هذه الحال ، وأنتِ تعرفين بأنني لم أقصد أن أؤذيك .

– لا تلمسني . من أجل الله إذهب . إنصرف .

حاولت أن تنزع نفسها منه ، لكنه لم يدعها تفلت . كانت تبكي بكاءً هستيرياً الآن .

Amly نهضة العرب

قال بصوت عميق ساحر :

- حبيبتي ، ألا تعرفين أنني أحببتك دائماً . وأنني أحبك الآن أكثر من أي وقت آخر .

- كيف يمكنك أن تكذب أكاذيب كهذه ! أتركني . اللعنة عليك ، اتركني .

- لا تقسي عليّ يا كيتي . أنا أعرف أنني كنتُ فظّاً معك ، لكن ، إغفري لي .

كانت تهتز وتنشج ، مجاهدة للإبتعاد عنه ، لكن ضغط ذراعيه كان مريحاً على نحو غريب . لقد تاقت كثيراً الى أن تحس بهما حولها مرة أخرى ، مرة واحدة فقط ، فارتعش كل جسدها . أحسّت بأنها ضعيفة الى حد رهيب . بدا كأن عظامها تذوب ، وتحوّل الحزن الذي أحسّت به نحو وولتر الى رثاء على نفسها .

نشجت :

- أوه ، كيف أمكنكَ أن تقسو عليّ الى هذا الحد ؟ ألا تعرف بأنني أحببتك من كل قلبي ؟ لم يحبك أحد قط كما أحببتك .

- حبيبتي .

وأخذ يقبّلها .

صاحت :

- لا ، لا .

بحث عن وجهها ، لكنها أشاحت به ، فبحث عن شفتيها ، ولم تعرف ما كان يقول ، كلمات حب عاطفية متكسّرة ، وأمسكت بها ذراعاه بقوة شديدة الى حد أنها أحسّت كطفل ضاع وعاد الآن سالماً الى البيت أخيراً. أنّتْ أنّة طفيفة ، أغمضتْ عينيها وتبلل وجهها بالدموع . ثم وجد شفتيها وانطلق ضغط شفتيه عليهما متخللاً جسدها كلهب إلهي. وكان هذا نشوةً اشتعلت حتى أصبحت جمرة ساخنة وتوهّجت كأنها تتخذ شكلاً آخر . في أحلامها ، في أحلامها عرفت هذه النشوة.

Amly نهضة العرب

ما الذي يفعله بها الآن ؟ لم تعرف. لم تكن امرأة ، لقد تحللت شخصيتها ، ولم تكن شيئاً سوى رغبة . ورفعها عن الأرض ، لقد كانت خفيفة جداً بين ذراعيه ، فحملها وتعلّقت هي به ، يائسة ومتيّمة ، وغرق رأسها على المخدّة وتعلّقت شفتاه بشفتيها .

LXXVI

جلست على حافة السرير مخفيةً وجهها بين يديها .

– أتريدين قطرة ماء ؟

هزّت رأسها . اتجه نحو حامل المغسلة ، وملأ كأس ماء وقدّمها اليها .

– هيّا ، إشربي قليلاً وستتحسن حالك .

وضع الكأسَ على شفتيها ورشفت هي الماء . ثم حدّقت فيه بعينين مرتعبتَيْن . كان يقف فوقها ، ناظراً الى الأسفل وفي عينيه تألّق رضى عن الذات .

سأل :

– حسناً ، هل ترين أنني كلب قذر كما رأيتِ في السابق ؟

غضّت نظرها .

– نعم . لكنني أعرف أنني لستُ أفضل منكَ في قليل أو كثير . أوه ، إنني خجلة الى حد كبير .

– حسناً ، أظن أنك جاحدة جداً .

– هل ستنصرف الآن ؟

– لأقل لك الحقيقة ، أظن أن الوقت أزف . سأذهب وأرتّب نفسي قبل أن تدخل دوروثي .

وخرج من الغرفة بخطى مرحة .

جلست كيتي لوهلة ، وهي لا تزال على حافة السرير ، منحنية الظهر

Amly نهضة العرب

كامرأة معتوهة . كان عقلها خاوياً. وسرت رعدة في أوصالها . تمايلت واقفة على قدميها ، وغرقت في كرسي بعد أن اتجهت الى منضدة الزينة. حدّقت في نفسها في المرآة . كانت عيناها منتفختين من الدموع ، ووجهها ملطّخاً كما انطبعت علامة حمراء على أحد خديها حيث استقر خده . نظرت الى نفسها برعب . كان نفس الوجه . كانت تتوقّع أن ترى فيه ما لا تدريه من تغيّر الى انحطاط .

وقذفت كلمتها على انعكاس صورتها :

– خنزيرة ! خنزيرة .

ثم ، وبعد أن تركت وجهها يسقط على ذراعيها ، بكت بمرارة ، عارا! لماذا لم تدر ما حدث لها . كان أمراً رهيباً . لقد كرهته وكرهت نفسها . لقد كانت نشوة . أوه ، كريهة ! لن تستطيع أن تنظر في وجهه ثانية. لقد كان مُبرّراً تماماً . لقد كان على حق في ألاّ يتزوجها ، فهي لا تساوي شروى نقير ، ولم تكن أفضل من قحبة . أوه ، بل أسوأ ، فتلك النساء المسكينات يقدّمن أنفسهن من أجل الخبز . وفي هذا البيت أيضاً ، البيت الذي أخذتها دوروثي اليه وهي في حزنها وفي أساها القاسي ! أهتز كتفاها مع نحيبها . لقد ولّى كل شيء الآن . لقد ظنّت أن نفسها تغيّرت ، لقد ظنّت أن نفسها قوية ، لقد ظنّت أنها عادت الى هونج كونج وهي امرأة متمالكة نفسها ، وتطايرت أفكار حول قلبها كفراشات صغيرة صفراء في أشعة الشمس وأملت أن تتحسن كثيراً في المستقبل ، وأشارت حرية كروح من نور اليها لتتقدّم الى الأمام ، وصار العالم كسهل شاسع تستطيع أن تسير فيه بخطى خفاف ورأس منتصب . ظنّت أنها متحررة من الشهوة والعواطف القذرة، متحررة لتعيش حياة الروح النظيفة والصحيّة ، لقد شبّهت نفسها بطيور البشلون البيضاء التي تطير طيراناً هيّناً عبر حقول الأرز عند الغسق ، طيور كأفكار محلّقة لعقل في حالة وئام مع نفسه ، وكانت هي عبدة . ضعيفة ضعيفة ! إنها حالة لا أمل فيها ، وليس من المجدي أن تحاول ، إنها عاهرة .

Amly نهضة العرب

لن تذهب للعشاء ، وأرسلت الصبي الخادم الى دوروثي ليخبرها بأنها تعاني من صداع وفضّلت أن تبقى في غرفتها . دخلت دوروثي الغرفة ، فتكلّمت اليها قليلاً بطريقتها اللطيفة والحنون والمواسية عن أشياء تافهة بعد أن رأت عينيها الحمراوين المنتفختين . عرفت كيتي أن دوروثي ظنّت أنها تبكي بسبب وولتر ، فاحترمت ، وهي تتعاطف معها كالزوجة الطيبة المحبّة التي كانتها في حقيقة الأمر ، حزنَها الطبيعي .

قالت وهي تترك كيتي :

– أعرف أن الحال صعبة جداً يا عزيزتي . لكن ، يجب أن تحاولي أن تتشجّعي . إنني متأكدة من أن زوجك لن يرغب في أن تحزني عليه .

LXXVII

لكن كيتي نهضت في ساعة مبكّرة من الصباح التالي ، وبعد أن تركت ملاحظة لدوروثي تقول فيها بأنها خرجت للقيام بعمل ، ركبت ترامواي وهبطت التل . وشقّت طريقها خلال الشوارع المزدحمة بسياراتها وعربات الركشة والمحفّات والجمهور الأوروبي والصينيّ متعدد الأشكال والألوان ، واتجهت الى مكاتب شركة پي أند أو P & O Company . كانت هناك سفينة ستبحر خلال يومين ، أول سفينة ستغادر : فقررت أنها لا بد أن تسافر عليها مهما كانت التكاليف . وحين أخبرها الموظّف في الشركة أن جميع المضاجع في السفينة كانت قد حُجزت ، طلبت أن ترى الوكيل المسؤول . وبعثتْ بإسمها ، فخرج الوكيل ، الذي كانت قد قابلته من قبل ، وأدخلها الى مكتبه . كان يعرف ظروفها ، وحين أخبرته بما ترغب فيه ، أرسل في طلب قائمة الركّاب . نظر الى القائمة وقد سيطر عليه الارتباك .

حثّته قائلة :

– أناشدك أن تفعل ما يمكنك فعله .

Amly نهضة العرب

أجاب :

- لا أظن أنه يوجد أي إنسان في المستعمرة لن يُقدم على فعل أي شيء في العالم من أجلك يا مسز فاين .

أرسل طالباً موظّفاً ، واستفسر منه بعض الإستفسارات . ثم أومأ برأسه .

- سأنقل شخصاً أو شخصين . إنني أعرف أنك تريدين أن تذهبي الى الوطن ، وأنا أظن أننا يجب أن نبذل قصارى جهدنا من أجلك . يمكنني أن أقدّم اليك قمرة صغيرة . وأتوقّع أن ذلك سيعجبك .

شكرته . وتركته وقلبها يرقص فرحاً . الهرب ! ذلك كان تفكيرها الوحيد . الهرب ! وأرسلت برقية الى أبيها لتبلغه عن عودتها الفورية ، وكانت قد أرسلت اليه في السابق برقية تقول له أن وولتر مات ، ثم عادتْ ثانية الى أسرة تاونسيند لتخبر دوروثي بما فعلته .

قالت المخلوقة اللطيفة :

- سنكون آسفين جداً لفقدك ، لكنني أفهم طبعاً أنك تريدين أن تكوني مع أمك وأبيك .

ومنذ عودة كيتي الى هونج كونج ، ترددت يوماً بعد يوم في أن تذهب الى بيتها . لقد خافت أن تدخله وتقابل الذكريات التي تعمر هذا البيت وجهاً لوجه . لكن ، لم يعد لديها الآن أي بديل . وكانت تاونسيند قد دبّر بيع الأثاث ووجد شخصاً متلهفاً الى أن يستأجر البيت، لكن كل ملابسها وملابس وولتر بقيت هناك ، فهما لم يأخذا سوى القليل جداً منها الى ماي - تان - فو ، وكانت هناك كتب وصور فوتوجرافية وأشياء نثرية مختلفة . وأدركت كيتي اللامبالية بكل شيء والمتلهفة بقطع نفسها كلياً عن الماضي ، أدركت أنها ستثير حساسيات المستعمرة إنْ هي سمحتْ في أن تباع هذه الأشياء مع بقية الأثاث في غرفة المزاد . فلا بد أن تُحزم وترسل اليها . فأعدّت نفسها بعد الغداء لتذهب الى البيت . وقد عرضت دوروثي ، المتلهفة لتقديم العون اليها ،

أن تصحبها ، لكن كيتي طلبت منها أن تسمح لها في أن تذهب وحدها . لكنها وافقت على أن يذهب خادمان من خدم دوروثي معها ليساعداها في حزم متاعها .

كان البيت قد تُرك تحت مسؤولية رئيس الصبية ، ففتح الباب لكيتي. كان من الغريب أن تدخل بيتها الخاص كما لو كانت غريبة . كان مرتّباً ونظيفاً . وكان كل شيء في محله ، جاهزاً لاستعمالها ، وبالرغم من أن اليوم كان دافئاً ومشمساً ، إلاّ أن جواً بارداً وموحشاً عمّ أرجاء الغرف الصامتة . كان الأثاث مرتّباً على نحو جامد ، وفي المكان الذي يجب أن يكون فيه تماماً ، كما كانت المزهريات التي يجب أن تحوي أزهاراً في أماكنها ، والكتاب الذي وضعته كيتي ووجهه الى الأسفل ، ولا تتذكّر متى فعلت ذلك ، لا يزال موضوعاً ووجهه الى الأسفل . بدا كأن البيت تُرك خاوياً قبل دقيقة فقط ، لكن تلك الدقيقة كانت زاخرة بالأبدية الى حد أنك لم تكن تستطيع أن تتخيّل أن البيت سيردد صدى حديث ويطلق ضحكاً مرة أخرى . وعلى البيانو ، بدا أن موسيقى فوكستروت مفتوحة في انتظار أن تُعزف ، لكن شعوراً كان يتملكك بأنك إنْ أنتَ طرقت المفاتيح فإنه لن ينبعث أي صوت منه . كانت غرفة وولتر مرتبة كما كانت حين كان هو هناك. وعلى خزانة الأدراج كانت صورتان فوتوجرافيّتان لكيتي ، إحداهما في فستان الخطوبة والثانية في رداء زفافها .

لكن الصبية الخدم أحضروا صناديق المتاع من غرفة الصناديق ، فوقفتْ تراقبهم وهم يحزمون الأمتعة . حزموا الأمتعة بعناية وسرعة ، ورأت كيتي أنه سيكون من السهل خلال يومين أن يكون كل شيء منتهياً . لن تدع نفسها تفكّر ، فوقتها لا يتسع لذلك . فجأة ، سمعت خطوات خلفها ، فاستدارت ورأت تشارلز تاونسيند . أحسّت ببرودة فجائية تسري في قلبها .

سألت :

Amly نهضة العرب

- ماذا تريد ؟
- هلاّ دخلتِ الى غرفة الجلوس ؟ عندي ما أقوله لك .
- أنا مشغولة جداً .
- سأستبقيك خمس دقائق فقط .

لم تزد ، لكنها تقدّمت تشارلز الى داخل الغرفة المجاورة بعد أن ألقتْ أمراً على الصبية الخدم ليتابعوا ما كانوا يقومون به من عمل . لم تجلس لكي تبيّن له أنها تتوقّع منه ألاّ يحتجزها . كانت تعرف أنها كانت شاحبة جداً وأن قلبها يخفق بسرعة ، لكنها واجهته ببرود وبعينين معاديتين .

- ما الذي تريده ؟
- سمعتُ من دوروثي بأنك سترحلين بعد غد . وأخبرتني بأنك ستحضرين الى هنا لتقومي بحزم أمتعتك ، وطلبتْ مني أن أتصل هاتفياً وأرى إنْ كان هناك أي شيء يمكنني فعله من أجلك .
- أنا شاكرة لك ، لكنني أستطيع تدبير أمري بنفسي على نحو جيّد .
- هذا ما تخيّلته . لم أحضر الى هنا لكي أسألك ذلك السؤال . جئت لأسألك إنْ كان سفرك الفجائي بسبب ما حدث بالأمس .
- لقد كنتَ ودوروثي طيبَيْن جداً معي . ولا أرغب في أن تفكّر أنني أستغل طيبعتكما الطيّبة ؟
- ذلك ليس جواباً مباشراً .
- ما الذي يهمك من هذا ؟
- إنه يهم كثيراً . فأنا لا أحب أن أتصوّر أن أي تصرّف قمتُ به هو الذي دفعك الى الرحيل .

كانت تقف أمام الطاولة . غضّت النظر . وسقطت عيناها على جريدة سكيتش Sketch . لقد انقضى على صدورها أشهر الآن . كانت تلك الجريدة التي حدّق فيها وولتر في المساء الرهيب حين - وأصبح وولتر الآن ، كان ... رفعت عينيها .

Amly نهضة العرب

– إنني أحس بأنني منحطة تماماً . فأنتَ قد لا تستطيع أن تحتقرني قدر ما أحتقر نفسي .
– لكنني لا أحتقرك . لقد عنيتُ كل كلمة قلتها أمس . ما جدوى الهرب على هذا النحو ؟ لا أعرف لماذا لا نستطيع أن نكون صديقَيْن . إنني أكره فكرة تفكيرك بأنني عاملتك معاملة سيئة .
– لماذا لا تدعني وشأني .
– ليشنق الكل ، إنني لست لصقة أو حجراً . إنها غير معقولة تلك الطريقة التي تنظرين بها الى الأمر ، إنها طريقة مَرَضيّة جداً . لقد ظننتُ بعد أمس بأنك ستحسّين نحوي بعطف أكثر . بعد كل هذا ، نحن مجرّد بشر .
– إنني لا أحس بأنني بشر . أشعر كأنني حيوان . خنزيرة أو أرنب أو كلب . أوه ، أنا لا ألومك ، فأنا بنفس السوء . لقد استسلمتُ لك لإنني أردتك . لكن الذي استسلم لم يكن أنا الحقيقية . فأنا لست امرأة كريهة حيوانية شهوانية . إنني أتبرأ من هذه المرأة . لم أكن أنا التي استلقت على ذلك السرير لاهثة رغبة فيك حينما لم يكد يبرد زوجي في قبره ، وكانت زوجتك لطيفة جداً نحوي الى ذلك الحد ، لطيفة الى حد لا يمكن وصفه ؛ لقد كان فقط الحيوان فيّ ، حيواناً معتماً ومخيفاً كروح شريرة ، وأنا أتبرأ منه وأكرهه وأحتقره . ومنذ ذلك الوقت ، وحين أفكّر بهذا ، ترتفع الغُصة في حلقي وأحسّ بأنني يجب أن أتقيأ .
عبس قليلاً وأطلق ضحكة مكتومة قصيرة أو قلقة .
– حسناً ، إنني متسامح ، لكنك تقولين أحياناً كلاماً يصيبني بصدمة .
– يؤسفني أن أقول ذلك . يحسن بك أن تذهب الآن . أنت رجل غير مهم قليل الشأن وأنني لسخيفة إذ أتحدّث اليك بجدية .
لم يجب لوهلة ، ورأتْ من الظل في عينيه الزرقاوين أنه غاضب منها . كان سيطلق تنهيدة ارتياح حين يودّعها أخيراً عند رحيلها ، بأدبه وظرفه المألوفين . وراق لها أن تفكّر في الأدب الذي ستشكره به على

Amly نهضة العرب

كرمه وهما يتصافحان وهو يتمنى لها رحلة سعيدة . لكنها رأتْ أساريره تتغير .

قال :

- تقول لي دوروثي بأنكِ ستنجبين طفلاً .

أحسّت بنفسها تتضرّج ، لكنها لم تسمح بأية حركة في أن تند عنها .

- نعم .

- هل ثمة فرصة في أن أكون الأب ؟

- لا ، لا . إنه طفل وولتر .

تكلّمت بتأكيد لم تستطع تفاديه ، لكنها عرفتْ حتى وهي تتكلّم بأن اللهجة التي تكلّمت بها لم تكن اللهجة التي تحمل الإقناع .

كان يبتسم الآن إبتسامة شريرة .

- هل أنتِ متأكدة ؟ على كلٍ ، لقد تزوّجتِ من وولتر منذ سنتين تقريباً، ولم يحدث شيء . إن التاريخ يبدو متطابقاً تماماً . أظن أنه من المحتمل أن يكون طفلي أكثر من طفل وولتر .

- أوثر أن أقتل نفسي على أن أحمل طفلاً منك .

- أوه ، هيا بنا الآن ، ذلك هراء . سأكون مسروراً وفخوراً الى حد كبير. أود أن يكون الطفل بنتاً ، فأنت تعرفين ، فلديّ من دوروثي أولاد ذكور فقط كما تعرفين : وأولادي الثلاثة هم صورة حيّة تماماً مني .

كان قد استعاد مزاجه الرائق وعرفت السبب . فإنْ كان الطفل طفله ، فإنها لن تستطيع الهرب منه قط بالرغم من أنها قد لا تراه ثانية قط . وستمتد قوته عليها وسيظل مؤثّراً على كل يوم من حياتها تأثيراً غامضاً وأكيداً في نفس الوقت .

قالت :

- أنت حقاً أحمق وجحش وأكثر الناس غروراً حملني سوء حظي على أن أقابله بالصدفة .

Amly نهضة العرب

LXXVIII

بينما كانت السفينة تبحر داخلة مرسيليا ، وقع بصر كيتي فجأة ، وهي تنظر الى معالم الشاطيء القاسي الجميل المتوهج تحت أشعة الشمس ، على تمثال العذراء المباركة الذهبي الذي ينتصب على كنيسة القدّيسة ماري النعمة Sainte Marie de la Grace كرمز لسلامة البحّار في البحر . تذكّرت كيف ركعت أخوات الدير في ماي - تان - فو وهن يرحلن عن بلادهن الى الأبد ، والشكل يخبو بعيداً حتى لم يعد أكبر من لهب ذهبي صغير في السماء الزرقاء ، وبحثن في الصلاة عن تخفيف وقع الفراق عليهن . فضمّت يديها ضارعة الى قوة لم تعرفها .

وخلال الرحلة الطويلة الهادئة ، فكّرت بلا انقطاع في الأمر الرهيب الذي حدث لها . لم تستطع أن تفهم نفسها . كان ذلك غير متوقّع تماماً . ما الذي تملّكها فجعلها تستسلم بشوق لعناق تشارلي القذر بالرغم من أنها تحتقره ، تحتقره من كل قلبها ؟ ملأها الغضب واستحوذ عليها الإشمئزاز من نفسها . أحسّت بأنها لن تستطيع قط أن تنسى إذلالها . فبكت . لكنها وجدت ، والمسافة عن هونج كونج تزداد ، أنها تفقد حيوية سخطها على نحو غير مفهوم . فقد بدا أن ما حدث حدث في عالم آخر . وكانت كإنسان أصابه جنون فجائي ، فيكتئب بعد استعادة عقله ويحس بالخجل من الأعمال البشعة التي يتذكّر بأنه قام بها حين لم يكن في حالته الطبيعية . لكن ، ولإنه يعرف بأنه لم يكن في حالته الطبيعية ، فإنه يحس بأنه يستطيع، بينه وبين نفسه على الأقل ، أن يطلب الغفران . وفكّرت بأن قلباً كريماً ربما قد يرثي لها فقط ولا يدينها . لكنها تنهّدت وهي تفكّر بمدى تحطّم ثقتها بنفسها على نحو فاجع . لقد بدت الطريق تمتد أمامها مستقيمة وسهلة ، وها هي الآن ترى أنها طريق ملتوية وأن حفراً تنتظرها . وأراحتها الفضاءات الشاسعة وغروب شمس المحيط الهندي الجميل . وبدا أنها محمولة الى

Amly نهضة العرب

بلاد قد تتمكّن فيها أن تمتلك روحها بحرية . فلو أنها استطاعت فقط أن تستعيد احترامها مقابل صراع مرير ، فحسناً ، لا بد أن تجد الشجاعة لمواجهة هذا الصراع .

كان المستقبل موحشاً وصعباً . واستلمت في بور سعيد رسالة من أمها جواباً على برقيتها . كانت رسالة طويلة كتبت بخط كبير وغريب، وهي كتابة كانت تُعلَّم للسيدات الشابات في أيام شباب امها . وكان تنميق الكتابة جميلاً جداً الى حد أنه يثير فيك انطباعاً بزيفه . وعبّرت السيدة جارستين عن أسفها لوفاة وولتر وتعاطفت تعاطفاً لائقاً مع حزن إبنتها . خشيت أن تكون كيتي قد تُرِكَتْ دون أن تُزوّد بما يناسبها من مال ، لكن وزارة المستعمرات ستقدّم اليها راتب تقاعد طبعاً . كانت مسرورة لمعرفتها أن كيتي ستعود الى إنجلترا ولا بد أن تأتي وتقيم مع أبيها وأمها الى أن تضع طفلها طبعاً . ثم تبعت هذا تعليمات معيّنة لا بد أن تتأكد كيتي من إتباعها ، وتفاصيل مختلفة عن ولادة أختها دوريس. وأن الولد الصغير يزن كذا وكذا وأن جدّه ، أبا أبيه ، قال إنه لم ير قط طفلاً أجمل منه . وأن دوريس تنتظر مولوداً آخر وأنهم يأملون في إنجاب ولد آخر لكي تصبح وراثة البارونية مؤكدة تماماً .

رأت كيتي أن غاية الرسالة تكمن في التاريخ المحدّد للدعوة . فليس في نيّة السيدة جارستين أن تتحمّل عبء إبنة مترمّلة في ظروف متواضعة . كان من الغريب ، وهي تفكّر كيف كانت أمها تجعل منها معبوداً ، أن أمها أصبحت الآن تجد فيها مجرّد شيء مزعج بعد أن خاب أملها فيها . يا لمدى غرابة العلاقة بين الوالدين والأبناء ! فحين يكون الأبناء صغاراً فإن الوالدَيْن يشغفان بهم ويعانون كرب الخوف من كل مرض طفولي يصيبهم ، ويتعلّق الأطفال بوالدَيْهم بحب وعبادة ، وتمر بضع سنين ويكبر الأطفال ، فيصبح أشخاص لا ينتمون اليهم بصلة الرحم أكثر أهمية لسعادتهم من أبيهم وأمهم . وتحلّ اللامبالاة محل حب الماضي الأعمى والغريزي . وتصبح اللقاءات مصدر ملل وسخط . وبعد

Amly نهضة العرب

أن كانوا سيذهلون عند التفكير لفراق شهر ، يصبحون الآن قادرين على التطلّع برباطة جأش للإفتراق لمدة سنين . لا داع لقلق أمها ؛ فبأسرع ما سيمكنها هذا ، ستؤسس بيتاً لنفسها وخاصاً بها . لكنها لا بد أن يتاح لها وقت قصير ، فكل شيء الآن غامض ولا تستطيع أن تكوّن أية صورة للمستقبل ؛ ربما ستموت عند الوضع ، وسيكون هذا حلاً لكثير من الصعوبات .

وحين رسوا ، سُلّمت لها رسالتان . دُهشت عند تعرّفها على خط أبيها ؛ إنها لا تتذكّر أنه كان قد كتب اليها من قبل قط . لم يكن مسرفاً بالتعبير عن عواطفه ، فقد بدأ الرسالة ؛ عزيزتي كيتي . وأخبرها بأنه يكتب بدلاً من أمها التي لم تكن في صحة جيدة واضطرّت الى أن تذهب الى بيت إشفاء لإجراء عملية . وعلى كيتي ألاّ تخشى شيئاً وأن عليها أن تستمر في السفر بالبحر ، فستكون العودة بالبر أغلى كثيراً كما أنه سيكون من غير المناسب لكيتي أن تقيم في البيت في حدائق هارينجتون وأمها خارج البيت . وكانت الرسالة الأخرى من أختها دوريس وبدأت ؛ حبيبتي كيتي ، ولم يكن هذا لإن دوريس تكن لها حباً خاصاً ، بل لإن هذه هي طريقتها في مخاطبة أي شخص تعرفه .

حبيبتي كيتي ؛

أتوقّع أن يكون أبوك قد كتب اليك رسالة . ستجري عملية جراحية على أمنا . يبدو أنها كانت تعبة جداً طيلة السنة الماضية ، لكنك تعرفين أنها تكره الأطباء ، وكانت تأخذ كل أنواع الأدوية المتوفرة . إنني لا أعرف بالضبط ما تعاني منه فهي تصرّ على إخفاء الأمر كله وتنفجر في نوبة عاطفية إنْ أنتِ طرحتِ عليها أية أسئلة .لقد بدا عليها أنها في حالة سيئة تماماً ، ولو كنتُ في محلك فإنني كنت سأفكّر بالنزول في مرسيليا وأعود بأسرع وقت ممكن ، لكن ، لا تذكري لها بأنني طلبتُ منكِ الحضور ، فهي تتظاهر بأن ما تعاني منه ليس خطيراً وهي لا تريدك أن تصلي الى هنا إلاّ بعد أن تعود هي الى البيت . لقد أجبرتُ الأطباء على أن يعدوها أن تنتقل الى البيت خلال إسبوع . حبي

Amly نهضة العرب

الخالص .

دوريس

آسفة جداً فيما يتعلّق بوولتر . لا بد أنكِ أمضيت وقتاً جهنّمياً يا حبيبتي المسكينة . إنني في شوق عارم لكي أراك ، سيكون من الجميل أن نضع كلانا طفلَيْن معاً . سنكون قادرتَيْن على أن تمسك كل منا بيد الأخرى .

وقفت كيتي لوهلة وجيزة على سطح السفينة وقد استغرقتْ في التفكير . فلم تستطع أن تتخيّل أمها مريضة . فهي لا تتذكّر قط أنها رأتها إلاّ وهي نشيطة وحازمة أمرها ، لقد كانت دائماً غير صابرة على أمراض الناس الآخرين . ثم صعد مضيف في السفينة واقترب منها ومعه برقية .

بحزن عميق نعلمك أن أمك ماتت هذا الصباح . أبوكِ .

LXXIX

رنّت كيتي جرس البيت في حدائق هارينجتون . أعلمتْ أن أباها في غرفة مكتبه ، فاتجهت الى الباب وفتحته بلطف ، كان يجلس الى جانب النار يقرأ آخر طبعة من الجريدة المسائية . رفع نظره حين دخلتْ ، فوضع الجريدة ، وقفز بعصبية ليقف على قدميه .

– أوه كيتي ، لم أتوقّع حضورك إلاّ في القطار التالي .

– فكّرتُ أنكَ لن ترغب في أن أزعجك بالمجيء للقائي ، لذلك لم أبرق بالوقت الذي أتوقّع فيه الوصول .

وقدّم اليها وجنته لتقبّلها بالطريقة التي تتذكّرها جيداً .

قال :

Amly نهضة العرب

– كنتُ ألقي الآن نظرة على الجريدة . فأنا لم أقرأ الجريدة منذ اليومين الماضيين .

رأت أنه يظن أن هناك حاجة الى بعض الشرح إنْ هو شَغَل نفسه في شؤون الحياة العادية .

قالت :

– طبعاً . لا بد أنك تعب جداً . أخشى أن تكون وفاة أمي صدمة كبيرة عليك .

كان أكبر سناً وأنحف مما كان حين رأته آخر مرة . رجل ضئيل مغضّن الوجه وجاف ، ومحافظ على السلوك السليم بدقة .

– قال الطبيب الجرّاح أنه لم يكن هناك أي أمل . لم تكن في حالة طبيعية لمدة تزيد عن سنة ، لكنها رفضت أن ترى طبيباً . لقد أخبرني الطبيب الجرّاح أنها ظلّت تعاني من ألم مستمر ، وقال أن من المعجزة أنها كانت قادرة على تحمّل هذا الألم .

– ألم تشتكِ أبداً ؟

– قالت إنها لم تكن في صحة جيدة . لكنها لم تشتكِ أبداً من ألم .

صمت ونظر الى كيتي :

– هل أنتِ تعبة جداً بعد رحلتك ؟

– لست تعبة جداً .

– أتودين أن تصعدي الى الطابق العلوي وتلقي نظرة عليها ؟

– هل هي هنا ؟

– نعم ، لقد أحضرتْ من بيت الإشفاء .

– نعم ، سأذهب الآن .

– أتودين أن آتي معك ؟

كان في لهجة أبيها شيء جعلها تنظر اليه بسرعة . كان وجهه مشاحاً عنها قليلاً ، لم يرد أن تلتقي عيناها بعينيه . وكانت كيتي قد اكتسبت مؤخراً قدرة عجيبة في قراءة أفكار الآخرين . فبعد كل ما

Amly نهضة العرب

جرى ، ركّزت قدراتها الحسّية يوماً بعد يوم لتحدد بالحَدْس من كلمة عرضية أو حركة غير محترسة أفكارَ زوجها الخبيئة . وحزرت على الفور ما كان والدها يحاول أن يخفيه عنها . لقد كان ما يحس به هو ارتياح، ارتياحاً غير محدود ، وكان خائفاً من نفسه . فلمدة ثلاثين سنة قاسية متوالية ، كان زوجاً طيّباً ومخلصاً ، ولم ينطق بكلمة واحدة ذامّاً بها زوجته ، وعليه الآن أن يحزن عليها . لقد قام دائماً بما كان يُتَوقّع منه القيام به . وسيكون مما يثير الصدمة في نفسه أن يغشي بومضة جفن أو بأصغر تلميح حقيقة أنه لا يشعر بما يجب أن يشعر به زوج حُرم من زوجته في ظل هذه الظروف .

قالت كيتي :

- لا ، سأذهب وحدي .

صعدتْ الى الطابق العلوي ودخلتْ غرفة النوم الكبيرة الباردة الفخمة التي نامت فيها أمها مدة سنين عديدة . تذكّرت جيداً قطع الأثاث الضخمة من خشب الماهوجني تلك والنقوشات التي تزخرف الجدران بأسلوب ماركوس ستون Marcus Stone . ورُتبت الأشياء على منضدة الزينة بالدقة الحازمة حسبما أصرّت السيدة جارستين على ترتيبها طيلة حياتها . وبدت الأزهار في غير مكانها ، فالسيدة جارستين كانت سترى أن وجود أزهار في غرفة نومها سخيف ومتكلّف وغير صحي . فلم يُغط عطرُ هذه الأزهار الرائحةَ الحرّيفة للملاءات المغسولة منذ عهد قريب ، والتي تذكرت كيتي أن غرفة أمها تتميّز بها .

استلقت السيدة جارستين على السرير ، ويداها مطويتان على صدرها بخنوع لم تكن لتصبر عليه في حياتها . وبدت ، بملامحها القوية الحادة ووجنتيها الفارغتين من المعاناة وبصدغيها الغائرين ، جميلةً ومهيبة . لقد سلب الموتُ اللؤمَ من وجهها ، وخلّف عليه فقط ذكرى شخصيتها . قد تكون إمبراطورة رومانية. بدا غريباً لكيتي أن هذه الإنسانة الميّتة هي الإنسانة الميتة الوحيدة التي رأتها في حياتها والتي تحتفظ بهيئة

Amly نهضة العرب

توحي بأن ذلك الصلصال كان ذات مرة مأوى الروح . لم تستطع أن تحس بالحزن ، فقد كان بينها وبين أمها الكثير من المرارة مما يمنع أن تخلّف في قلبها أي شعور عميق من الحنان ، وعرفت الآن وهي تستعيد الماضي ناظرة الى الفتاة التي كانت حينذاك ، عرفت أن أمها هي التي جبلتها على النحو الذي هي عليه . لكنها حين نظرت الى تلك المرأة المتسلّطة الطموح التي تستلقي هناك ساكنة وصامتة وقد أطاش الموت كل أهدافها الصغيرة، أحسّت برثاء غامض . لقد خططت وتآمرت طيلة حياتها ، ولم ترغب في أي شيء سوى ما كان خسيساً وغير ذي قيمة . وتساءلت كيتي إنْ كانت تنظر هي الى مسارها الدنيوي ومن عالم آخر نظرة فزع .

دخلت دوريس .

– ظننتُ أنك ستحضرين بهذا القطار . ورأيتُ أنه لا بد أن أتأكد للحظة. أليس هذا رهيباً ؟ أمنا المسكينة الحبيبة .

ورمت بنفسها بين ذراعي كيتي بعد أن انفجرت باكية . قبّلتها كيتي. إنها تعرف كيف أهملت أمها دوريس لصالحها ، وكيف كانت خشنة معها لإنها كانت بسيطة وعنيدة . تساءلت إنْ كانت دوريس تحس حقاً بالحزن المفرط الذي تظهره . لكن دوريس كانت عاطفية دائماً . تمنّت أن تتمكن من أن تبكي : ستظن دوريس أنها قاسية جداً. لقد أحسّت كيتي بأنها كابدت الكثير جداً مما يمنعها من التظاهر بضيق لا تحس به .

سألتها حين خمد انفجار النوبة الى حد ما :

– أتودين أن تأتي وتريّ أباك ؟

مسحت دوريس عينيها ، لاحظت كيتي أن حَمْل أختها جعل ملامحها كامدة ، كما بدتْ ، وهي في فستانها الأسود ، ضخمةً وفضفاضة .

– لا ، لا أظن أنني سآتي ، سأبكي ثانية فقط . يا للشيء المسكين

Amly نهضة العرب

العجوز ، إنه يتحمّل هذا على نحو مدهش .

وقادت كيتي أختها الى خارج البيت ثم عادت الى أبيها . كان يقف أمام النار ، وكانت الجريدة قد طويت طيّاً مرتّباً . أراد منها أن ترى أنه لا يقرأها ثانية .

قال :

– لم أرتدِ الملابس استعداداً للعشاء . لم أر أن هذا ضروري .

LXXX

تناولا العشاء . عرض السيد جارستين على كيتي تفاصيل مرض أمها وموتها ، وأخبرها عن لطف الأصدقاء الذين كتبوا (كانت على طاولته أكوام من رسائل متعاطفة ، ثم تنهّد حين فكّر بعبء الإجابة عليها) والترتيبات التي قام بها للجنازة . ثم عادا الى مكتبه . كان هذا المكتب الغرفة الوحيدة في البيت التي تحوي ناراً . وأخذ غليونه ، على نحو آلي ، عن رفّ المدفأة وبدأ يملأه . لكنه ألقى على ابنته نظرة شك وأعاد وضعه في مكانه .

سألتْ :

– ألن تدخّن ؟

– لم تحب أمكِ كثيراً رائحة الغليون بعد العشاء ، وكففتُ عن تدخين السيجار منذ الحرب .

وخزها جوابه وخزة طفيفة . بدا أن من الرهيب أن يتردد رجل في الستين عن تدخين ما يريد تدخينه في مكتبه .

ابتسمت :

– إنني أحب رائحة الغليون .

عبرت وجهَه لمحةُ ارتياح طفيفة ، فأشعل الغليون بعد أن عاد وأخذه مرة أخرى . جلسا متقابلين على جانبيّ النار . رأى أنه لا بد أن يتحدّث

Amly نهضة العرب

الى كيتي عن متاعبها .

– استلمتِ الرسالة التي أرسلتْها أمك اليك الى بور سعيد ، على ما أظن. لقد كان خبر موت وولتر المسكين صدمة عنيفة على كلينا . لقد رأيتُ أنه شخص رائع جداً .

لم تعرف كيتي ما تقوله .

– أخبرتني أمك بأنك ستضعين طفلاً .

– نعم .

– متى تتوقّعين ولادته ؟

– خلال حوالي الأربعة أشهر .

– سيكون عزاء عظيماً لك . لا بد أن تذهبي وتريْ إبن دوريس . إنه ولد صغير رائع .

كانا يتحادثان من على مسافة أبعد مما لو كانا غريبين تلاقيا منذ لحظة فقط ، فلو كانا كذلك لاهتم بها بسبب ذلك ولفضوله ، لكن ماضيهما المشترك كان جدارَ لامبالاة يفصل بينهما . كانت كيتي تعرف جيداً جداً بأنها لم تفعل ما يثير حنان أبيها نحوها ، فلم يُحسب له حساب في البيت واستُخف به ، فقد كان المعيل الذي احتُقِر قليلاً لإنه لم يستطع أن يقدّم لأسرته المزيد من أسباب الرفاهية ، لكنها اعتبرت حبه لها أمراً مسلّماً به لإنه كان أباها فقط ، فصدُمت إذْ اكتشفت أن قلبه كان خالياً من المشاعر نحوها . لقد عرفت أنهم كانوا كلهم يملونه ، لكنه لم يخطر في بالها بأنه كان يملّهم بنفس القدر . كان عطوفاً ومذعناً دائماً ، لكن حدّة الذهن الحزينة التي شُحذت لديها أثناء المعاناة أوحتْ لها أنه يكرهها في أعماق قلبه ، مع أنه لم يقرّ بهذا لنفسه ولن يُقرّ به أبداً .

لم يكن غليونه يسحب ، فنهض ليبحث عن شيء ينكشه به ، ربما كان هذا ذريعة ليخفي عصبيّته .

– رغبتْ أمك في أن تقيمي هنا الى أن تضعي طفلك وكانت ستطلب

Amly نهضة العرب

إعداد غرفتك القديمة لك .
- أعرف . وأعد ألاّ أكون مصدر إزعاج .
- أوه ، الأمر ليس كذلك . فمن الواضح في هذه الظروف أن المكان الوحيد الذي ستأتي اليه هو بيت أبيك. لكن الواقع الآن هو أنه عُرض عليّ منصب رئيس محكمة جزر البهاما وقد قبلتُ العرض .
- أوه ، يا أبي ، إنني مسرورة جداً . أهنئك من كل قلبي .
- وصل العرض متأخراً بعد فوات الأوان فلم أستطع أن أخبر أمك . كان هذا سيرضيها رضى عظيماً .

سخرية القدر المريرة . بعد كل الجهود والمؤامرات والإذلالات ، ماتت السيدة جارستين دون أن تعرف أن طموحها تحقق أخيراً ، مهما جرى على هذه الطموحات من تعديل بسبب خيبات الأمل الماضية .

- سأبحر في أوائل الشهر القادم . سيوضع هذا البيت بين يديّ الوكيل طبعاً ، وأنوي أن أبيع الأثاث . إنني آسف لإنني لن أكون قادراً على أن أسمح لك في الإقامة هنا ، لكنكِ إنْ أردتِ أخذ أي قطعة من الأثاث لتؤثثي شقة ، فسيكون من دواعي سروري العظيم أن أعطيك إياها .

نظرت كيتي في النار . خفق قلبها بسرعة ، كان من الغريب أن تصبح عصبيّة الى هذا الحد فجأة . لكنها حملت نفسها أخيراً على أن تتكلّم . وكانت في صوتها رعشة طفيفة .
- ألا يمكنني الرحيل معك يا أبي ؟
- إنتِ ؟ أوه ، عزيزتي كيتي .

وسقط وجهه . كثيراً ما سمعت هذا التعبير ، لكنها أخذته فقط كعبارة لغوية ، لكنها رأتْ لأول مرة في حياتها الحركة التي يصفها . لقد كانت واضحة جداً الى حد أنها أزعجتها .
- لكن كل أصدقائك موجودون هنا ، ودوريس هنا . ظننتُ أنك ستكونين أسعد كثيراً إنْ أنتِ استأجرت شقة في لندن . إنني لا أعرف بالضبط ما هي أحوالك ، لكنني سيسرّني جداً أن أدفع أجرتها .

Amly نهضة العرب

– لديّ ما يكفي من مال لأعيش عليه .
– سأذهب الى مكان غريب . ولا أعرف شيئاً عن أحواله .
– إنني معتادة على الأماكن الغريبة . ولم تعد لندن تعني شيئاً لي . إنني لا أستطيع أن أتنفّس هنا .

أغمض عينيه للحظة وظنّت أنه سيبكي . فاكتسى وجهه تعبير تعاسة مطلقة . وعصر هذا قلبها . لقد كانت على حق ، لقد أشاع موتُ أمها الإرتياح في نفسه ، وها هي الآن فرصةُ انتزاع نفسه انتزاعاً كاملاً من ماضية تمنحه الحريةَ . لقد رأى حياة جديدة تمتد أمامه أخيراً وبعد كل هذه السنين ، حياة راحة وسراب سعادة . ورأت رؤية غائمة كل المعاناة التي افترست قلبه مدة ثلاثين سنة . وأخيراً ، فتح عينيه . لم يستطع منع إنطلاق التنهيدة التي هربت منه .

– إنْ كنتِ تودين المجيء فإنني سأسر كثيراً طبعاً .

كان هذا مثيراً للرثاء . كان الصراع قصيراً واستسلم الى إحساسه بالواجب . وبكل تلك الكلمات القليلة ، تخلّى عن كل آماله . فنهضتْ واقفة من كرسيها واقتربت منه ثم ركعت أمامه وأمسكت بيديه .

– لا يا أبي ، لن آتي إلاّ إذا أردتني أن آتي . لقد ضحّيتَ بنفسك بما فيه الكفاية . إنْ أردتَ أن تسافر وحيداً ، فسافر . لا تفكّر فيّ مدة دقيقة .

أفلت إحدى يديه ومسّد رأسها الجميل .

– أريدك طبعاً يا عزيزتي . فأنا أبوك بالرغم من كل شيء ، وأنت أرملة ووحيدة . إنْ أردتِ أن تكوني معي فسيكون قسوة مني ألاّ أريدكِ أن تأتي معي .

– لكن ، ذلك هو الأمر . ليس لي من حق عليكَ لإنني إبنتك ، وأنتَ لست مديناً لي بأي شيء .

– أوه يا طفلتي العزيزة .

وكررت القول بحماس :

– لا شيء . إن قلبي يغرق حين أفكّر كيف أننا سَمِنّا على حسابك طيلة

Amly نهضة العرب

حياتنا ولم نقدّم اليك شيئاً مقابل هذا . ولا حتى عطف طفيف . أخشى ألا تكون عشتَ حياة سعيدة جداً . ألن تسمح لي في أن أحاول أن أعوضك قليلاً عن كل ما فشلتُ في أن أفعله في الماضي .

عبس قليلاً . لقد اربكته عواطفها .

– لا أعرف ما تعنينه . فأنا لم أشتكِ منك .

– أوه يا أبي ، لقد كابدتُ الكثير جداً ، وكنتُ شديدة التعاسة . أنا لست كيتي التي كنتُها حين رحلتْ . إنني ضعيفة جداً ، لكنني لا أظن أنني النذلة القذرة التي كنتها حينذاك . ألا تريد أن تتيح لي فرصة ؟ ليس لدي من أحد في العالم سواك . ألن تسمح لي في أن أحاول أن أجعلك تحبّني ؟ أوه يا أبي . أنا وحيدة وتعيسة جداً ، إنني بحاجة ماسة الى حبك .

دفنت وجهها في حجرة وبكت كأن قلبها كان سينفطر .

تمتم :

– أوه كيتي ، صغيرتي كيتي .

رفعت عينيها وأحاطت رقبته بذراعيها .

– أوه يا أبي ، كن رفيقاً بي ، لنكن رفقاء ببعضنا بعضاً .

قبّلها على شفتيها ، كما قد يفعل محب ، وتبلل خداه بدموعها .

– طبعاً ستأتين معي .

– هل تريدني أن آتي ؟ هل تريد حقاً أن آتي ؟

– نعم .

– إنني ممتنة لك .

– أوه يا عزيزتي ، لا ترددي أقوالاً كتلك لي . إن هذا يشعرني بالإرتباك تماماً .

أخرج منديله وجفف عينيها . وابتسم بطريقة لم تره يبتسم مثلها من قبل . ومرة أخرى ، رمت ذراعيها حول رقبته .

– سنعيش في مرح يا أبي العزيز ولن تعرف مدى اللهو الذي سنلهوه

Amly نهضة العرب

معاً .
- لا تنسيّ أنك ستنجبين طفلاً .
- سيسرّني بأنها ستولد هناك على مسمع من البحر وتحت سماء زرقاء واسعة .
تمتم ، مبتسماً إبتسامته الرقيقة الجافة :
- هل حدّدتِ جنس المولود ؟
- إنني أريد طفلة لإنني أريد أن أربّيها فلا ترتكب نفس الغلطات التي ارتكبتُها أنا نفسي . حين ألتفتُ الى الماضي ناظرة الى الفتاة التي كنتها، أكره نفسي . لكن ، لم تسنح لي قط أية فرصة . سأربّي إبنتي لتكون حرة وتستطيع أن تقف على قدميها . لن أجلب طفلة الى العالم وأحبها وأنشئها لكي يشتهي رجل أن ينام معها الى حد أن يقدّم اليها عن طيب خاطر المأوى والمأكل طيلة حياتها .
تصلّب أبوها . فهو لم يتكلّم قط عن أمور كهذه وقد صدمه سماع هذه الكلمات من فم إبنته .
- إسمح لي في أن أكون صريحة هذه المرة فقط يا أبي . لقد كنتُ بلهاء وشريرة وكريهة ، وقد عوقبت عقاباً رهيباً . وأنا مصممة على أن أنقذ إبنتي من كل ذلك . أريدها أن تكون شجاعة وصريحة . أريدها أن تكون شخصاً مستقلاً عن الآخرين لإنها تمتلك نفسها ، وأريدها أن تأخذ الحياة كرجل حر ، وأجعل حياتها أفضل من حياتي .
- لماذا يا حبيبتي ، أنتِ تتكلّمين كأنك في الخمسين من عمرك . فحياتك كلها أمامك . يجب ألاّ تكوني قانطة .
هزّت كيتي رأسها وابتسمت ببطء .
- لستُ قانطة . فلدي الأمل والشجاعة .
انتهى الماضي ، وليدفن الموتى موتاهم . هل ذلك قاس قسوة رهيبة ؟ لقد أملت من كل قلبها لو تعلّمت التعاطف وحب الخير . لم تستطع أن تعرف ما يخبئه لها المستقبل ، لكنها أحسّت في نفسها بقوة تتقبّل كل

Amly نهضة العرب

ما يحل عليها بروح خفيفة ومرحة . ثم طفت ، فجأة وبلا سبب تعرفه ومن أعماق لاوعيها ، ذكرى الرحلة التي قامت بها ، هي وولتر المسكين، الى المدينة المصابة بالطاعون حين واجه موته : فذات صباح انطلقا وهما في محفتيهما والظلام لا يزال مخيّماً ، وحين بزغ النهار اكتشفتْ بالحَدْس ، أكثر مما رأت بعينيها ، منظرَ جمال يحبس الأنفاس الى حد أن كرب قلبها الشديد خفّ لفترة قصيرة . فحوّل المنظرُ كلَ المحن البشرية الى تفاهة . وأشرقت الشمس مبدّدة الضباب ، ورأت الدرب الذي كانوا سيسلكونه متلوّياً الى الأمام حتى أقصى ما يمكن للعين أن تصل اليه بين حقول الأرز ، وعَبْر نهر صغير وخلال منطقة ريفية متموّجة: ربما ما كانت كل أخطائها وحماقاتها ، ولا التعاسة التي عانت منها ، عقيمةً عقماً كاملاً لو أنها استطاعت أن تتبع الدرب الذي تبيّنته على نحو مبهم أمامها ، ليس الدرب الذي قال عنه وادينجتون الطيب المضحك بأنه لا يفضي الى أي مكان ، بل الدرب الذي تبعته تلك الراهبات العزيزات في الدير بتواضع ، الدرب الذي يؤدي الى السلام .

Amly نهضة العرب

صدر ويصدر عن دار النسر – ترجمة : سمير عزت نصّار
كتب النسر – قصص وروايات عالمية (ترجمة رائعة لروائع الأدب العالمي)

إسم المؤلف	إسم الروايه
– جراهام جرين	* الخاسر ينال كل شيء
	* الرجل الثالث
	* دكتور فيشير من جنيف(حفلة القنبلة)
– ألان روب جرييه	* غيره
– سومرست موم	* في الدارة فوق التل
	* النقاب الملوّن
– وليم فوكنر (نوبل ٤٩)	* رجل عجوز
	* وأنا أحتضر
– وليم جولدينج (نوبل ٨٣)	* لورد الذباب
	* الورثة
– جون شتاينبك (نوبل ٦٢)	* اللؤلؤة
	* المهر الأحمر
– أيرنست همنجواي (نوبل ٥٤)	* حياة فرانسيس ماكومبير القصيره السعيدة
	*رجال بلا نساء
	*في زماننا
	* إن كنت تملك وإن كنت لا تملك
	*الشمس تشرق أيضاً
– أرسكين كالدويل	*كلوديل
	* يد الله الأكيده
– كنوت هامسون (نوبل ٢٠)	* الجوع
– ألبرتو مورافيا	*الحب الزوجي
	* صوت البحر
– هـ ٠ ج ٠ ويلز	* ألة الزمن وبلاد العميان
– سبيريان إكوينسي	* العشب المحترق

Amly نهضة العرب

- جابرييل جارسيا ماركيز(نوبل١٩٨٢)	* ايريناديرا البريئة
	* مائة عام من العزله (ترجمة جديده)
	د ٠ محمد الحاج خليل

قصص وروايات عالميه للأطفال والشباب

جورج إليوت	* آدم بيد
هنري جيمس	* دورة اللولب
جول ڤيرن	* عشرون ألف فرسخ تحت البحر
هـ ٠ ج ويلز	* الرجل الخفي
	* آلة الزمن
مجموعه من كتّاب الخيال العلمي	* ٢٠٠١ وما بعدها

وصدر من الأدب والفكر العربي

تموجات مهيبة	(قصص)	سمير عزت نصار
ثلاثة نقوش محجوبه	(خواطر فلسفيه أدبيه)	فايز محمود
وقال الطائر الذبيح : لا	(قصص)	سمير عزت نصار
إكليل الجبل	(قصه)	سحر ملص
الرافضون مواقف ومخاطبات	(خواطر فلسفيه)	إبراهيم العجلوني
مسافات	(قصص)	يوسف الغزو
بيدر الرماد	(شعر)	محمد عيسى الحوراني
صدى المنى	(خواطر أدبيه فلسفيه)	فايز محمود
خصوصية المرأة	(بحث أدبي فلسفي)	راشد عيسى
وداعاً يا زاغرب	(قصه)	محمد داود طهبوب
خطابات الإسكندر	خواطر فلسفيه	فيصل زريقات
ليلة العاصفة	(قصص)	محمد داود طهبوب
قصص من الواقع	(قصص)	ريما عيد عاصي مقطّش

Amly نهضة العرب

دار النسر للنشر والتوزيع

هذه الرواية
النقاب الملوّن (١٩٢٥)
تأليف : وليم سومرست موم

تكشف الجملة الأولى من هذه الرواية عن خيانة زوجية أثناء وقوعها . فيلتقط القارىء الأنفاس ليعرف مصير هذه الزوجة ورد فعل زوجها ، ثم موقف العشيق . ومن الكلمة الأولى ، يصطحبنا الكاتب الماهر في بناء الرواية جيدة الصنع ، أو متقنة الحبكة في رحلته هذه مع أحداث هذه الرواية وفي دراسة نفسية وعقلية الشخصيات الرئيسية فيها . فيرجعنا الى الماضي بطريقة ذكية لنعرف المزيد عن كيتي ، البطلة ، وعن علاقتها بأسرتها وأمها وأختها وبيئتها البريطانية في فترة إزدهار الإستعمار البريطاني . ويتم السرد الماضي بطريقة لا تدخل الملل الى نفس القارىء الحديث ، فنحن ننتقل بسرعة من لقطة مركّزة الى لقطة مركزة أخرى تلقي ضوءاً ساطعاً على كل ما يمكن أن يزيد من معرفتنا لشخصية كيتي ومن يحيط بها من أقرباء وغرباء . فهو لا يستعمل السرد التقليدي الذي يراكم أحداث الماضي ، بل يأخذ بيد القارىء ويستعرض معه صور ذلك الماضي الذي يخلق مستقبل الشخصيات .

إن روايات موم لن تبهت أبداً بمرور الزمن ، فهي أشجار سنديان تمدّ جذورها عميقاً في دنيا الأدب ، وستبقى خضراء خضرة دائمة مع مرور الوقت .

دار النسر للنشر والتوزيع
عمان / الأردن - جبل الحسين - دوار [illegible]
هـ : ٦٥٩٤٦٠ - ص . ب : ٩١٠٥٨٦